سعد بن عبد الرحمٰن الحصين

سيرة مسافر سعوديّ

حفظ حقوق التأليف والطبع قانون أوروبي،
والعلوم الشرعية لا يجوز تحجيرها ولا
احتكارها، ونشرها ابتغاء وجه الله عبادة صالحة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

سيرة مسافر سعودي

سعد الحصين

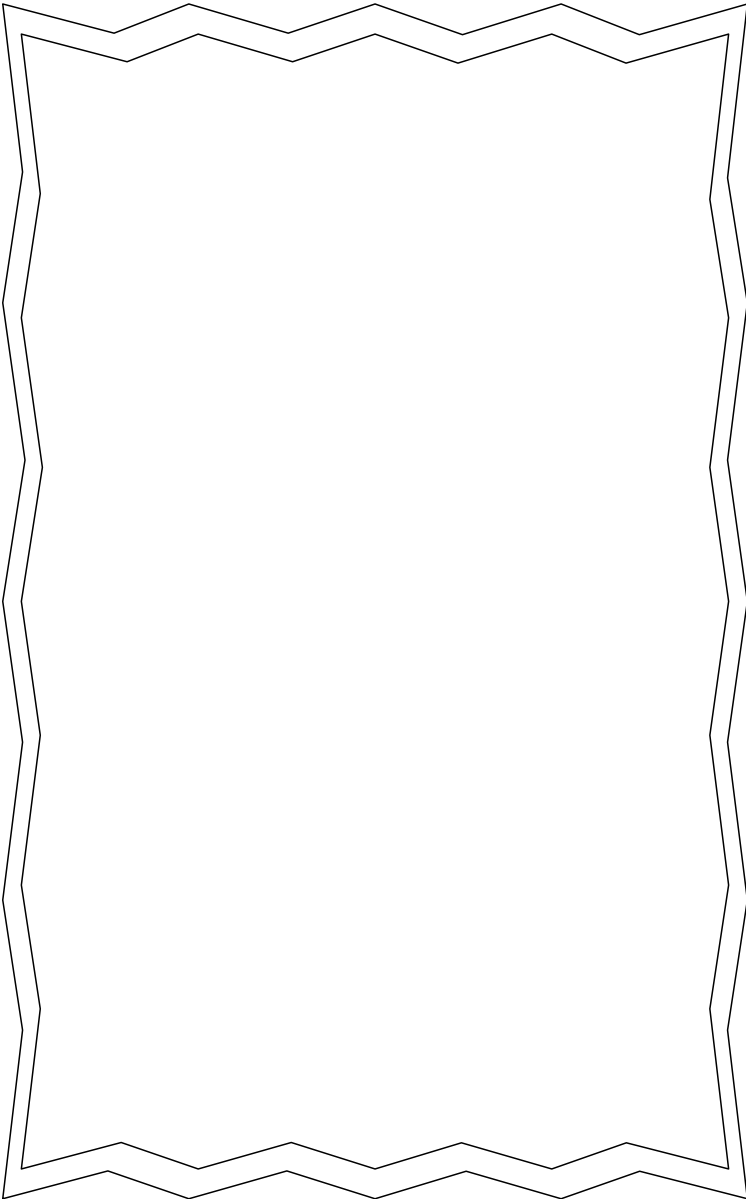

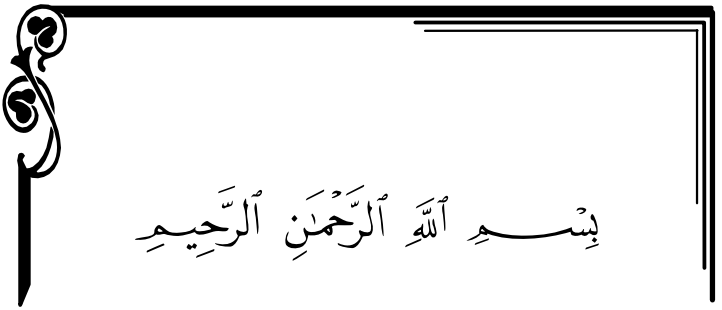

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

فإنَّ كلَّ عبد من عباد الله على سفر، منذ قدَّر الله الحياة فخلقه من تراب ثم من نطفة، حتى يقبض الله روحه بموته، وأطول أسفاره وأهمّها سفره الأخير الذي لا مفرَّ منه ولا مشيئة له فيه ولا محيد له عنه؛ إلى البرزخ والحشر والصراط، ثم إلى الجنَّة أو النَّار وَفْق ما قدَّم لنفسه بفضل الله وعدله.

وبين سفر البداية الذي لا خيار للعبد فيه وبين سفر النهاية الذي لا مهرب منه ولا شكَّ فيه؛ سفرٌ خلقه الله له وقدَّره عليه بشرعه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،

وهداه النجدين وخيَّره بين الإيمان به وطاعته وبين الكفر به ومعصيته: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ [الكهف: ٢٩] **بعد أن هداه الله هداية الدلالة العامّة لجميع مخلوقاته:** ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، **وقد اختار الإنسان بجهله حَمْل أمانة التكاليف الشرعيّة وتحمُّل النتائج؛ بقدر الله تعالى وعلمه بما يكون في مستقبل الحياة:** ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ﴾ [يونس: ٩]، **ولله تعالى الحكم وإليه يرجع الأمر كلّه، يهدي من يشاء هداية التَّوفيق بفضله، ويضلّ من يشاء من عباده بعدله تعالى وباستحقاق عبده ذلك منه.**

وسبق أن كتبت سيرة سفر هذا المواطن السَّعوديّ التعليميّة، ثم كتبتُ سيرته الوظيفيّة؛ وكانت الأولى (التَّعليميّة) محاولة للاستجابة لطلب كريم خاصّ من أخي في الدِّين وفي وطن الدَّعوة إليه على بصيرة الأستاذ د. عبد الله بن محمد الزّيد رئيس قسم التّربية في جامعة الملك عبد العزيز شطر مكة (جامعة أم القرى فيما بعد) ثم المدير العام للتعليم في المنطقة الغربيّة، ولطلب كريم عام من وزارة المعارف (التّربية والتَّعليم فيما بعد)، ونَشَرها د. عبد الله الزّيد بعد أن قدَّم لها بما هو خير منها.

وكانت الثانية (الوظيفيَّة) وتخصّ الدَّعوة إلى الله على منهاج النُّبوّة (أعظم وظيفة بعد العبوديَّة والنُّبوّة والرِّسالة) محاولة للاستجابة لطلب كريم من معالي الشيخ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بصفته وزيرًا للشؤون الإسلامية والأوقاف والدَّعوة والإرشاد.

ولكلٍّ منهما دالَّةٌ بهمّته وجِدِّيَّته وسَمْته وإنجازاته وبعلاقته العمليّة بكاتب هذه السِّيرة دَفَعَتْه (على ضعفه وتقصيره ونقصه) إلى إجابة الطَّلب دون حساب للنَّتائج فأمرها لله وحده.

وهذه السِّيرة الثالثة المتعلِّقة بسفر هذا المواطن السّعودي في أرض الله داخل حدود المملكة المباركة وخارجها طَلَبَ تسجيلها الشيخ د. محمد بن فهد الفريح الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود (المعهد العالي للقضاء)، والشيخ أحمد بن طالب حفيد (الشيخ عبد المجيد بن حسن الجبرتي إمام المسجد النبوي وعضو هيئة كبار العلماء قبل أن يعجزه الكِبَر ويدركه الأجل ويدفن في المدينة النَّبويّة رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان قبل ذلك كلِّه أستاذًا لكاتب هذه السِّيرة ومديرًا لمدرسته الابتدائية في (شقراء) منذ أُسِّست حتى نُقِل للعمل قاضيًا في رابغ.

ومن الله وحده التوفيق ومن عبده الخطأ والنِّسيان.

❁ ❁ ❁

(أول مفارقة للقرية)

أ ـ ربما كان أوَّل مرّة فارق فيها كاتب السِّيرة عامر قريته «شقراء» في مرحلة الطفولة لم يَبْعد عن سور القرية أكثر من مائة متر لمثل الأغراض التَّالية:

١) مشاهدة منّة الله بالغيث إذا اكتظَّت به الأودية وأهمّها (وادي الغدير) الذي يتميَّز بمصبِّه في قليب (الحميضيّة) وهي لا تمتلئ منه أبدًا بل لا تزال وكأنّها تقول: هل من مزيد؟ حتى لا يبقى مزيد، ثم يتفرَّق على الآبار الأخرى في القرية، ثم يعود إليها نصيبها منه في اليوم التَّالي.

ومع أني شاهدت بعض أكبر الشلَّالات في العالم فلا زلت أتذكَّر الدَّهشة والرَّهبة التي غمرتني يوم اكتشفت نهاية سيل وادي الغدير في قليب الحميضيّة.

٢) مشاهدة حَفْر خندق (زِبْيَة) لصغار الجراد قبل أن يطير

(الدّبا) خلف السّور عندما يزحف على القرية، فإذا بدأ تساقطه في الخندق أخذ الناس في ضربه بأغصان النخل (العُسُب) حتى ينتهي زَحْفُه أو يَغْلِبَ بكثرته. وصحبتُ والدي رَحِمَهُ اللَّهُ مرّة إلى هذا الخندق، وكان الذين يحفرون يُغَنُّون على وَقْع المساحي والفؤوس، فلما رأوا الوالد (رَحِمَهُ اللَّهُ ورحمهم) متَّجهًا إليهم، (وهو من كبار رجال الحُسْبة عشرات السنين) تركوا أغنيتهم العاطفيّة وردّدوا نشيدًا وطنيًّا يحمدون الله فيه على ما أعزَّ به دينه وصدق وعده ويُوَحِّدون الله وحده:

نِحْمِد اللي عزّ دينه وصدّق بالوعد

ونلْبِس التّوحيد ثوبًا من البيضا جديد

وبذلك تخلَّصوا من إنكار الوالد عليهم.

٣) صيد الجراد بعد صلاة الفجر قبل طلوع الشمس لمباغتته في مراقده قبل أن تدفئه الشمس فيطير، وكان من المحتمل أن تقع أيدي الصّائدين على عقرب أو حيَّة ولكن نشوة الصَّيد تُنْسي الصائد مخاطره.

وكان الناس يحتفلون مساء يوم الصّيد بطَبْخ الجراد حيًّا ثم أكْله، ثم تركوه بعد أن وَفَد خَطَر جديد (صناعيّ غير طبيعيّ وموكّد غير محتمل): سموم مكافحة الجراد التي تُلْقيها عليه طائرات بعثة المكافحة الأمريكيّة.

ولكن بعض الناس وجد عوضًا بِتَتَبُّع مخيّمات البعثة وحفر ما دفنَتْه من معلَّبات الطَّعام والخضروات التي انتهت مدّة صلاحيتها، وهم لم يعرفوا أن للطعام مدّة صلاحية، وأكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، ولا يأبه مثلي.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى الرياض)

ب ـ وكان أول سفر حقيقي للكاتب ـ بعد إنهائه الدِّراسة الابتدائية ـ أول عام ١٣٦٨ من (شقراء) إلى (الرياض) على ظهر سيارة نَقْل (تشقّ طريقها بشقِّ الأنفس عابرةً السّهول والتِّلال في طريق غير ممهّد قبل أن تعرف طرق المملكة المباركة التّعبيد والسّفلتة) مع عمّي عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأسكنه فسيح جناته.

وفي الرِّياض رأيت أول شارع مسفلت (شارع الوزير) وفي جُزْءٍ منه سلسلة تُمَدُّ بِعَرْضِهِ بعد الأذان لتُوقِف مرور السّيارات القليلة جدًّا حتى تُقْضى الصَّلاة.

وسكنّا بيتًا طينيًّا صغيرًا في شارع الظَّهيرة (وكلّ البيوت من الطّين)، وكانت الأزقة حولنا تتحوَّل إلى منامات للكلاب الضَّالة (وكلّ الكلاب ضالّة)، وتعوَّدنا على الخوض في

مجموعة من الكلاب والجراء في طريقنا المظلم لصلاة الفجر فيفزعنا نباحها وعويلها بمختلف طبقات الصّوت، وننال من صراخها المفاجئ أكثر مما نالت من أقدامنا الضعيفة.

ولم يكن ينافس الكلاب كثرة في (الرِّياض) غير النَّمل الذي لم نتخلَّص من سَطْوِه على مؤونتنا من التَّمر إلَّا بأن نَمُدَّ سببًا إلى السّماء ونؤرجح وعاء التمر في طرفه بين السّقف والأرض، ولم يَدُم خلاصنا أكثر من بضعة أيام حتى اكتشف النَّمل طريقًا جديدًا لسرقة قُوتِنا من التَّمر بتسلّق الجدار رأسيًّا ثم السَّقف أُفقيًّا ثم الاختيار بين القفز أو النّزول على الحَبْل إلى حيث يتدلّى التّمر بين السّماء والأرض، ولم تمض مدّة طويلة حتى جُعْنا وشَبع النّمل بدليل أن لونه تحوَّل إلى لون التّمر.

ومن أبرز ما شاهده الكاتب الطِّفل في سفره هذا إلى (الرِّياض):

١) أوَّل حوادث الطّرق المسفلتة، وربما آخر ما شهده منها حال حدوثها، ففي مفرق شارع الوزير إلى حوطة خالد سابَقَ شيخٌ معمّم من شيوخ البادية سيارةً صغيرة يقودها شاب من أبناء الأكابر فكانت الغلبة للسيارة وطار الشيخ ثم وقع فوق السّيارة ميتًا، ولما عَرَّف السّائق نفسه إلى شرطي ذلك المفترق، ركب معه في مقدمة السّيارة ليسلِّمه إلى ولاة الأمر بدون تردُّد ولا ضجّة وكأنه تعوّد على فعل ذلك كلَّ يوم.

٢) وصول الملك عبد الله بن الحسين (أمير شرقي الأردن) تجاوز الله عنه إلى (الرِّياض)، وكان الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في استقباله، وقَدْ رُشَّ طريق المطار بالماء حتى تخفَّ ثورة الغبار إذ لم يصل إليه الإسفلت بعد، وفي أدنى المطار نُصِبت خيام للإدارة والاستقبال والانتظار، قبل أن يُتَّخذ البنيان لشيء من هذه الأغراض ببضع سنين.

واستُقْبِل بالعَرْضة الشّعبيّة وهي النّوع الوحيد من النَّغَم المأذون به في ذلك الوقت، ولذلك استمرَّت العرضة بعد رحيل الضيف والمضيف من المطار إلى (الرِّياض)، وزيد في الشعر بيت غير مأذون به:

مرحبا بالبيه عبد الله
مرحبا إن كان الملك راضي

٣) مَضِيف (ثليم) للبادية غالبًا، ولأنهم يفدون إلى (الرِّياض) في أيام معيّنة من السَّنة لاستلام أُعطياتهم الممنوحة لهم من قبل الملك، ويفد معهم كثير من صغار التُّجار لاستيفاء ما لهم على البادية من دَيْن.

وكانت الأعطيات (البروات والشرهات) تصرف جنيهات ذهبيّة ومع كثرتها في أيدي النّاس تنخفض قيمة صرفها، وكان أحد الدَّائنين من أهل (شقراء) يحاول أن ينام فلا يجد إلى النّوم سبيلاً لأنه ممن ابتلي ـ يومها ـ بانخفاض صرف ما في يده من

الذَّهب، فسأله جاره عن سبب أَرَقِه: (بَقّ)؟ فأجاب: كِلّهِن، بَقّ، وذَهَبٍ مِنْخَقّ).

❁ ❁ ❁

(السفر إلى الطائف)

ج ـ وكان السّفر الحقيقي الثاني والأهمّ في حياة صاحب السِّيرة: سفره آخر عام ١٣٦٨ إلى الطّائف لدراسة المرحلة المتوسطة والثانوية في دار التّوحيد (للعلوم الشرعيّة)، وقد كان مدير المعارف محمد طاهر الدباغ رَحِمَهُ اللَّهُ (حسب رواية حمد الجاسر رَحِمَهُ اللَّهُ في سوانح ذكرياته) قد اقترح أن تُنْشأ لتخريج معلِّمين من أهل نجد للتَّدريس في المدارس التي عاق افتتاحها في نجد قلّة المؤهلين للتعليم، فرأى الملك عبد العزيز بمشورة العلماء رحمهم الله جميعًا أن تخصّص للعلوم الشرعيّة والعربيّة، وكان الخير في ذلك فقد تخرج منها عدد كبير من المعلِّمين والقضاة والإداريين؛ وكانت دار التَّوحيد ثالث معهد للعلوم الشرعيّة أمر الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بتأسيسها لتعليم الشباب من مختلف المناطق وتوفير ما يحتاجه طالب العلم من مسكن ومطعم وخدمات أخرى على نفقة الدّولة الناشئة.

وكان أول هذه المعاهد: المعهد العلمي السّعودي بمكة المباركة لأهلها والوافدين إليها من الدّاخل والخارج أسِّس بعد

سنتين أو ثلاث من ولاية الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ عليها، واختير له عدد من خيرة العلماء السّعوديين والسّوريين والمصريّين برئاسة الشيخ محمد بهجت البيطار رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان ثاني هذه المعاهد في (ينبع) لأبناء البادية أسِّس بعد معهد مكة بعشر سنين، ولحداثة هذا النّوع من التّعليم الحكومي لم يكن مرغوبًا فيه، ولكن الله سخّر لمعهد مكة الشيخ عبد الله ابن حسن آل الشيخ رئيس القضاة في مكة رَحِمَهُ اللَّهُ يرغِّب الناس فيه أثناء موسم الحج بخاصّة، وسخّر لمعهد (ينبع) أمير (ينبع) يدعو الناس إليه بالتَّرغيب والتَّرهيب، وانتهى أمره بانتهاء إمارة حمود بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ على (ينبع).

وكان ثالث المعاهد: دار التَّوحيد بالطائف، وأكثر طلَّابه من نجد يقادون إلى الخير بالشّرطة، وأقلّهم من مكة والمدينة والطّائف والجنوب عام ١٣٦٤هـ.

وكان سفر الطلّاب على ظهور الشاحنات، أو في سيارة البريد بصحبة شرطي. ولم تكن المحطّات ولا الورش ولا المقاهي قد انتشرت على الطرق الصّحْراوية، فكان السّائق يأخذ حاجته من الماء والوقود والطّعام وما تكثر الحاجة إليه من قطع الغيار (المستعملة غالبًا) والأدوات لإصلاح أيّ خلل يطرأ على سيارته، لأن الخيار الثاني وقوفها على الطّريق أيامًا حتى يصل الفرَج من (مكة) أو (الرِّياض):

١) وصلنا (مكة) المباركة بعد بضعة أيام، ولأن

المسافرين تلك الأيام لا يعرفون شيئًا عن الفنادق، لا اسمها ولا رسمها ولا معناها؛ فقد سأَلْتُ عن بيت الجميح مثلما يفعل أكثر أهل (شقراء) (وعندما سافر أحدهم للعلاج في مصر وليس فيها بيت للجميح أوصاه أخوه رحمهما الله: نَوِّخ على الخديوي).

وفي بيت الجميح يجد عارفوهم من الطعام والمنام في الصّباح والمساء وما بينهما ما لم يجده أسلافهم عند حاتم الطائي الذي ذكّرتْ عنه الرِّوايات إن صَدَقَتْ أنَّ آخر ما وصل إليه ذَبح الفرس.

دلَّني أحدهم على الجودرية حيث توجد محلَّات لأهل نجد، فوقفت على أحدها وسألت صاحبه فعَرَفَني وأنا له مُنكِر جزاه الله خير الجزاء، وطلب مني الجلوس عنده قليلاً حتى يُؤّذَّن لصلاة الظهر فتغلق المحلّات طوعًا أو كرهًا (منذ ولاية دولة الدعوة)، وبعد الصّلاة ذهب بي إلى منزله وأشركني في غدائه، وفي المساء أو صباح اليوم الثاني دلَّني على بيت الجميح، وكعادة الشيخ محمد الجميح رَحِمَهُ ٱللَّهُ بادر بالكتابة إلى الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ معاتبًا لتأخري عن النُّزول في ضيافته فور وصولي، فردَّ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن بيت الجميح هو المقصد الأوَّل بعد بيت الله، ولكن (حَال دون الضّبّ وْرَرْ) غَيَّر المثل (حال دون الضبّ أرنب) ليناسب المقام مع شكره ودعائه للمضيف المقصود وغير المقصود رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جناته.

سمعت عن مكة كثيرًا، فقد كان خالي رَحِمَهُ اللَّهُ يكثر التَّردُّد عليها قضاء للمناسك وابتغاء فضل الله حتى صار أخي يسمِّيها (مكة خالي)، ومتَّعني الله بدخول بيته أوَّل مرّة قبل بدء التّوسعات السّعودية بست سنين، فكانت المنازل والمحلَّات التجارية (بيع الكتب بخاصّة) تُلاصق جدرانه من كلِّ جانب، وكان المسعى تمشي فيه السّيارات والدّواب، وعلى جانبيه تزدحم المنازل والأسواق ومحلات التجارة من كلِّ نوع، ويزاحم المارّة والباعة السَّاعين فيه.

ويقابل أحد أبواب المسجد الحرام الجنوبيّة مقهى شعبي يقدِّم الشاي والشيشة، يهرع إليه المتسوِّلون بنشاط لا يظهر عليهم أثناء التَّسوُّل (عافانا الله مما ابتلاهم به) للاستراحة من أداء وظيفتهم بين العشاءين، ويؤمُّه المحتاجون إلى خدماته من غيرهم، وقد ينام (على كراسيه الطويلة) المعتمر أو الحاج ليكون أقرب إلى المسجد لصلاة الفجر، يروي مُحَدِّث المدينة العبّاد أن اثنين من (سدير) جَرَّبَا ذلك بعد أدائهما العُمْرَة فذكر أحدهما للآخر أنه لم ينم لارتفاع صوت عمّال البناء طول الليل: (عَبِّ حَجَر) فأجابه: (الله يرحم حالك، ما يبنون، يشربون تِتِنْ في حبل)، ولم يكن أهل نجد يعرفون هذا الجديد الفاسد من (الحضارة)؛ بل كان المسافرون من (مكة) إلى (الرِّياض) يُفَتّشون في مركز الشرائع خشية انتقال هذا الوباء إلى أرض لم تعرفه بَعْدُ من دولة الدعوة، ولما فُتّش شيخ من

(شقراء) سأل المفتِّش مستنكرًا (تخافون يظهر التّتن في مهابط الوحي)؟

وعلى هذا كان من أوّل الغرائب التي رأى أحد القائمين على شركة الجميح اطلاعي عليها: دكان ابن زقر تملؤه الصَّناديق المرصوصة بين أرضه وسقفه، ولما سألني عنها نظرت إليه ببلاهة ولم أجد جوابًا، فأخبرني أنها سجائر أبو جْنِيه، ولم تكن أكبر المصائب التي ورثَتْها دولة الدعوة من دولة الخرافة العثمانيّة، كان في المسجد الحرام أربعة مقامات بعدد الأئمة الأربعة يصلِّي كلّ ورثة مذهب خلف إمامهم، وكان عدد المؤذنين بعدد المآذن وكأنّ المقصود التّطريب لا الإيذان بدخول وقت الصّلاة، وغير ذلك من محدثات البدع التي غَيَّرّتْها دولة الدعوة واحدة بعد أخرى حسب أهمِّيّة تغييرها؛ فكان أول ما غيِّر منها تعدُّد الأئمة فجُمِع الناس على إمام واحد كما جَمَعَتْهُم دولة الدعوة على اعتقاد واحد وعبادة ومعاملة واحدة على مثل ما كان عليه النّبيّ ﷺ وأصحابه، وكان آخرها تطهير منطقة الحرم من مقاهي الشّيَش أوّلاً ثم من بَيْع بقية أنواع التّدخين.

ولم تكن الشّيَش أسوأ ما في المقاهي؛ بل كان أسوأ منها الفُحْش في القول والعمل.

وقبل خمسين سنة من كتابة هذه الأسطر لم أعْرِف في مكة من دعاة منهاج النبوة غير الشيخ عبد الله بن عبد الغني

خياط خطيب المسجد الحرام ومدير كلية الشريعة، واليوم (بفضل الله ثم بفضل دولة الدّعوة) لا أحصيهم عددًا.

٢) وبعد يومين أو ثلاثة حصلْتُ من الشيخ العلاَّمة محمد بن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدير المعارف بمكة على القبول للدِّراسة بدار التوحيد (وكان الطّلاب قبل سنتين أو ثلاث يُلْزَمون بالدِّراسة فيها ثم يهربون منها إذا وجدوا مَهْرَبًا).

وركبتُ سيارة البريد إلى الطّائف، وكنتُ قد سألتُ أخي الذي سبقني إلى دار التّوحيد كيف لي أن أعرف الطريق إلى المدرسة من محطة البريد؟ فقال: إذا ترجّلتَ من سيارة البريد في برحة القزاز فسترى زجاج نوافذ المدرسة من مكانك، ولم يكن بينهما بناء في ذلك الوقت.

وكانت أكثر البيوت في (الطّائف) كما في (مكة) و(جدة) و(المدينة) مبنية بالآجر ومسقوفة بالخشب ومطليّة بالجصِّ والنّورة، وكانت نوافذها وأبوابها من الخشب، ولم تعرف الكهرباء ولا الغاز ولا الماء، إلَّا منقولاً بالصَّفائح والقرب على ظهورِ الرجال، ولم تعرف شوارع (الطّائف) الإسفلت، وكان أوّل ما حصلتْ عليه من ذلك كلِّه شركة الجفالي للكهرباء سَبَقَتْ بها جميع مدن وقرى المملكة المباركة، وكان كل الفنِّيين فيها من ألمانيا.

وعرفتُ في (دار التَّوحيد) ما لم أعرفه من قبل من خير

الدّين والدّنيا؛ كان أوَّلُ مَنْ رَأَسَها خير علماء الشام منذ عصر ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حتى اليوم محمد بهجت البيطار رَحِمَهُ اللَّهُ، وتعلَّمنا دروسًا في الاعتقاد على اثنين من خير (بل هما خير علماء الأزهر: الشيخ طه السّاكت رَحِمَهُ اللَّهُ عضو لجنة الإفتاء في الأزهر، والشيخ عبد الرّزاق العفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ الذي صار فيما بعد نائبًا للشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في الإفتاء).

وعرفتُ أنواعًا جديدة من الطّعام (غير البرّ والتّمر واللبن الذي عشنا عليه) مثل الرّزّ البخاري والسَّلطة وخبز التّميس والفول، وأنواع من الخضروات والفواكه لم نعرفها من قبل، ومواعيد جديدة لتناول الطّعام الخاصّ بها، بعد أن كانت الأَكْلَة المطبوخة الوحيدة بعد العصر (أو بعد المغرب للفلّاح والعامل) إضافة إلى التّمر واللبن ظهرًا ـ لمن يملكه ـ، وهكذا كانت حال الناس في زمن النبي ﷺ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما أكل آل محمد أكلتين في يوم إلّا وكانت إحداهما من التّمر». وهكذا كانت حال الناس في بلاد الشام (المباركة بالأنهار والأشجار والنّبات) كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (في زاد المعاد عند بحث الوصال في الصّوم).

وعرفتُ أنواعًا كثيرة من السّيّارات الأمريكيّة: الكادلك، والبيوك، والشّفروليه، والبونتياك، والفورد، بل عرفت أنواعًا انقرضت: الهدسون، والاستدبيكر، والباكار، ولكنّ نصيبي من آلات الرّكوب لم يتجاوز الدّرّاجة الهوائية، وهي أعقَل ما صُنع

منها، إذ تُفيد مَرْكبًا ورياضةً بلا وقود ولا تلوُّث ولا ضجيج ولا كبير نفقة، ومع أني اقْتَنَيْتُ أنواعًا من سيارات الرُّكوب ـ فيما بعد ـ فلا يزال الحبّ للحبيب الأول.

٣) وتخلَّلتْ أيام الدِّراسة في (دار التّوحيد) اجتماعات طلاّبها الأسبوعيّة يستمعون إلى إنتاج زملائهم الفكري شعرًا ونثرًا وتفكّهًا بالنّسج على منوال القصائد المشهورة، مثل: (قم للمعلِّم وفِّه التبجيلا) و(على قدر أهل العزم تأتي العزائم).

٤) وتخلَّلتْها رحلات قصيرة للتسلية في الرّدّف وغدير البنات والوهط ووادي محرم وركبه، ورحلة أطول إلى (مكة) و(المدينة) عام ١٣٧٠، وكان المسجد الحرام والمسجد النبوي يضاء بمولّدات الكهرباء الخاصّة بكلٍّ منهما، وتُدَلَّى مصابيح الكهرباء في الأواني الزّجاجية التي كانت تستعمل للإضاءة بالزّيت أو الدهن، ولم تكن التوسعات السّعوديّة بدأت في أيٍّ منهما.

٥) وصلنا المدينة النبويّة فبدأنا بصلاة ركعتين في المسجد النبويّ (كما هي السُّنّة) وصلّينا وسلَّمنا على النَّبي ﷺ واستغفرنا واستفتحنا برحمة الله (كما هي السُّنّة) عند دخول المسجد، واكتفى بذلك بعضنا اقتداءً بفعل بعض الصحابة، وزاد الأكثرون منّا فمرُّوا بقبر النبي ﷺ وصاحبيه، وكرّروا الصّلاة والسّلام عليه، ثم سلّموا على صاحبيه ودعوا الله لهما

بالرضوان، ولم يقف منّا أحد في مواجهة القبور للدعاء كما يفعل أكثر الناس اقتداء بالمبتدعة والجهلة، بل انصرفوا للدعاء في مواجهة القبلة.

وأذكر أننا جلسنا بعد العصر في مؤخرة المصلَّى مع الشيخ محمد القاضي أحد القضاة في المدينة، ولا أرى غيرنا في المسجد، فلم يكثر الزوّار والمعتمرون إلّا بعد أن تيسَّرت سبل السفر وكثر المال في أيدي الناس بفضل الله، وتوسَّع الناس في استقدام العمَّال والخدم من شبه القارة الهنديّة وجنوب شرقي آسيا.

وكان مِنْ خير من أمَّ المصلِّين في المسجد النبوي (إن لم يكن خيرهم على الإطلاق) الشيخ صالح الزغيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذكر عنه أحد مؤرخي المدينة أنّه لم يتخلف عن إمامة المصلِّين (فرضًا واحدًا) خمس عشرة سنة رغم عوارض الأمراض الخفيفة، وكان قلبه (فيما يظهر لعارفيه) معلَّقًا بوظيفته العظيمة لا يصرفه عنها تجارة دنيوية ولا وظيفة غيرها ولا انتداب ولا إجازة، وكان لا يخرج من المسجد بين المغرب والعشاء، ويجلس في محرابه بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس (كما هي السُّنّة)، فلم يطمح إلى غاية دنيويّة بل اختار الطموح إلى الجزاء من الله: بانتظار الصّلاة بعد الصّلاة، «فذلكم الرباط» وصلاة الملائكة عليه «وإن الملائكة لتصلِّي على أحدكم ما دام في مصلّاه (أو مجلسه) الذي صلّى فيه»، اللهمّ بلِّغه ما سعى إليه.

ومن خير من أمَّ المصلِّين في المسجد النَّبويّ قبله في العهد السّعودي المبارك: الشيخ محمد بن عبد الرّزاق حمزة، ثم نُقِل إلى المسجد الحرام مع زميله أبو السمح وقد استُقْدِما من مصر في أوَّل العهد السّعودي لِما عُرِفا به من صحة المعتقد والتزام السُّنّة إذ تعلَّما في مدرسة (الدعوة والإرشاد) التي أسَّسها الشيخ محمد رشيد رضا في مصر، وأثناء عملهما في المسجد الحرام أسّسا (دار الحديث) في (مكة) المباركة، ولا تزال شاهدة على فضل الله عليهما وإن استولى عليها الحركيّون والحزبيّون فغيّروا وبدّلوا في منهاجها واتِّجاهها، ولكنّها بقيت حرّة من قيود الرّوتين الإداري التّعليمي متميِّزة على المدارس الأهليّة القديمة (مثل الصّولتية)، والحديثة بأكثر دروسها ومقرَّراتها السَّلفية غالبًا.

ولا زال الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة متميِّزًا على كلِّ أئمة المسجد الحرام والمسجد النَّبوي قبله وبعده في القرون المتأخِّرة (رحمهم الله جميعًا؛ في دعوته إلى الاتِّباع ومحاربته الابتداع).

وكان من خير أئمة المسجد النبويِّ بعده الشيخ عبد الله ابن محمد بن زاحم (رئيس المحاكم في المدينة) محاربة للبدع على كثرة أهلها الظاهرين والمستترين المدَّعين محبة الرسول ﷺ بالغلوِّ في ذاته، والبعد عن سنَّته ومخالفة أمره ونهيه بالابتداع في الدِّين الذي أرسله الله به.

٦) ويسَّر الله لي الحج بعد بلوغي الحُلُم بسنةٍ واحدة عام ١٣٧٠ ثم عام ١٣٧٢ أثناء دراستي في (دار التّوحيد)، وكان الزّحام شديدًا لضعف التَّنظيم وقلّة الخدمات في ذلك الوقت مقارنةً بالحال الحاضرة عام ١٤٣٢؛ فلا وجود للجسور ولا الطرق الواسعة، وكان ركّاب السّيّارات الصغيرة (وهم قلّة) يصرُّون على الوقوف على الجمرة بسياراتهم، وكانت قدماي تفقدان الاتِّصال بالأرض، وتحرِّكني بغير إرادتي موجات الزّحام، وشعرت بيد تجذب ردائي فنظرتُ وإذا بشابٍّ أقوى مني يطلب أن أتنازل له عن الرّداء لأنه فقد إزاريه بسبب الزّحام، فتصدَّقت به عليه، وقد تكون أول وخير صدقة منَّ الله عليّ بتقديمها لنفسي، ولكن ذلك زاد من حرصي على الهرب من هذا المعترك، فألزمْتُ صاحب سيارة أن يقلّني فاعتذر بوجود زوجته معه، فلم يُقْنِعْني الاعتذار؛ الزوجة تركب في المقعد الخلفي وأنا وهو في المقعد الأمامي، وركبتُ معه إلى (مكة)، وعرفتُ أثناء الانتقال إلى (مكة) أنه الأستاذ عزيز ضياء رَحِمَهُ اللَّهُ الصّحفي الكتبي المعروف، ولم نصل (مكة) حتى صرنا معارف رغم الإكراه.

٧) وفي الحجة الثانية عام ١٣٧٢ وَجَدْتُ بصدفة مقدَّرة خيمة حكّام مصر الثائرين: محمد نجيب وجمال عبد النّاصر وصلاح سالم (وقد يكون بينهم أنور السّادات وعبد الحكيم عامر أو غيرهم)، وكان معهم الباقوري وزير الأوقاف، ولاحظتُ حين صافحتهم قوّة وحرارة المصافحة عدا الباقوري

فكانت يده مثل طَرَف جُبَّته ذبولاً، تجاوز الله عنّا وعنهم جميعًا، وحين أُعْلِنَت الثورة لم تكن تعنيني في شيء لقلّة متابعتي لأخبار السِّياسة حتى الآن، ولكنّي حمدت لهم (فيما بعد) سلامة ثورتهم من القتل والنّهب والسّلب إذا قورِنت بثورة العراق الدّموية الظالمة، أو بما هو أقلّ منها سوءًا، وإن كان الخروج على من ولّاه الله الملك (من غير أهل الحلِّ والعقد) مخالفة لشرع الله على أيِّ حال.

وحججتُ بعدها حجّتين بعد سنوات، ثم تركتُ مكاني في المشاعر المباركة لمن لم يحجّ واكتفيتُ بعبادات عامّة وخاصّة لا يضايقني فيها أحدٌ ولا أضايق فيها أحدًا، تجاوز الله عنّا جميعًا.

٨) أثناء الدِّراسة في (دار التّوحيد) لم يكن في (قروى) غير مسجد عام واحد، ودكان واحد يبيع فيه سعد أبو خبر البسكوت والكاز والسّكر والشاي ونحوها، وأهم ما أحتاجه استئجار بسكليت، وكان ذكيًا يعرف زبائنه أكثر مما يعرفون بعضهم؛ كنت أنتظر مرّة نصيبي من خدماته فسلم عليَّ شاب في مثل سنِّي أو أصغر، سلامَ العارفِ بي، ولما ذهب سألتُ أبو خبر عنه فقال: صحيح ما عرفْتَه؟ هذا عبد الرحمن الشويعر ولد عمَّتك، وربّما استغلَّ ضعف نباهتي فأجّرني بسكليت بِنْت يختلف عن بسكليتات الأولاد بلونه وشكله سامحه الله.

وعندما عدتُ للإقامة في الطائف بعد أكثر من نصف قرن سألتُ عنه، ولما عَرَف المسؤول أنّ رابطتنا تأجير البسكليتات قال: الآن ما يؤجِّر غير البواخر والطّائرات (إن أجَّر وسيلة نقل) فقد كثرت أمواله وأمراضه شفاه الله.

وانقرضت المعاهد الدّينيّة الثلاثة بإلغاء (المعهد الشرعي) في (ينبع) بعد بضع سنين من إنشائه، وتحوّل (المعهد السّعودي) و(دار التّوحيد) إلى مدارس عادية.

٩) ولكنّ الله عوّض عنها بافتتاح الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ أول المعاهد العلميّة الدّينية في «الرّياض» عام ١٣٧١ ثم كلّيتي الشريعة واللغة العربيّة عام ١٣٧٣، وانتشرت فروع المعاهد في الداخل والخارج حتى بلغت نحوًا من ٦٠ ضمن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة وفروعها في الداخل والخارج.

وقامت المعاهد والكلِّيَّات أولاً بمتابعة وإشراف الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة المباركة رَحِمَهُ اللَّهُ، وتعدَّدت وانتشرت بهمّة وإدارة الشيخ د.عبد الله بن عبد المحسن التركي (وفقه الله) وجزاهما عنّا خير الجزاء.

وكادت الجامعة أن تسمّي جامعة الملك فيصل الإسلاميّة، ولكن الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ رأى أن تحمل اسم المؤسِّس الأول للدّولة ومجدِّد الدِّين والدَّعوة الإمام محمد بن سعود لفضل الله به وفضله عليه، فكان له ما رأى أثابهم الله.

١٠) وبما أنَّ النفقة الإضافية التي كانت تصرف لطالب

الدار تزيد عن حاجته، فقد اشترى بعضهم عقارات زهيدة الثمن في أطراف الطائف استثمارًا لأيام الحاجة، أمّا صاحب السِّيرة فاختار الله له بفضله استثمارًا ليوم حاجة أعظم؛ فقد خصّص فائض نفقته قرضًا حسنًا لأحد الزملاء من أكبرهم سنًّا وأكثرهم مَرَحًا، كان يريد الزّواج واشترك في ملكيّة سيارة نقل لم تكن موفقة، وبعد ما يقرب من ٤٠ سنة فوجئ صاحب السِّيرة بزميله المقترض يبدي له الرَّغبة في سداد القرض: (٦٦) جنيه ذهبًا، و(١٣٧٥) ريال فضّة، ومع أن الله أغناه فلم يهن عليه سداد القرض ذهبًا وفضة كما هو حكم الشرع، إذ زاد سعرهما عشرة أضعاف، ففوَّضه صاحب السّيرة في دفع ما يشاء ومنع ما يشاء، فأعطاه (٤٠) ريال وَرَق عن الجنيه وريال وَرق عن ريال الفضة، وكان سِعْرُهما يومها (٤٠٥) للذَّهب و(٧ ـ ١٠) للفضة، فقبلها المُقْرِضُ وطلب كلٌّ منهما المغفِرةَ والعفو من الله للآخر، عفا الله عن الجميع.

ولو وكلني الله لنفسي فلربما حَرَمْتُها فِعْل الخير منذ البداية، أو لاكتفيتُ بإرضاء نزوة العاطفة الأولى بإقراض راتب سنة واحدة لا بِضْع سنين.

وكنت وزميلاً لي من (عنيزة) نزور خَلَف المطبّقاني رَحِمَهُ اللَّهُ بين ليلة وليلة فنقترض ريال فضّة ونصف ثمن المطبّق من أحد الزملاء الأغنياء، ولما بلغ القرض مرّة ثلاثة ريالات فضة كاد يغلبنا الحياء ولكن الرغبة في المطبق كانت أغْلَبَ، فسأله

زميلي: (كم عندنا لك يا شيخ عبد الله؟) قال: (ثلاثة)، وفَرِح بِقُرب سداد القرض، قال زميلي: (أقرِضنا ريالين حتى يبقى لك خمسة) وفَعل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعوَّضه خيرًا.

واحتجْتُ في (مكة) بعد أن استأجرتُ بيتًا لي ولعائلتي، ولكن المقترض زادت حاجته (ولا بدّ)، وصرفني الله عن مطالبته بالأداء على أيّ حال ونسيته.

وعندما أتذكَّر غربتي مع ضعفي ونقصي وقلّة حيلتي، وحِفْظِ الله لي من الضَّياع والضَّلال ومن كبائر الإثم والفواحش (إلا اللَّمم)؛ أتذكر دعاء والدتي رحمها الله قبل وبعد وأثناء غربتي في الداخل والخارج، وكان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يكتفي بالدُّعاء النّبويّ: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك» بل كان يردِّد كأني أسمعه الآن: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤]. ولا زلتُ (بفضل الله ثم بفضل دعائهما) أَجِدُ حُسْن العاقبة في كلِّ أمرٍ أختاره لنفسي أو يُفْرض عليّ.

❁ ❁ ❁

د ـ وبعد التَّخرُّج من (دار التَّوحيد) ١٣٧٢ انتقلْتُ إلى كلِّيَة الشريعة في (مكة المباركة)، وهي أوّل كلية للشريعة أو لغيرها في جزيرة العرب، افتتحها الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٣٦٩ في آخر عهد والده بعد أن عهد إليه بأكثر مهامّ الحُكْم الإدارية، وأكثر طلابها من خريجي (دار التّوحيد) بالطائف والمعهد العلمي السّعودي بمكة (بل كلّهم)، فهي نواة (جامعة أمّ القرى).

وتوفّي الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ وخلفه وليُّ عهده الملك سعود قبل بدء الدِّراسة في سنتنا الأولى وتحوَّلت مديرية المعارف بمكة إلى وزارة، وجاء الوزير الأمير فهد رَحِمَهُ اللَّهُ لزيارتها، وكان أستاذ البلاغة محمد متولي شعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ قد أعدّ قصيدة للمناسبة (تصلح لأي مناسبة بعد تغيير أو تعديل أو تبديل بيتين أو ثلاثة) أهمّ ما اهتمّت به دعوة الشرق للسَّبق الحضاري لا للشريعة عقيدةً ولا عبادة، تجاوز الله عن الجميع.

وكان مبنى الكلِّيّة في القشاشيّة في شارع يقطع المسعى ويمرّ على المسجد الحرام على يمينه والحميدية (قصر الحكم) على يساره.

وفي سنتنا الأولى أو الثانية بدأ العمل على توسعة المسجد الحرام، وكان لا بدّ من انتقال الكليّة إلى منزل في الزاهر أهداه الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الغرض من أغراض التّعليم، كما أهدى عشرات من منازله للتّعليم في (مكة) و(المدينة) و(جدة).

❁ ❁ ❁

(السفر إلى مصر وبلاد الشام)

هـ ـ وفي آخر سنتي الثّانية بكلِّيّة الشّريعة عام ١٣٧٤ هـ فوجئت بأخي يعرض عليّ مرافقته (وأحد زملائه) في السّفر

إلى مصر وبلاد الشام، واخْتَلَطَت الفرحة بالرّهبة، إذ لم يكن في الحسبان السّفر بالطّائرة إلى الخارج، وقد شَوَّقَتْنَا الصُّحف المصريّة لرؤية عجائب مصر، وكان أكثر معلِّمينا في (دار التّوحيد) و(كلِّيّة الشريعة) من مصر. أما بلاد الشام فوَصَفَها الله في كتابه بالبركة والقداسة بضع مرّات، ومنها مدير (المعهد العلمي السّعودي) بمكة و(دار التوحيد) بالطائف أوّل نشأتهما: الشيخ بهجت البيطار رَحِمَهُ اللَّهُ، ومنها: الشيخ كامل القصّاب رَحِمَهُ اللَّهُ مدير المعارف بالمملكة المباركة في بداية ولاية الملك عبد العزيز.

١) ذهبنا إلى جدّة وبِتْنا في مسجد المطار انتظارًا لموعد الإقلاع، وعند وصولنا القاهرة أوصلتنا سيارة الأجرة إلى فندق (كراند أوتيل) في أكبر المناطق التجارية، وبعد تسجيل أسمائنا في مكتب الفندق قادنا أحد الخدم إلى صندوق له باب من الأسياخ الحديديّة، فاحتجّ أحدنا ظنًّا منه أنها الغرفة المخصّصة لإقامتنا وهي لا تكاد تَسَعُنا وقوفًا، ثم تبيَّن له أنها المصعد الكهربائي إلى غرف الإقامة، وانحلّت المعضلة الأولى.

وكان المصعد مَثَار حَرَج مع صديق آخر، إذ كان المصعد في مكان إقامتنا (في مصر بعد هذه ببضع سنوات) قديمًا ويستجيب للمُسْتَفْتِح على كلِّ أحواله، ولما فتح صديقُنا بابه انفتح على غير مصعد (على غير العادة) فلم يكذِّب الخبر ودخل إلى الفراغ وسقط في بئر المصعد، وكأنّما كان المصعد

ينتظر سقوطه فنزل عليه، ولم يُجْدِه طلب إيقاف المصعد إذْ ظنَّ البوّاب أنّهم الأطفال يلعبون كالعادة، وأنقذه الله من الهلاك بالالتصاق بجدار البئر، ولم يكن حظّ ثيابه مثل حظِّ حياته فتلطَّخت بالزَّيتِ والتّراب وأعشاش الحشرات، وتولّى الأهل غسْل ثيابه في انتظار عودتنا، ولما تأخَّرّت اكتفى من الغنيمة بالإياب، وهو من خير من عَرَفْنا، ختم الله له بالجنّة وبرؤيته يوم القيامة.

وأغرب مصعد رأيته عام ١٩٦٥ (قريبًا من قصر بَكِنْكَهَم في لندن) يُرْفَع ويُخْفَض بِحَبل في داخله دون محرِّك كهربائي، ولعلّ المصاعد في بداية استعمالها كانت كذلك.

٢) قادنا صديقُنا ودليلنا في هذه البلاد (عبد الله الوهيبي رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه عنّا خير الجزاء) إلى محل (شيكوريل) من المتاجر الكبرى التي أَخَذَتْها حكومة الثورة (حسب فكر سيِّد قطب) من أصحابها (تحت مظلّة الحراسة) ولَبِسْنا ما اشتريناه منها من الملابس الإفرنجية الجاهزة.

ولم يدم استعمال هذه الملابس في السَّنوات القادمة بحجة أن (الموضة) قد تغيَّرت! من الذي غيَّرها؟ وهل هو أهلٌ للاقتداء به؟ لا تسألْ، فلا أحد يَعْرِف ولا يهتمّ بأن يعرف، يكفي الانقياد للموضة كالعَبْد دون إرادة ولا خيار، بل بكلِّ فرح وهمّة وتقبّل.

٣) ثم دلَّنا إخواننا على نُزُلٍ أقلَّ نفقة تملكه وتديره عجوز يونانيّة تتكفَّل بإعداد طعامنا. ولخوفنا من الضّياع في (القاهرة) (أم الدّنيا) تطوَّع أحدنا باختيار علامة تدلُّنا عليه: إعلان عن صابون الشمس على عمود الكهرباء في شارع سليمان باشا، ولكن ظهر لنا عند محاولة العودة إلى النُّزُل أنَّ الشارع بِطُولِه مَغْروس بأعمدة الكهرباء وعلى كلٍّ منها إعلان عن صابون الشمس.

٤) ولأن الملابس الإفرنجيّة عند العرب لا تتضمَّن غطاء الرأس، فقد انكشف رأس أحدنا رَحِمَهُ اللَّهُ عن عدد من آثار العلاج بالكيّ، وادَّعت العجوز اليونانيّة أنّها قادرة على إزالتها فلم تفلح، ولم يَبْدُ عليها الأسى ولعلّ السّبب أنّ أحدها كان صليبًا (عِرْقاة).

٥) وزارنا صاحب قَرْض الذّهب والفضّة (الذي سبق ذكره) فدلّنا مشكورًا على فندق أقلّ نفقة، فانتقلنا إليه، وبدأنا زياراتنا لأساتذتنا في الأزهر، ومعالم القاهرة القديمة والحديثة، ومعالم الإسكندرية. وبَدَتْ لي هذه من أجمل ما رأيت بإطلالتها نصف الدائريّة على البحر الأبيض المتوسِّط.

ولم ننسَ تجربة (سينما ريفولي) القريبة، وقريبًا منها ملهى (شهرزاد)، وأذكر أن أحد أصدقائنا من كبار طلّاب العلم الشرعي رَحِمَهُ اللَّهُ، رغب في إكمال برنامجه السياحيّ بزيارة هذا

الملهى الذي يُعَدُّ من أهمِّ مقاصد (السّائحين) لقربه من وسط القاهرة، ولكن خشي من تأخير صلاة العِشاء، فسأل العجوز التي تبيع تذاكر الدُّخول (وهي أمّ صاحبة الملهى) عن أقرب مكان للصّلاة فأعارَتْهُ مصلاّها ليجمع بين اللَّهو والصَّلاة.

وكنّا نُلَقِّبُ أحد رفقاء السفر (وهو رئيس محكمة شرعيَّة) (بُرْج المراقبة) بعد أن لاحظنا أنه لا تفوتُه شاردة ولا واردة تَلْبَسُ فستانًا أو تنّورةً أو مايوهًا إلا أطال فيها النظرة الأولى، ولربما نافسه الآخرون لَوْ مَلَكُوا حِدَّة إبصاره ودِقَّةَ ملاحظته، ولكن (من العصمة ألاّ تقدر)، وثالث تميّز بأنّه من نوادر من دَرَسَ في الأزهر من نجْد ودَرّس التّوحيد في بلاد التوحيد والسُّنّة قبل ستِّين سنة ومع طول إقامته في مصر لم يملّ تكرار الجلوس في مقهى على شارع فؤاد (٢٦ يوليو فيما بعد) ومراقبة المارّة بل المارّات وكَشَفَ لنا عن مقياس اخترعه للحُكْم على طرائد بَصَره: (تِنْجمظ، تِنْلّمظ، تِنْرّفض) تجاوز الله عن الجميع، وهذا لا يتجاوز زِنى العَيْن واللسان، وهو إثم، أمّا الفرج فنشهد بما نعلم أنّه يكذّبه، ولكن السّائح السّعودي يأتي من بلاد مباركة ميَّزها الله بالحجاب على بلاد المسلمين (فضلاً عن غيرها) إلى بلاد سَبَقَتْ إلى نزع الحجاب، فلا يملك عَيْنَه ولا لسانه، وقد ذُهل أحدهم فهتف: صدق الله العظيم ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: ٦١].

وكان مَثَلُهم (في محاولة الجمع بين الطاعة والمعصية)

كمثل قاطع طريق (قَبْل تأمين السُّبُل بفضل الله في عهد دولة الدعوة) أَوْقَفَ راكب حمار فسلبه حماره ومتاعه وثوبه، ثم تذكَّر صلاته، فأعار صاحب الحمار ثوبه وقال: (سَبْحِن يا حضري) أي: صلِّ بنا، فتعجَّب الحضري: (تَسرِقْ وتصلّي؟) فأجاب قاطع الطريق: (ما أخبلك، تبيني أَطْلِقْ رَبّي من يديّ الثنتين؟) بل يمسك العروة الوثقى بيدٍ والمنحلّة بالأخرى.

٦) كان أعجب عجائب مصر بَعْدَ نِيلِها أهرامها (الجيزة خاصّة)، وأعجب ما في أمرها: أنّ بُنَاتَها قبل بضعة آلاف سنة جمعوا بين القوّة والذّكاء والمهارة والعزيمة والفَنّ، وبين الجهل بما خُلِقُوا له: عبادة الله وحده، ومِثْلُهم كلّ أصحاب الحضارات الماديّة الأخرى؛ كلّهم وثنيُّون وملحدون بلا استثناء؛ فالله لا يعطي أيَّ أحد (ولا يمنعه) كلّ شيء.

٧) وكان أسوأ ما في مصر: أوثانًا بناها المسلمون بالوراثة تقرُّبًا إلى الله، وسمَّوها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان: (المقامات والمزارات والأضرحة)، وأوّلها فيما نعلم ما سُمِّي بالحسين، بناه زعيم شيعي فاطميّ، وما سُمِّي بالشافعي بناه زعيم سُنِّيّ بارز: (صلاح الدِّين الأيوبي) في القرن السّادس [تاريخ الخلفاء للسّيوطي]، ولقد رأيتُ عمائم الأزهريّين تطوف على وثن الشافعي بعد البناء عليه بنحو سبعة قرون.

ويحجُّ إلى وثن باسم السّيِّدة زينب جموع لا يحصيها إلا

الله، ويسمّون ليلة (مولدها): (الليلة الكِبيرة) ويستشفون بآثار قنديل يوقد عند الوثن يُعْرَف بقنديل أمّ هاشم، ومرّة في المسجد الحرام ذَكّرْت مِصْريًا بنعمة الله عليه بالحج أو العمرة إلى بيته وليس إلى قنديل أم هاشم كما يفعل الجاهلون، فنسي أنه في بيت الله وتذكّر الوثن فكاد يذوب رِقَّةً وهو يتضرَّعُ إلى من سُمِّيَ الوثن باسمها: (نَظْرَهْ) يطلب منها أن تُمِدَّهُ بنظرة تشفيه، ويحجُّ إلى البدوي في طنطا الملايين، ومع بعضهم (عِجْل السّيد البدوي) الذي يُنْذَر ويُذْبح للوثن، وتقول (مجلّة التّوحيد) (لجماعة أنصار السُّنَّة): إنَّ النُّذور للبدوي مثلاً تُقْسَمُ أثلاثًا: ثلث للوثن، وثلث للقائمين عليه، وثلث لإدارة الأوقاف، ولا يحصي عدد أوثان المسلمين إلا الله.

٨) كانت دولة الثورة المصريّة في بداية حكمها، وكان النَّاس مستبشرين بما تَعِدُ به من إصلاح دنيويّ، ولم تَعِدْ بإصلاح دينيّ، وإن كان من أهمِّ ما أَحْدَثَتْه من الفكر الاشتراكي مبنيًا في الغالب (أوْ مُوَافِقًا على الأقلّ) لفكر سيِّد قطب في كتابيه: (العدالة الاجتماعية) و(معركة الإسلام والرَّأسماليّة)، وكان سيِّد قطب (حسب ادِّعائه في مرافعته التي طبعها الموالون بعنوان: لماذا أعدموني؟) يعمل مع الثُّوار في العام الأوّل لحكمهم.

وحقَّق الثُّوّار بعض الإصلاحات: القضاء على البغاء، إنهاء احتلال الإنكليز لمصر، تأميم قناة السّويس، بناء السَّدِّ

العالي، وكان من الإصلاحات الفاسدة: نَشْر فكر ساطع الحصري عن القوميَّة العربيَّة وتنفيذ فكر سيِّد قطب الاشتراكي وأساسه: أَخْذُ أموال الأغنياء وشركاتهم وأراضيهم ومزارعهم وإعطائها لعامّة النّاس من الفلّاحين والإداريِّين (أو بلُغة الاشتراكيّة: نقلها من القطاع الخاصّ إلى القطاع العام)، والرأسماليّة في هذا الأمر أَقْرَب للشرع من فكر سيِّد قطب.

٩) وأخيرًا رَكِبْنا الفُلْك من الإسكندريّة (مرورًا ببور سعيد وبور توفيق والإسماعيلية) إلى بيروت. وتوقَّفنا بقبرص (ليماسول)، ونزلنا إلى اليابسة وزُرْنا أحد مساجد ليماسول وقضينا بعض الوقت مع إمامه التركي، ولم تكن قبرص قد انقسمت سياسيًّا إلى قسم يوناني وقسم تركي (بل كان أَسْقُفُها مكاريوس يلقى التأييد من الثورة المصريّة لنيل استقلال قبرص من الاحتلال الإنكليزي)، وإنما كان الخلاف كالعادة على السُّلطة أو القوميّة أو الأرض، كما حدث فيما بعد بين حركة التحرير الفلسطينيّة والأردن، أو بين الصِّرب والكُرْوات أو بينهم وبين البُسْنِيِّين، أو بين الأفغان، أو بين الصُّوماليِّين، أو بين التُّوتْسِي والهُوتُو في (رواندا)، أو بين الدُّول الأوربيّة النصرانيّة، بل بين الشيعة والشيعة وبين النَّصارى والنَّصارى في لبنان، وبين فَتْح وحماس في فلسطين، ويعجز القلم عن إحصاء الأمثال في كلِّ مكان وزمان.

١٠) نَزَلْنا من الفُلْك المشحون في مرفأ بيروت، وأقمنا

في فندق جديد سمَّوه (الرِّياض) بما لا يزيد عن ليرتين للفرد الواحد، وكانت بيروت في بداية طَفْرَتِها السِّياحيّة والتجارية؛ فقد وَرِثَتْها من فلسطين بعد حرب ١٩٤٨ ـ ١٣٦٨هـ، وكانت فلسطين أغنى بلاد العرب قبل الحرب ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢] فأفسدها الإسراف وغيره من المعاصي، وأسوأ معاصيها ومعاصي غيرها: بناء المساجد على القبور وشدّ الرِّحَال إليها، ودعاء أصحابها الذين سُمِّيَت بأسمائهم حقيقةً أوْ وَهْمًا، والذبح والنَّذْر لها أو لهم، والاستغاثة والاستعانة بهم تقرُّبًا أو استشفاعًا إلى الله مما اتَّبعه المنتمون إلى الإسلام مِنْ سَنَن مَنْ كان قبلهم منذ قوم نوح عليه السلام.

وسلكت لبنان سبيل فلسطين فذاقت وبال أمرها بأيدي الفلسطينيِّين واللبنانيِّين عام ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ وبضعة عشر عامًا بعده، وشاركَتْ لبنان فلسطين مساوئ الدّيموقراطية: حرِّيّة التعبير، حرِّية المرأة، حرِّيّة الدّين، الانتخاب، الأحزاب، ومختلف الشبهات والشهوات، فكان عاقبة الوارثة مثل عاقبة المُورِّثة ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]؛ فهذه بذور الشرِّ ولا عجب أن كان الحصاد شرًّا، هدى الله الجميع وألهمهم رشدهم.

وشاركَتْ لبنان فلسطين فوائد الاحتلال الأوربي: الكهرباء، الماء، الطرق (وإن كانت الطُّرق ذلك الوقت ضيِّقةً

بمعيار اليوم)، التعليم العصري، الطبّ، الإسعاف الخيري، الدِّفاع المدني، الإغاثة، ونحوها.

وعلى سوء الاحتلال وظلمه واعتدائه، فقد كان الاحتلال التركي (قبل الأوروبي)، وكان الاحتلال العراقي (للكويت بعده) هو الأسوأ والأظلم والأكثر عدوانًا على الدِّين والدُّنيا رغم أنَّ الأخيرَيْن ينتميان إلى الإسلام زورًا، قطع الله دابر المعتدين والمفسدين.

١١) وكان الاصطياف في (بحمدون) وغيره من المرتفعات في بداية أمره ضعيفًا ضئيلاً كما يظهر للسَّائح الذي يقيس التَّقدُّم بعدد ونوع المطاعم والمقاهي والملاهي (إضافة إلى جغرافية المكان ومناخه المتميِّز) وعدد السُّيَّاح.

ولكنَّنا بعد بضع عشرة سنة أَقَمْنا في (عالَيه) أعلى منزل العمدة (وهو ممن عمل طويلاً في المملكة المباركة وأغناه الله بها) فتنبَّهنا إلى ما لا يكاد السَّائح يتنبّه له من الحياة في المنطقة، فرغم غِنَى مالك المنزل ووظيفته، كان النِّساء يَعْمَلْنَ بهمّة لتخزين ما يُعْدِدْنَه ويجمِّدْنَه من الأغذية استعدادًا لأيّام الشتاء غير المنتجة (مثل أنواع المُرَبَّيَات والخضروات ومعجون الطماطم والفواكه والزّيتون وزيته).

وبعد بضع عشرة سنة أخرى اكتشفت ما هو أندر وأحبّ إليَّ: في يوم العيد لم يعجبني انفراد إخواني السّلفيِّين (وهم

قِلَّة) عن غيرهم بحجّة الصَّلاة في العَرَاء (مما لا أرى مشروعيّة التَّفرُّق لأجله)، فقرَّرنا بدء السَّفر بطريق سوريا على أن نصلِّي في أوَّل مصلًّى للعيد في طريقنا. وفي (عالَيْه) أخطأت الطريق العام المعتاد (بفضل الله) فعثرنا على مسجدٍ بناه أمير قطر (عليّ بن ثاني رَحِمَهُ اللَّهُ) واختار له إمامًا سلفيًّا (الشيخ سعيد الطَّبَّاع رَحِمَهُ اللَّهُ)، ولم أكن على مَعْرِفة به ولا بِمَسْجِدِه، وإلا لم أكن لأختار عليه أحدًا في لبنان ولا في بقية بلاد الشام، فعوَّضنا الله بإمامٍ وخطيبٍ على المنهاج النَّبويِّ لا يَخْرج عن الوحي وثوابت الأحكام الشرعيّة في الاعتقاد والعبادات والمعاملات إلى الفكر وظنون أخبار الحوادث والطّوارئ التي ابْتُلي بها أكثر خطباء اليوم.

و(علي بن ثاني رَحِمَهُ اللَّهُ) خير ولاة العَصْرِ في بلاد المسلمين (بعد آل سعود) التزامًا بالسُّنَّة ونشرًا لها، أمَّا آل سعود فلهم لواء التوحيد والسُّنَّة (فضلاً من الله ونعمة) لالتزامهم بتَجْدِيد الدِّين ونَشْرِه ومحاربة الشرك والبدعة في القرون الثلاثة الأخيرة، وكانوا هم السّابقين في طبع وتوزيع كتب العلم الشرعي، وعلى رأسها: (جامع الأصول في الحديث) و(المغني) و(الشرح الكبير) في الفقه، و(تفسير ابن كثير) و(فتح المجيد) و(مجموعة التّوحيد والحديث) في عهد الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، و(مجموع فتاوى ابن تيميّة)، وإنشاء معاهد العلم الشرعي وكلِّياته وجامعاته في عهد الملك سعود ومن ولي

الأمر منهم بعده، وتحكيم شرع الله في كلِّ الاعتقاد والعبادات وجُلِّ المعاملات إلى اليوم (وإلى الأبد بإذن الله).

ووجدتُ أنَّ عامَّة أهل لبنان (مثل أهل عُمَان) متميِّزون بإدراك وشكر فضل الله بالسّعوديّة على العرب، وكان طلّاب العلم الشرعي أولى بذلك، ولكنهم (مثل كثير من نَوَابت السّعوديّين أنفسهم) اجتالتهم دعاية شياطين الحزبيّة والحركيّة والسّياسة الرّخيصة غير الشرعيّة عن إدراك هذا الفضل وشُكْر الله عليه.

١٢) وانتقلنا إلى دمشق (في المرحلة الأخيرة من سفرنا الأوّل إلى الخارج) وهي من أقدم عواصم الحضارة التِّجارية والاجتماعيّة، وكان أوّل من زرناه فيها مِن النَّاس: الشيخ محمد بهجت البيطار، وهو شيخ السُّنَّة في بلاد الشام و(كما قَدَّمْت) أوّل رئيس لأوَّل معهد شرعي في العهد السّعودي (المعهد العلمي السّعودي بمكة المباركة) وأوّل رئيس لثالث المعاهد (دار التَّوحيد بالطّائف) ومن نوادر علماء الشريعة (المتّبعين لا المبْتَدعين) بعد عصر ابن تيمية وتلاميذه.

وكان أوّل ما زُرْناه من البقاع: الجامع الأموي، وكان كنيسة قبل أن يحوِّله المسلمون إلى مسجد، ولكنّهم دنّسوه ببناء ضريح في مقدّمته باسم يحيى بن زكريا (عليهما السّلام) بعد أن سوَّل لهم الشيطان أنَّ هذا مدفنه. ثم دنَّسوه بإضافة وثن باسم الحسين بن علي رضي الله عنهما، ووثنٍ باسم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

رغم لعْن النبيِّ ﷺ من اتَّخذ القبور مساجد وتكراره النّهي عن ذلك في أيام موته فيما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله، ثم دنَّسوه بإقامة أربعة محاريب بعَدَد المذاهب ليصلّي إمام كلّ مذهب بأتْباعه، ولا يزال اثنان منها للشافعيّة والحنفية يفرّقان المسلمين باسم الدّين. ومن العُسْر محاولة حَصْر الأوثان والبدع التي يتقرَّب المسلمون بها لله إفكًا، ومساجد دمشق ومدارسها الدّينيّة كثيرة جدًّا تذكِّرك بمثلها في القاهرة، ولكنَّها لا تكاد تَسْلم (مثلها) من الابتداع في الاعتقاد فما دونه منذ عصر ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الذي ضاقت بدعوته السّلفية الشام ومصر، ومات مسجونًا.

وكانت تكلفة المعيشة في الشام (مثلها في مصر) قليلة جدًّا؛ أذكر أنَّ السَّفير السّعودي عبد الرحمن الحميدي دعانا للعشاء في أرقى المطاعم وعددنا خمسة، وعند الحساب قدَّم مائة ليرة سوريّة ليؤخذ منها ثمن العشاء، فاحتجَّ مدير المطعم لصعوبة صرف هذا المبلغ في كلِّ مرّة يحضر السفير مع ضيوفه. وكان صرف اللِّيرة السّورية ريالاً سعوديًّا وربع الرِّيال، واللبنانية ريالين إلَّا ربع ريال، والجنيه المصري اثني عشر ريالاً ونصف ريال (مثل الدِّينار الأردني والعراقي والجنيه الإسترليني) بل كان سعر الدّولار الأمريكي أربعة ريالات ونصف الرِّيال، فانخفضت جميعًا وارتفع الرِّيال بفضل الله ومنَّته؛ وجاء النّاس من بلاد الأنهار والثمار في طلبه.

❁ ❁ ❁

٩ ـ أوفدتني وزارة المعارف عام ١٣٧٧ ـ ١٩٥٧ (بعد تخرجي من كلِّيّة الشريعة وتعييني مدرِّسًا، وإن لم أمارس التَّدْريس لضعف شخصيَّتي عنه) إلى مصر على منحة للدِّراسة في معهد النُّور للمكفوفين في حلميَّة الزيتون طَرَف القاهرة الغربيّ، استجابةً لطلبي السّفر للدِّراسة العليا في معهد الدِّراسات العربيَّة العليا حيث سبقني أخي، وتأخر توظيفي خمسة أشهر عن بقيَّة زملائي لرغبتي عن العمل ورغبتي في السَّفر (لا أقول الدِّراسة).

وكان اختيار الله لي خيرًا من اختياري لنفسي إذ جمع لي بين الوظيفة (ونصف الرَّاتب) وبين الدِّراسة (كامل الرَّاتب)، وكنتُ قد عجزتُ عن إقناع وزير المعارف عبد العزيز آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بسفري فقبلْتُ العمل، ثم لقيت الأستاذ المتميّز/ ناصر المنقور مدير عام الوزارة ـ صدفة مُقَدَّرةً ـ فيسّر الله به السَّفر، وجمَعْتُ بين الدِّراسة في (معهد النور) نهارًا ومعهد الدراسات مساءً، وبعد عام سلَّمني حسين الشافعي نائب جمال عبد الناصر دبلوم معهد المكفوفين مُمْسِكًا بكلتي يديَّ ظنًّا منه أني أعمى، والحقُّ أني كنتُ ضعيف البصر منذ الطفولة، ولكنَّ الله حفظ لي منه ما يكفيني بعد خمس وسبعين سنة من استعماله كلَّ لحظات اليقظة فيما يفيد وما لا يفيد، فلستُ أقول مثل غيري: (حفظناها في الصِّغر فحفظها الله في الكِبَر)، وقد حفظها الله على بعض شرِّ عباده، ففَضْلُه واسع يؤتيه من يشاء ممن يستحقُّ

ومن لا يستحقُّ فضله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، **والعطاء الأعظم: الدِّين لا الدُّنيا:** ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

واستأجرنا منزلاً قريبًا من (معهد الدراسات) في (كاردِنْ سيتي) حتى لا نحتاج إلى الركوب إليه، وأحضرنا الوالدة رحمها الله وبَعْضَ الأهل للإقامة معنا بقية أيَّام الدِّراسة.

وكان المنزل يطلُّ على رئاسة مجلس الوزراء، فكان يزلزلنا الهتاف والتصفيق لجمال عبد الناصر تجاوز الله عنه، فقد كانت مصر تمرُّ بأزمات وأحداث بعضها من صُنْعها وبعضها مما فُرِض عليها من قِبَل السِّياسة الخارجيّة، وكان من أبرز الأحداث التي زلزلنا الهتاف لها: الوحدة بين مصر وسوريا، وإعلان قيام (الجمهورية العربية المتّحدة)، وحُكْم الوحدة العربيّة (أو الإسلاميّة أخيرًا) خيال طالما راود عقول العرب والمسلمين لظنِّهم أن مجرّد الوحدة محقِّق للخير والعدل والنَّصر، وغفْلتهم عن الأساس الذي تقوم عليه الوحدة ليتحقَّق الخير أو الشَّرّ، فالوحدة مثل التَّعاون إمّا على البرّ والتَّقوى وإمّا على الإثم والعدوان، وانتقضت وحدة سوريا مع مصر بعد ثلاث سنوات، وانتقلت حمّى البحث عن الوحدة إلى ليبيا مع مصر والسّودان وتونس وغيرها، وبقيتْ مجرّد حُلْم بلا أساس صحيح ثابت.

وخافت الوالدة رحمها الله أن يُخْسَف بنا من تزاحم الناس

تحتنا وضجيجهم وهتافهم وتصفيقهم، وبلغ بها القلق مبلغًا رأينا معه إعادتها إلى المملكة المباركة.

وزارنا أحد إخواننا مرّة ودخل بين صفوف الهاتفين والمصفِّقين، وكان يلبس حلة بيضاء (شارْكْ سْكِنْ) فما خرج من بينهم إلاّ بعد أن صارت حُلَّته مخططة بسواد أصابعهم مثل جلد حمار الوحش.

وكان أقرب مسجد إلينا (مسجد عمر مكرم) في ميدان التَّحرير، وكأَنَّه مخصّص لسرادقات العزاء، ولو ذهبْتَ إليه لصلاة الفجر لوجدته مغلقًا، فتتذكر المثل المصري: (بَرَكهْ اللي جَتْ مِنّك يا جامع).

وبعد حصولي على دبلوم المعهد في الأدب العربي (تَحِلَّة قَسَم) لم يرَ ولاة الأمر في وزارة المعارف استمرار بقائي للحصول على درجة الماجستير (وهم لي ناصحون) فعدتُ للعمل الإداري في وزارة المعارف غير كاره.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى إنكلترا)

ز ـ بعد عام من العمل الإداري في إدارة التعليم الابتدائي، نُقِلْتُ للعمل مديرًا للبعثات الخارجيّة (الإشراف على

الابتعاث للدِّراسة في الخارج) فرأى ولاة الأمر في الوزارة ابتعاثي (حتى ملك الموت يموت ويُبعث) لتعلّم الإنكليزية في إنكلترا عام ١٣٨١ ـ ١٩٦١، فسافرتُ إليها بالطائرة مرورًا بجنيف حيث يوجد المكتب الثقافي السعودي للإشراف على الطلاَّب في أوروبا، وفَتَحَ لي المكتب حسابًا في بنك سويسري لإيداع رواتبي فيه ويمكنني الصَّرف منها حسب الحاجة مدَّة دراستي، وكان يُخيَّل لي أنني أجد في حسابي أكثر ممّا كنت أتوقَّع، لعلّها البركة (لا الفوائد المضافة دون إحاطةٍ مني بها)، ولقد جُبِلْتُ بفضل الله على القَصْد (في الفقر والغنى)، وعصمني الله من تَبَعيَّة التَّقليد (المحاكاة) في الدِّين والدُّنيا؛ السّبب الأوّل في الانحراف عن الفطرة، وفي الإسراف (المعصية التي يقع فيها ويصرّ عليها أكثر النّاس علماؤهم وعوامُّهم، أغنياؤهم وفقراؤهم)، وفي الحاجة والعَنَت والتكلُّف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

١) لم يكن الابتعاث إلى إنكلترا مألوفًا كما صار فيما بعد، ونادر ـ إن وُجِد ـ من سبقني إليه قبل (٤٧) سنة، فطلبتُ من (المجلس البريطاني) في (لندن) أن يختار لي مكان الدراسة، فدلَّني على (المدرسة الأوروبية الدّوليّة) في (بورمث ـ هامبشر) على السَّاحل الجنوبي، و(بورمث) مدينة صغيرة يهواها المتقاعدون، وهؤلاء هم الذين يقبلون (استضافة) من يحتاج إلى ضيافتهم من الطلاَّب (وإيوائهم وإعداد طعامهم) بأجرة

أسبوعيّة يُتَّفق عليها، ويستفيد الطالب من ذلك (إضافة إلى الإقامة والطّعام): المعايشة، وبالتَّالي المحادثة.

والإنكليز معروفون بالتقشُّف، وفي ذلك الوقت لم تكن التَّدفئة المركزيَّة دخلت أكثر من ٥٪ من المنازل مع شدّة البرودة، فكانوا يضعون في الغرفة مدفئة صغيرة على الغاز تضع فيها عُمْلة معدنيّة فتشتعل وقتًا قصيرًا لا يغني من البرد إلَّا قليلاً.

وكانت مضيفتي الأولى عجوز لا يقيم معها من أهلها إلا ثلاثة كلاب سلوقيّة رماديّة، ولما عرفَتْ والدتي بذلك خشيت أن تكون مسحورة كما في (ألف ليلة وليلة) وأني سأكون رابعهم.

وكانت مضيفتي مُنْصِفَة (سوء)، فكانت إذا استضافت والدتها أخذَتْ منها الأجرة نفسها.

وكان الإنكليز أيضًا معروفين برداءة الطَّعام (أوزعنا الله شكر نعمته)، فكنّا نؤمُّ المطعم الهندي بين حين وآخر لنأخذ إجازة من ضيافة الإنكليز المدفوعة الثمن سلفًا.

٢) أكثر طلَّاب المدرسة من أوروبّا: ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإيطاليا والدّنمرك بخاصة، ولم يكن فيها سعودي واحد، ثم التحق بها إيراني وتونسي وكويتي، ثم التحق بها عدد من السَّعوديين عَرَفُوها بمعرفتهم بي، فأراد أحد معلِّمينا الإنكليز أن يُتْحِفَنَا بما يعرفه عن البلاد العربيّة، فأنشد ما ظنّه النّشيد الوطني التّونسي: (يا مصطفى يا مصطفى، أنا بحبّك يا

مصطفى)، وكانت المدرسة جيِّدة كما توقع (المجلس البريطاني) بإدارة عجوز صارمة ولكنها لا تنسى أنّها امرأة، فكانت تستأذننا أثناء الدّرس من أجل (أن تضع ذَرُورًا على أنفها) فلا يزيدنا ذلك منها إلَّا رُعْبًا.

٣) وفي طريق عودتي مرَّةً من زيارةٍ إلى لندن بالقطار جمعتني المقصورة برجل وزوجته بدا عليهما اللُّطف وحسن المعاملة، ولما عَلِما بمكان إقامتي في بيت ضيافة العجوز مع كلابها وضيوفها الآخرين، وضِيقي بضعف التَّدفئة عَرَّضا باستضافتي في غرفة بمنزلهما تزيد عن حاجتهما (مع ولد وبنت لهما) وقد تَفُوق غرفة الضيافة الأولى دفئًا لموقعها فوق فرن المطبخ الذي يوقد بالفحم، وبعد وصولي (بورمث) وزيارتي منزلهما رأيت قبول ضيافتهما رَغْم بُعد المنزل عن المدرسة لحداثة بنائه وإطلالته على حديقة عامّة، ولأني الضيف الوحيد في المنزل، إضافة إلى وجود طفلين وهذا يزيد من نصيبي من المعايشة والمحادثة والتَّعرُّف على الحياة المنزليّة في إنكلترا، وقد يكون ذلك أنفع لدارس اللغة من المدرسة والدِّراسة النظريّة.

ولأنَّ المنزل الجديد يقع في صفٍّ مُفْرد على طريقٍ تحتلّ الحديقة العامّة صفَّه الثاني لم يستطع أهله سفلتة الطريق وحدَهم، فبقي ترابيًّا لأن الأهالي لا الدّولة مسؤولون عن تمويل السَّفلتة.

وفي الحديقة العامّة خيمة يسكنها عائلة من الغَجَر وتريد البلديّة طَرْدهم عنها كما كان يحدث في (شقراء) إذا أطال الغجر الإقامة؛ لأنهم متّهمون في كلِّ مكان بالإباحيّة وربما السّرقة، وقرأت في الجريدة استغاثةً وجّهوها للْمَلِكَة بأنهم دافعوا عن إنكلترا في حروبها الأوروبيّة فلهم حقّ الإقامة في الحديقة.

وتبيَّنتُ بعد أيام من إقامتي مع هذه العائلة أنّ الزّوج يعمل في مصنع لخزائن المكاتب الحديدية يُصَدِّرُ بضاعته للخارج (ومنه المملكة المباركة)، ويقضي وقت فراغه في خدمة كنيسة متطوِّعًا (ويلقّبون مثله بالأخ).

ولمّا تنبّه إلى حاجتي للاستيقاظ عند الفجر صار يوقظني كلَّ يوم بكأس من الشاي بالحليب والبسكوت، وقابلت إحسانه بالمشاركة أحيانًا في غسل أواني الطَّعام بعد وجبة الغداء، وكانوا يَعُدُّونني مسرفًا في استعمال الماء؛ فطريقتهم اقتصادية أكثر منها نظيفة: يملؤون حوض المطبخ (أو مغسلة أو حوض حمام) مرّة واحدة وينظِّفون بالصّابون الأواني (أو الوجه أو البدن) ثم لا يجدِّدون الماء (للشطف)، وتُمْسح السّيارة مَسْحًا ولا تغسل غسلاً مع كثرة الأمطار والأنهار. وهم في ذلك أقرب إلى الشّرع والعقل من قوم يتنافسون على نَزْف مخزون المياه في صحرائهم، وتعينهم إدارة المياه على ذلك بعدم محاسبتهم؛ فأكثر المدن والقرى السّعودية بل كلّها (ما عدا المدن الكبيرة

القليلة) تَصْرِف بلا حساب ولا مطالبة بالثمن، وفي المدن الكبيرة يدفع المواطن ثمنًا زهيدًا لا يَرْدَعه عن الإسراف ولا يُذَكِّرُه بالاقتصاد، والنتيجة (إضافة إلى الهَدْر) أن يدفع المواطن عُشْر ريال لمتر الماء المكعب، بينما يدفع آخر ما يصل إلى ثمانية ريالات للمتر، فكلّ إسرافٍ وراءه حقّ مضيَّع، وكتبت إلى كلّ مسؤول عن المياه بفكرةٍ استَعَرْتها من أخي القائم على بعض مصادر المياه طيلة حياته الوظيفيّة المديدة: (إعطاء كلّ مواطن ما يكفيه من الماء لضروراته بلا ثمن ورفع ثمن الماء الإضافي الزائد عن الضرورة إلى ما يقابل المثل أو الضعف، وبَذْل المال والجهد الفائض لإيصال الماء إلى كلِّ منزل بالثّمن نفسه) وآمل أن يحقِّق الله ذلك ولو غضب الجميع، ويمكن أن يقال مثل ذلك أو قريبًا منه عن الكهرباء التي كان ثمن وِحْدتها خمسين هللة قبل ثلاثين سنة، فصار الآن خمس هللات بعد زيادة الرّواتب.

٤) حلَّ شهرُ رمضان واحْتَجتُ إلى معرفة وقت الفجر والغروب بدقّة أكبر، ولم تكن انتشرت خدمات ووسائل تحديد القِبلة وأوقات الصّلاة والصِّيام؛ أما جهة القبلة فأمْرُها واسع بفضل الله لقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» ولعلّ الالتزام بالبوصلة مِنْ لزوم ما لا يلزم ومِن التّبعيّة الآليّة، فضلاً عن اختلاف البوصلات نفسها واحتمال خطأ صانعها كما نبّه د. بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأمْرُ الوقت واسع بفضل الله لما ثبت من صحة الصّلاة بين أوّل وقتها وآخره في حديث جبريل عليه السلام، ولكن سماء إنكلترا لا تُظْلم إلَّا قليلاً لموقعها الشمالي، ولكنَّ صاحب المنزل يستيقظ الفجر (للعمل أو التّطوُّع في الكنيسة خلافًا للمعهود من تخصيص النّصارى ليوم الأحد ضحًى)، ويمكن الاستعانة بموزّع الحليب الذي يقوم بعمله فجرًا ولكنّه يتسلل بعربة على البطّارية لا يُسْمع لها صوت يوقظ النّائمين. وكان الحلّ في شرع الله: «اقدُرُوا له».

٥) وأقبل العيد، واجتهد صاحب المنزل في إعانتي على البحث عن مسجدٍ لصلاة العيد فاتَّصلَ بمكاتب الاستعلامات ولم يَجِدْ غير مسجد على بُعْد أربع ساعات بالقطار (وكانت المساجد وقتها نادرة)، ولما وَصَلْتُه في (سَرِي) وجدت أنّه للبهائيِّين، وهو أوّل مسجد بُنِيَ في إنكلترا، واعتذر القائمون عليه عن إقامة الصّلاة ذلك اليوم لأنّهم لم يستعدُّوا له فأخَّروا الصّلاة إلى الغد، وحقّ المثل المصري ثانية: (بركة اللي جَتْ مِنّك يا جامع)، وكان الدّافع الاجتماع بالمسلمين يوم العيد وحضور دعْوَتهم لأنّ صلاة الفرض لا سبيل إليها في مسجدٍ ولا في جماعة.

٦) وجاء الصَّيف؛ فاخترتُ الانتقال إلى مدرسةٍ في (لندن) لأحقِّق رغبتي في شراء سيارة والسِّياحة بها في أوروبا، فسافرت إلى (لندن) واشتريت أول سيارة جديدة من وكالة

(فورد) الإنكليزية بثمن زهيد (مقارنة بأسعارها الآن لا يزيد عن بضعة آلاف الرّيالات) وكانت زجاجتها الخلفية مائلة إلى الداخل (على غير المألوف)، فكان أحد أوّل أساتذتي (وخيرهم وأكثرهم ذكاء وفطنة ومهارة) يسميها (الفاغرة)، ومرّ بها يومًا بعد عودتي إلى الرِّياض فترك لي عليها بيتين أو ثلاثة من الشِّعر (وهو كأَنَّما يَغْرِف شعره من بحر، بل بحور) ولكنّها مجرد مُلحَة عابرة أوّلها:

صُبِّحْتَ خيرًا صاحب الفاغره

وآخرها:

هل عندكم لي بعثة شاغره؟

معرِّضًا بأخٍ مِلحاح.

٧) بوجود وسيلة الانتقال سكنْتُ مع عائلة آيرلنديّة في ضاحية (كِنْت)، وتقع على بُعْد (٢٥) كيلاً من المدرسة لأتخلّص من زحام وصخب ودخان (لندن). وكنتُ خائفًا من قيادة السّيارة في (لندن) لضعف بصري وعزيمتي، فطلبتُ من الأستاذ عبد الرحمن بن فهد البوادري أثابه الله أن يقودها من معرض شركة (فورد) إلى خارج (لندن) كما يفعل بعض البَدْو عندما يشتري الدّاتسون أوّل مرّة فيطلب من البائع: (وَجِّهَّالي على المسَمِّتَهْ).

ومع أنّ الآيرلنديّين المضيّفين (كاثوليك) وهم أكثر بِدَعًا وتعصُّبًا من (البروتستنت) إلَّا أنَّهم ـ مثل الإيطاليّين ـ في صخبهم ومرحهم وعنفهم أشبه بالعرب من بقيّة الأوروبيّين، ولاحظت أن الزَّوج لم يَفْرح بوجودي ضيفًا عليه، وبعد يومين أو ثلاثة تغيّر تمامًا فصار حريصًا على مرافقتي في المنزل وخارجه حتى حاول متابعة سيارتي في الصباح على دراجته الآليّة حتى يفترق طريق مدرستي عن طريق عمله، وأخبرني فيما بعد بأن السّبب ملاحظته محبة الأطفال لي وفرحهم بوجودي، وهو يظنُّ أنَّ محبّة الأطفال دليل على محبّة الله لبراءتهم ونزاهة حُكْمهم، ولم أخبره بظنّي أن الأطفال يحبّون الأقرب إليهم عاطفة وعقلاً (بدليل أنّهم إذا بلغوا مرحلة التّمييز تحولت محبّتهم إلى عدم المبالاة) وأنا كذلك.

٨) واغتنمت عطلة شهرٍ بين فصلين دراسيَّين، وطلبْت من النّادي الملكي للسّيارات تخطيط رحلتي بالسّيارة حول أوروبا تتضمَّن المكان والزمان والأحداث ومناطق السّياحة، ولما وصلتني الخُطَط والخرائط توكلت على الله وسافرت وحيدًا مع أنّ البلاد والطّرق تعجُّ بالرّاغبين في النّقل المجّاني، ولكن (الوحدة خير من جليس السّوء) وإذا لم يكن لك مرافقٌ ثالث فلا خير في (الشيطان الثاني) كما قال حسن الصايغ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٩) عَبَرْت بسيّارتي القناة الإنكليزية على ظهر عبّارة من عند (صخور دَوْفَر البيضاء) الإنكليزية إلى (كالَيْه) في فرنسا،

وبعد جولةٍ على مُدُنِها وريفها أقمت بضعة أيام في باريس أرافق الرّحلات السّياحيّة المنظّمة إلى آثارها ومتاحفها ومعالمها البارزة، ثم نزلت جنوبًا إلى أسبانيا؛ أهم مُدُنها (مثل مدريد وبرشلونة وقرطبة وأشبيلية) وريفها وشواطئها، ثم عدت إلى فرنسا لأنتقل منها إلى إيطاليا بطريق السّاحل الفرنسي (الرّفييرا) الفرنسية ثم الإيطاليّة (ولا يجذبني إليها أكثر من شهرتها) بل إني أضيق بالآثار المعماريّة من القلاع والحصون والملاعب ولكنها جزء من البرنامج السّياحي يجد السّائح من الغَبْن ترك زيارتها بعد دفع ثمنها، وأوروبا تضيق في الصّيف بالسّائحين من كلِّ مكان ومن كل جنس.

١٠) لأني وصلت النمسا وقت الاحتفال بابنها (موزارت) (الذي يدَّعون أنّه بدأ إنتاجه الفنّي في سنّ الخامسة ونضج في سنّ الثالثة عشر) كان من الصعب العثور على غرفة للإقامة. وظننت أني (بعدم اهتمامي بالشكل والمحاكاة) وجدت غرفة في فندق كان القائم عليه يعرضها على السّائحين واحدًا بعد واحد فيذهبون إليها ثم يعودون منها غير راضين بها، فقلت: أنا لَهَا، ولكني وجدتها حمّامًا وُضِع فوق حوضه فراش فصار غرفةً بحمّام خاصّ، وقنعت بالنّوم في السّيارة حتى يأتي الله بالفرج مع الصّباح.

١١) من النمسا إلى ألمانيا إلى سويسرا، وأجمل ما فيها ما بقي على الفطرة: الجبال والسّهول والأنهار، وربما كانت النمسا تفوقها في هذا الأمر. واغتَنَمْتُ زيارتي لسويسرا لخدمة

السيارة بعد أن قطعَتْ ألف كيلومتر حسب تعليمات المصنع لما اشتهر به السّويسريّون من الدقّة في العمل، وبعد أن تمّ فحصها في وكالة (فورد) وصيانتها دفعت الثمن، وليس من عادتي التدقيق في الحساب ولا التنبُّه للخطأ لو فعلت، ولكنّ نظري وقع على عدد علب الزّيت المطلوب دفع ثمنها، فوجتها تزيد علبتين عما تحتاجه هذه السّيّارة، ولم أصدِّق خطأ السّويسريين ولا إدراكي خطأهم، ولكني عند دفع الفاتورة أشرت إلى مكان الخطأ حسب ظنّي للتأكد منه، وفوجئت بتحقُّق ظنّي، وأعادوا السّيارة ليحْلِبُوا منها علبتي زيت ويَنْقُصوا أجرة الخدمة بقدرها.

١٢) ما عدى إيطاليا وإلى حدٍّ ما فرنسا وإسبانيا (الأقرب إلى العرب): لا تسمع مزمار سيارة يستعجل المارّة أو السّائقين الآخرين، ولا تسمع شتمًا بل ولا عتابًا، وكنت أوقف سيارتي في مكان غير مناسب لجهلي بالمنطقة، فإذا رجعت إليها وجدت ورقة من شرطة المرور تحيّي السّائح وتدعو له بطيب الإقامة ومعها خارطة للمنطقة وأماكن الوقوف القريبة.

١٣) في الدّنمرك احْتِفالٌ بلويس آرمسْترونك (مَلِك الجاز) ينفخ في بوقه قليلاً ويطلق صوته الأجشّ كثيرًا، ومثل أكثر أهل الفنّ رأسماله الدّعاية الإعلاميّة، وبالتالي الشهرة، وقد ذكرت من قبل أمثلة لذلك، وأزيدها اليوم حكايةً عن بُولُوك رسّام أمريكي اضطرّ إلى رمي كلّ إنتاجه في الزّبالة، إذ لم يجد من يشتريه بأيّ ثمن، وقد بيع شيء من إنتاجه في هذا العصر

بمائة وأربعين مليون دولار أمريكي، وطريقة رسمه لا تشجّع على قبوله، فهو يغمس فرشة أشبه بالمكنسة في علبة الطّلاء، ثم يَمُرُّ بها فوق اللوحة لِتَصُبَّ خطوطًا متقاطعة لا يُفْهَم منها شيء، ويُترجم له بأنه كان (يَنْقُط) لا (يَرْسُم)، واشترت امرأة لوحة (يُحْتمل) أنّه (نقطها) بخمسة دولارات وترفض بيعها بمليوني دولار بل تطلب (٥٠) مليونًا. وقَبْله حَكَمَ الفرنسي (رافل) على مقطوعته الأوركسترالية (بوليرو) بأنَّها (١٧) دقيقة من (الصوت بلا فَنّ)، واليوم تُعَدُّ من أرقى المقطوعات في العالم بعد عشرات السّنين من رَفْضِها.

وعندما أعلن أحد الرّسَّامين المغمورين أنه هو الذي رسم لوحةً وَقَّعَتْها (أوْكِيْف) سقَطَتْ قيمتها (فالقيمة للاسم لا للفنّ).

ولبِثَتْ لوحة (ماتِسْ) الفرنسي (وهو ممّن تأثَّر بما يسمّى ـ زورًا ـ الفنّ الإسلامي) شهرًا ونصف في متحف نيويورك للفنّ الحديث فلم يكتَشِفْ واحدٌ من (١٥٠,٠٠٠) فنّان وطالب فنّ أنّها مقلوبة.

ولولا زيارتي لحدائق (تيفولي) في (كوبنهاكن) لَما عَرَفْتُ أنّ آرمسترونك ملك ولو للجاز، والحمد لله الذي لم يجعلني من رعيّته. وربما ورث اللقب من أسلافه الأفارقة؛ كَتَب أحدهم لصاحب السّموِّ الملكي الأمير أحمد المانع (الملحق الثقافي السّعودي بمصر) يطلب وظيفة فاعتذر بعدم الاختصاص، فالأمر

لله ثم لرئيس لجنة التّعاقد، فكتب الأفريقي لصاحب الجلالة الملك المعظّم حمزة عابد تجاوز الله عنهم جميعًا، وكتب أهل قرية أفريقية إلى صاحبة السّموِّ هُوبي (وُوبي) الممثلة الأمريكية يطلبون منها زيارة أرض أسلافها لتشجيع السّياحة.

١٤) وأتْمَمْتُ الرحلة من أقصى الجنوب في إسبانيا إلى أقصى الشمال في السُّويد والنّرويج على غير سُنّة السّائحين (أكثرهم) لا يستهويني أكثر من مجرّد الضّرب في الأرض ومراقبة الأحياء، ولم ألْقَ عنتًا أكثر من اختلاف نظام قيادة السّيارة بين اليسار في إنكلترا (والسّويد في ذلك الوقت) واليمين في بقية أوروبا، ولون مصابيح السّيّارة بين الأصفر أو البرتقالي في فرنسا والأبيض في بقيّة أوروبا.

ولا يكاد يوجد اهتمام بمراقبة جوازات السفر (في ذلك الوقت قبل الاتحاد الأوربي) غير مرّة عند دخول الأجنبي إلى أيّ بلد أوروبي، ومرّة عند دخول أيّ بلد اسكندنافي حتى جاء العرب بجهادهم غير الشرعي في سبيل القوميّة والتّراب الوطني، فأحلُّوا قومهم وغيرهم ودِينهم محلّ سوء الظنّ والشرّ والخوف والفساد.

١٥) وبدأت رحلة العودة إلى إنكلترا مرورًا بهولندا التي تكاد تغطِّيها مياه البحر، ووفقًا لنصيحة نشرات السّياحة قصدت مطعمًا خارج (أمستردام) يوصل إليه طريق معبَّد وسط مياه

البحر، يُقدِّم أكْلة أندونيسية لا تجد مثلها في (جاكرتا) طوَّرها تَرَفُ وفَنُّ وإدارة الهولنديّين أثناء احتلالهم الاستعماري لأندُونيسيا، يسمّون هذه الأكْلَة (ريستافل) يتوسطها طبق صغير من الرّزّ الأبيض وحوله عشرات من الأطباق الصّغيرة من مختلف اللحوم (الأنعام والأسماك والطيور). ومن غرائبها: الموز المشوي ومطحون جوز الهند. وعندما يطلبها الطّاعم تضاف منضدة إلى منضدته لتتّسع لأطباقها، وأذكر أن ثمنها لم يتجاوز (٢٤) ريالاً.

وفي باريس (بخاصّة) وبرلين مطاعم إيرانية وفرنسيّة تقدّم أكلة إيرانيّة لم أجد مثلها في (طهران) ولا في الخليج (ذوقًا) وإن كانت مكوّناتها لا تزيد على الرّزّ الحارّ (من حرارة الموقد لا الفلفل) والكباب والزّبد تُذيبه حرارة الرّزّ.

أمّا أكْلَة إيطاليا الشعبيّة (الباسطا) وأكلة إسبانيا الشعبيّة (بايّا) فهي فيها خير منها خارجها.

١٦) وفي أوروبا عدد من الممالك (كالسّويد والنرويج والدّنمرك وهولندا وبلجيكا) وعدد من الإمارات الصّغيرة جدًّا (مثل (لِهْتِنْشتاين) ومساحتها (١٥٧) كيلاً مربّعًا، ويسكنها ثلاثون ألفًا، و(موناكو) ومساحتها (١,٩) كيلاً مربَّعًا، ومواطنوها ثلاثة آلاف)، ولم ينقص ذلك من قَدْرِها (كما هي الحال عند العرب منذ جمال عبد النّاصر تجاوز الله عنه حتى ظنّ

بعض الجاهلين ـ وهم الأكثرون ـ أن الحكومات إمّا جمهورية مستنيرة أو مَلكيّة مستبدّة، ووُصِفَتْ إمارات ودول الخليج بأنها مشيخة حارات، وأنها زائلة بجمال عبد الناصر ثم بالخميني ثم بصدام الدّين، فذهبوا هُمْ وَبَقيَتْ بفضل الله خيرًا في دينها ودنياها) والمَلَكية والإمارة أقرب إلى الشرع وصحيح اللغة.

١٧) ومن أغرب مناطق أوروبا وأشهرها: (فينيسيا) الإيطالية، إذ تُسْتَعمل في طرقها القوارب لا السّيّارات، فهي مغطّاة بمياه البحر ولكنها ملوّثة بمياه الصّرف من المباني كما يتبيّن من منظرها (أمّا الرّائحة فأحمد الله على فقدان حاسّة الشَّمِّ منذ الصِّغر). وهي مبنيّة على (١١٨) جزيرة صغيرة من الرّمل والتّراب ومهدَّدة دائمًا بالفَيَضان.

١٨) وأجمل مناطقها حسب تقديري: (كومو) شمال إيطاليا، و(لوكانو) جنوب سويسرا، إذ يجتمع في كلٍّ منهما المميّزات الطّبيعيّة: السّهل والجبل والبحيرة والمناخ الذي يقصده الناس من أوروبا وخارجها في الصّيف للاستجمام والاستشفاء. وفي زيارة ثانية بعد ربع قرن وجدت لوحةً تُرشد إلى مسجد أسِّس حديثًا نتيجة لكثرة زيارة الأثرياء العرب هذه المنطقة لمعالجة أمراض التّرف مثل السُّمْنَة، ونحن أحوج للاعتقاد والاتِّباع من المباني.

١٩) وعُدْتُ إلى إنكلترا هذه المرّة عابرًا القناة من بلجيكا

إلى إنكلترا، وعُدت إلى (بورمث) في ضيافة مضيفي السّابق وعائلته، وأكملت الاثني عشر شهرًا التي بُعِثت لقضائها في دراسة الإنكليزية، واجتزتُ امتحان (كيمبرج) الأدنى ولم أوفَّق في اجتياز امتحان (بروفشنْسي)، وأكبر عقبة لقيتها فيه: ترجمة مقال لجميل المدوّر من (لبنان) لأني عجزت عن فهم بعض كلماته العربيّة الغريبة.

٢٠) وعزمتُ على السّفر بالسيّارة إلى الرِّياض في أول الشتاء ١٩/ ١٢/ ١٩٦١ وطلبتُ من شركة (فورد) تركيب مدفأة للسيارة، فقال ممثِّلها: يكفي قِرْبة ماء حارّ، ولو قبلتُ نصيحته لهلكت ـ والله أعلم ـ؛ لأنَّ الثلوج كانت تتراكم على زجاج السّيارة الأمامي فلا تكاد الماسحات من الخارج والمدفئة من الداخل تزيح الجزء الضروري منه لرؤية الطريق.

٢١) رغب أحد الإخوة السعوديين في مرافقتي، فرحَّبت به، ولكننا لم نكد نتجاوز ألمانيا حتى أبدى رغبته في تكملة الرحلة بالطائرة؛ إمّا لاختلاف اهتماماتنا وإمّا لاستطالته الطّريق، وكان من النّادر صبر السّعودي على رحلة غير مألوفة مثل هذه، ولكن شجعني على القيام بها رواية الأستاذ سعود اليحيى وفّقه الله عن قيامه بمثلها.

وقد استعنتُ بالله ثم بتقارير وخرائط نادي السّيارات الملكي، وورّطت نفسي رغم جهلي وضعفي، ومَعَ ما واجهت

من عقبات غير متوقعة فقد كرّرتها مرّتين: الثانية عام ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣، والثالثة عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م. وقد تَعَلَّمْتُ قولاً وعملاً أن لذّة الراحة إنما تكتمل بعد التّعب، كما أنّ لذّة الطعام والأمن لا تكتمل إلّا بعد الجوع والخوف.

٢٢) في النّمسا قرّرت محاولة العبور إلى تركيا بطريق يوكوسلافيا وبلكاريا (مع أنّهما شيوعيّتان ولكن الطّريق أيسر من عبور البحر إلى اليونان) فاتجهت إلى طريق الحدود، ولم أتنبّه إلى أنّ الطريق مغطّى بالثلوج حتى عَجَزَتِ السّيّارة عن صعوده، فَعُدْتُ بها إلى أسفله واشتريت سلسلة توضع على عَجَلتين من عَجَلات السّيارة، فلا يعوقها الثلج، (ومناخ أوروبا مع وجود الثّلج أدفأ من مناخ إنكلترا بلا ثلوج، أو هذا ما بدا لي).

٢٣) وفي يوكوسلافيا احتجت إلى تبديل عَجَلة، فوقفت على جانب الطّريق، ولم أكد أنزل من السيارة حتى توقفت خلفها سيارة نزل منها اثنان اشتغل أحدهما بتبديل العَجَلة واشتغل الآخر بتعريفي بأنّه القنصل الفرنسي في صربيا، وبأنّه سلك الطّريق نفسه إلى تركيا، وحذّرني أنّ (١٥٠ كيلاً) بين الحدود اليوكوسلافيّة والبلكارية رديئة، فهي غير مسفلتة، وتوجد أحيانًا خشبة تعين على عبور بعض الينابيع وأحيانًا لا توجد، وكأنه أنِسَ بالحديث بيننا وربما أشفق عليّ ممّا أنا مُقْدِم عليه (على جهل به) فأصرَّ على دعوتي للعشاء في مطعم يعرفه ولا أعرفه (جزاه الله بهداه).

واصلتُ السّفر فأدركني اللَّيل بل أوقفني في قرية شعبية مع بداية الطّريق التّرابي اسمها (بيروت)، وقضيت الليل في ضيافة عائلة أقرب إلى البداوة. والسّبب في إهمال الطريق إلى الحدود أن شيوعيّة (تيتو) تُعَدُّ خارجة عن الشيوعيّة العالمية التي تلتزم بها (بلكاريا)، والخروج عن الفكر البشري أشرّ من الخروج عن الوحي عندهم، وعندنا إلاّ من رحم الله.

وفي الصّباح ركبت الطريق التّرابي ووجدت الخشبة على المجرى، فأعانني الله بها على عبوره.

وكان الطّريق إلى (صوفيا) في الأرض البلكارية مغطّى تمامًا بالثلوج دون محاولة لتمهيدها أو إزالتها (مثلما يفعل الأوربيّون)، ولكن الله أعانني عليها دون حول منّي ولا قوة، ولم أكن أعرف حدود الطريق إلَّا بلوحات الإعلانات والمرور.

وفي (صوفيا) لأوّل مرّة رأيت النِّساء ينظفن الميادين والطّرق الكبيرة من الثلج، ويوجِّهن حركة المرور. وفي القرى القريبة من الحدود التركية كان بعض المارّة يحيّيني بالإشارة ويشير إلى نفسه بأنه مسلم لما تبيّنه من شكلي ووجهتي أني مسافر إلى الشرق المسلم.

٢٤) ولمّا عبرتُ الحدود التّركيّة في (إدْرنة) رأيت مآذن وقبب المساجد، وكانت آثار الثلج قد انْقَطَعَتْ إلَّا قليلاً، فأزلتُ السّلاسل عن العجلات حتى لا تعوقني في السّير على

الإسفلت، وفي انتظار إنهاء إجراءات الدّخول جلست في سيارة إيراني رافقني بعض الطّريق، ولمّا انطلق إلى داخل تركيا ظهر أني نسيت مفاتيح سيارتي على مقعد سيارته فأرشدني أحدهم إلى فصل الأسلاك عن قُفْل التشغيل والاستغناء عنه حتى يمكن تبديله.

٢٥) وفي الطريق اللزجة من أثر الثلج والرّطوبة حاولت تجاوز سيارة عسكرية فاضطررت إلى زيادة السّرعة، ولما عدتُ إلى يمين الطريق فقدتُ السيطرة على السيارة فانزلقت خارج الطّريق، وكنتُ بفضل الله تجاوزتُ هاوية بعيدة القرار. ولما كانت المنطقة عسكرية حرص من في السّيارة العسكريّة على إعادة سيارتي إلى الطريق وشجّعوني على متابعة سفري إلى (استانبول) على بُعْد (٤٠ كيلاً)، فمشيت بها على عِوَج حتى وقفْتُ على شركة (فورد) وتركتها على وعد بإصلاحها بعد يومين أو ثلاثة، ولما جئتُ على الموعد أخبرني المسؤول عن إصلاحها أنه لا يوجد لها غيار لما اعوجَّ منها، فاكتفوا بتعديله حتى أتمكن من تبديله في السّعودية. والأتراك من خير من جرَّبت في العالم إصلاحًا لفساد السّيارات، فلم أحْتَج لتبديل المعوجّ منها أبدًا. وقد عثرتُ عليها بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة في (سوريا) لم يتغيّر لونها ولا شكلها، فالسّوريّون أقرب النّاس إلى جيرانهم الأتراك في الإصلاح والمحافظة على السّيارات، ولكنّهم جميعًا متماثلون في حبِّ الدّين عاطفةً وحبّ الابتداع والبُعْد عن الاتِّباع، فالأكثرون أشاعرة في الاعتقاد

متعصِّبون في التَقليد (وبخاصة للمذهب الحنفي، صوفيّة الطريقة وبخاصة النقشبندية). ويروون من كرامات بهاء الدّين نقشبند أنّه نَذَرَ أن يقف في مواجهة الكعبة أربعين يومًا على قَدَم واحدة، وفي اليوم التاسع والثلاثين من محاولته الوفاء بنذره رأى كلبًا أجرب يدخل المسجد الحرام ويمسح جِلْدَه بالكعبة فيذهب جَرَبُهُ كأن لم يكن، فوضع البهاء قدمه الثانية على الأرض وقال: يا رب وقفتُ تسعة وثلاثين يومًا فلم تستجب لي، وهذا الكلب استجبتَ له في لحظة واحدة، فنودي من فوقه: لو أكملْتَ نذرك أربعين يومًا لكُنْت تردّ القضاء، وإذ لم تكمله فسترُدّ البلاء وحده، نعوذ بالله. وكان الدُّولار يُصرف ببضع عشرة ليرة تركية، وبعد (٤٠ سنة) صار يصرف بأكثر من مليون ليرة رغم قوة الزّراعة والصّناعة، ورغم العلمانيّة ورغم عضوية حلف الأطلنطي.

٢٦) دخلتُ (سوريا) من (باب الهوى) أعاذنا الله من الهوى، وفي (دمشق) حذَّرني سليمان القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ من السّفر على طريق يبلغ (١,٥٠٠) كيلاً دون تمهيد ولا تعبيد ودون خدمات على الطريق متقاربة (بلا خرائط ولا تقارير ولا وصف للطريق، فقد انقطعت هذه بالوصول إلى سوريا)، فرافقني سعودي يرتزق من مرافقة أصحاب السّيارات بين (دمشق) و(الرِّياض). والحمد لله على حِفْظِه لعبده في السّفر والإقامة.

(السفر إلى الولايات المتحدة الأميريكية)

حـ ـ وأوفدتني وزارة المعارف على منحة لمعهد الإدارة العامّة بالرِّياض للاشتراك في دورة للإدارة العامّة في جامعة بتسبرك/ بنسلفينيا/ الولايات المتحدة الأمريكيّة في خريف ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، وتنافس عليها معي أستاذي الأول في الإنكليزية عبد الله أبو العينين رَحِمَهُ اللَّهُ (قبل ١٠ سنين) وفُزْت بها لفارق السِّنّ، ولم يكن لي منافس غيره في وزارة المعارف المميّزة بالمنحة.

ومع أنّي لم أطمح ولم أسْعَ للاشتراك في هذه الدَّورة بل ولم أرَ جدوى من اشتراكي فيها (لرأيي أنّ من لم يؤهِّله الله للإدارة خُلُقًا ومَوْهبة فلن يستفيد منها، وأنّ من أهّله لها فلن يحتاج إليها، وخيرة المتميّزين إداريًّا ممن عرفت (مثل: د. عبد الله الوهيبي، وناصر المنقور، ومحمد الفريح، ود. عبد الله التّركي، ود. عبد الله الزَّيد، ود. غازي القصيبي أثابهم الله) لم يدرسوا الإدارة العامّة؛ مع ذلك فقد رحَّبْتُ بالمنحة لمجرّد السّفر والتّعرّف على بلاد وأناس وثقافة وحضارة جديدة ـ من جهة ـ ومن جهة أخرى للتخلُّص بضعة أشهر من معاناة الرّوتين الإداري الذي لم أُخْلَق له.

واستعنتُ بالله وركبتُ الطّائرة إلى (نيويورك) مرورًا بـ(أمستردام) ثم إلى (بتسبرك)، ولم توجد في ذلك الوقت

رحلات مباشرة دون توقُّف من البلاد العربيّة، ولا رحلات للخطوط السّعوديّة إلى (نيويورك) فضلاً عن المدن الأمريكيّة الأصغر.

١) منذ عرفت القاهرة ظننتُ أنها الأكبر طُرُقًا وبنايات ومتاجر ومتنزّهات، فلما رأيت (نيويورك) استصغَرْتُ (أمَّ الدُّنيا) وما عرفْتُه من أرض الله بعدها، تصعد إلى أعلى بناية (امْبَيَرسْتَيْت) أعلى بناء في العالم (ذلك الوقت) فترى النّاس بل السّيارات تحتك مثل النّمل، وتصعد إلى أعلى تمثال الحرِّيّة فتتمنّى أنك لم تصعَدْ لضيق الدَّرَج وعدده، ولكن لا سبيل للنُّزول حتى ينتهى مدى الصُّعود فتُطِلُّ من فتحات التّاج على رأس التِّمثال، وترى البحر وشبه الجزيرة التي رصّت عليها المباني الشاهقة التي يسمِّيها العرب: (ناطحات السَّحاب)، ويسمِّيها أهلها: (لامسات السّماء) ولا تجد لها مثيلاً في العالم منذ بدأ التّطاول في بنيانها في أوّل القرن العشرين بعد أن ابتكرت شركة (أُوتِس) المصعد الكهربائي حتى بدأت حواضر أوروبا ثم آسيا الاقتداء بها في ربع القرن الأخير، وترى النّهرين وحديقة (سنترال بارك) والجسور تهيِّئ للنّيويوركيين متنفّسًا ومتنزّهًا لا تعوقه الغابة الإسمنتية الحديديّة. وقد تُميِّزُ مناطق الأغنياء (مثل بارك أفنيو وفيفث أفنيو) عن مناطق الفقراء (مثل هارلم) ومناطق الطبقة الأمريكية المتوسطة (مثل كوينز) عن مناطق الأقليّات (مثل بروكلن) ومنطقة المسارح والسينمات

(تايمز سْكويْر) في الوسط عن منطقة الفنّ البوهيمي (كرِينتْش فِلج) في الطّرف.

٢) ومع شدّة البرد في شتاء (نيويورك) فإن حَرَّ صَيْفِها شديد، ولقد تُحِسُّ بالاختناق من الحرِّ والرّطوبة ودخان السّيارات فلا تجد بُدًّا من الهرب إلى الفندق أو المسرح أو السّينما المكيّفة صناعيًا.

وأثناء وجودي مرَّةً فيها وحاجتي إلى الهرب من الجوِّ الطبيعيِّ كنت قريبًا من راديو سيتي (المجمع التجاري والفني) فوجدتُ إشارة إلى برنامج تلفزيوني مشهور (تونايت شو/ جوني كارسون) فاشتريتُ تذكرة لدخوله والتّبرُّد والتّسلية، وكانت الأولى والأخيرة لأني لا أهتم بالبحث عنه ويندر أن أعثر فيه كهذه المرّة.

جاء مقدّم البرنامج واستعرض عددًا من الرّجال والنّساء الذين كسبوا الشهرة في أمر من الأمور، ويقابل المتفرجين لوحات إرشادية تتبدَّل حسب الحاجة تأمرهم بالضَّحك فيضحكون أو بالتّصفيق فيصفِّقون، فهو على اسمه (تمثيل)، ولكنّ مُشاهد البرنامج في التلفزيون لا يرى إلَّا الجدِّيّة والعفويّة، والأغرب من ذلك أنّه في حال التّوقف للدِّعاية التجاريّة التي تموِّل البرنامج يختفي فجأة الاهتمام والضّحِك، ويَلْبَس مُقدِّم البرنامج ومعاونوه وضيوفه وجوهًا أخرى غير الأولى.

٣) وَصَلْتُ (بِتْسبرك) في آخر أيام الصّيف وأوّل أيام الخريف، ولكنّ الثلوج لم تنتظر الشتاء، فبدأ نزولها قبيل انتهاء الخريف. ولأنّي لم أتوقّع نزول الثلج ولم أستعدَّ له وكنت ألبس حذاءً جلديًّا لا يصلح له؛ فقد انزلَقْت عدّة مرّات وخشيت أنْ أُعَدَّ ممن يمشي على بَطْنِه (أو وَجْهه أو ظَهْره) وومض في ذهني سؤال لم أجِدْ له جوابًا: كيف أستطيع الاستمرار في بعثتي؟ ولمحْت محلَّ أحذية فولجْتُه على أملٍ ضعيف فيه، ولكنّي وجدتهم قد أعدُّوا لمثل هذه المحنة غلافًا مطّاطيًّا خفيفًا يوضع فوق الحذاء (وأسفله) فلا ينزلق، وكان ذلك كلّ ما أحتاج إليه لأستطيع التنقُّل بين الجامعة والفندق القريب، وفي الجامعة التّنقل بين صفوف الدِّراسة وبين مطعم الجامعة، وفي المطعم يأكل اللاعبون مجّانًا تشجيعًا لهم ليَبقوا ثيرانًا في الأجسام وثيرانًا في العقول، فهم مثل (أبطال) الرّياضة لا يستعملون رؤوسهم إلَّا للمناطحة، ومع ذلك يحصلون من المال والجاه أكثر ممن يستعمل عقله في الدّين أو الدُّنيا أضعافًا مضاعفة. ويدفع الطالب مثلي دولارًا واحدًا تذكرة دخول للمطعم فيأكل ويشرب ما يشاء من نِعَم الله.

ويسَّرَت لي الجامعة الإقامة في الفندق المجاور لها (المتعاون معها) بثلاثة دولارات في اليوم (مقارنة بسعره العادي (١٥) دولارًا).

وواصلت تلقِّي التوجيهات الإداريّة نصف سنة دراسيّة،

ولكنّي لا أظنُّ أني رجَعْت منها بشيء، وقد تكون الإضافات التّرفيهيّة أكثر فائدة لي:

٤) يضع كثير من الناس أسماءهم لدى الجامعة رغبةً في استضافة طلاَّبها الغرباء أيّام الأعياد والإجازات العامّة، وقبِلْتُ ضيافة عائلة أو اثنتين لأتعرّف على حياة العائلة الأمريكيّة مباشرة، فأقضي أيام الإجازات فيما يفيد، إضافة إلى التّسلية على حساب العائلة الرّاغبة في الإحسان.

وكانت العائلة تستعدّ لذلك باستعارة كتاب أو أكثر من المكتبة العامة يتضمّن معلومات وصُوَرًا عن بلد الضّيف قبل وصوله إليها ومشاركتها حياتها، ويجمعون ذرّيتهم في غرفة لاستعمال الغرفة الأخرى لإقامة الضيف، أمّا الطّعام فهو يزيد عادة عن حاجة الضيف والمضيف.

٥) دعتني منظمة الشابات المسيحيّات مع اثنين أو ثلاثة من الزّملاء إلى قضاء يوم أو بعضه للمشاركة في نشاطهن الاجتماعي والتّرفيهي، وأفضل الترفيه في وقت نزول الثلج: الانزلاق بالزّحّافات على الثلوج، وهذه المنظمة بقسميها المنفصلين للذكور والإناث (YMCA وYWCA) منتشرة في كلِّ مكان، ويستفيد من بعض خدماتها (مثل النُّزُل الزّهيدة الأجرة) بصَرْف النّظر عن الدّين (التزامه أو الدعوة إليه) من يرغب الاستفادة منها.

٦) استضاف المشرف على الدّورة (OBERN) جميع المشتركين فيها إلى حفلة شِوَاءٍ في منزله ليلاً فظهرت لنا ميزة أمريكيّة جديدة على العرب والعجم (غير تسابق الأمريكيّين على استضافة الأجانب، وغير توظيف قسم لشؤون الطلاّب في الجامعة لإعانة الغريب على مواجهة مشكلات دراسته وإقامته في بلد الغربة) ألا وهي: تعاطف المشرف على التَّعليم أو التدريب (شخصيًّا) مع من وُكِل إليه أمرهم، ومع أنّ الجامعة تجاريّة فلم يكْتَفِ بحُسْنِ أداء وظيفته التعليميّة؛ بل أضاف من ماله ووقته وجهده وجزءٍ من منزله حُسْنَ أداءٍ إنساني لمشاركة نعمة الله عليه مع غيره، وظهر البذخ الأمريكي في حجم موقد الشواء وأسياخه كالسُّيوف، وحجم وكثرة قطع اللحم البقري ليأخذ منه المشاركون على كَثْرتهم ملء بطونهم.

وربما رغب في مكافأتي وزميلة برازيليّة على تميُّزنا بالشكر لله ثم لعباده على ما أُعْطِيْناه فتنازل لنا عن تذكرتين لحضور عرض السِّيرك الروسي الذي زار (بتسبرك) شتاء عام ٦٣ ـ ١٩٦٤، وإضافة خبرة جديدة لم نعرفها من قبل.

٧) وفي منتصف زمن الدّورة حدث في أمريكا ما لم يحدث فيها منذ (لِنْكُلن) أي: قَتْل زعيم بارز، فقُتلَ الرّئيس الأمريكي (كِنِدي) في السّنة الثالثة من ولايته، ومن النادر أن يحصل رئيس أمريكي على مثل ما حصل عليه (كِنِدي) من الشهرة والتَّقدير لنبوغه وعزيمته وثقافته من جهة، وللثَّروة في

عائلته والجاه والشباب من جهة أخرى، ولا يزال كثير من الأمريكيّين الذين تجاوزوا الخمسين سنة يتذاكرون الحدث واللحظة التي وقع فيها، ولا تزال الإشاعات والتكهُّنات والتَّحليلات تحاك حول موته، وتكتب عنه الكتب وتمثّل الأفلام السينمائية، وَيَعُدُّ الكثيرون حادث قتله من أعظم الحوادث في تاريخ أمريكا، وتابعنا جميعًا أخبار وصُوَر الحدث وأشخاصه: حياة كِنِدي وزوجته وأولاده وحياة المتّهم بقتله وزوجته الرّوسيّة، ثم حادث قَتْل المتّهم بقتله، وكانت أيامًا عصيبة من تاريخ أمريكا قدّر الله لي أن أعيشها عن كثب وأتابع أحداثها من داخل أمريكا، وهي أحداث عسيرة على الأمريكيين، ولكنّ الله قدّر لي بعد ذلك ببضع سنوات أن أشهد حدثًا يسيرًا عليهم كان (كِنِدي) من أبرز العاملين على الإعداد له: (النّزول الأمريكي على القمر والعودة إلى الأرض بسلام)، وأن أعيش أيامًا بل بضع سنين مهمّة جدًّا في تاريخ أمريكا: (حركة الشّباب للدّين والدُّنيا وخروجهم على التقاليد واحتجاجهم على حرب (فييتنام) وقسْرِهم السّياسيّين والعسكريّين على الانسحاب المهين).

٨) وبعد أربعة أشهر ونصف من استعراض الفكر والتنظيم الإداري الحديث وممارسة الحياة الأمريكيّة آن لي أن أعود إلى المملكة المباركة، واخترتُ أن أعود من طريق آخر لأتمَّ الدّوران حول الأرض؛ فركبتُ الطائرة من (بتسبرك) في ولاية (بنسلفانيا) إلى (شيكاكو) في ولاية (إِلِنُوي) في جوٍّ

عاصف، وبعد أن بلغت الطائرة ارتفاعها المقرّر بدأ المضيِّفون تقديم طعام العشاء.

وفجأة استولت على الطائرة رجفات عنيفة كالذي يتخبَّطه الشّيطان من المسِّ؛ تسمع صوت صرير الأجنحة وكأنها تتمزَّق، فأضيئت إشارات ربط الأحزمة، وعاد المضيِّفون على عجل إلى مقاعدهم وأحزمتهم. ولا أذكر كَمْ مرَّةً قرأت «آية الكرسي» و«المعوذتين»، ودعوت الله أن يؤخِّر موتي حتى أُدْفَنَ في أرض البركة والقداسة أرض الدَّعوة إلى التَّوحيد والسُّنّة على منهاج النُّبوَّة.

وبعد مرور وقت كأنه الدَّهر أَسْكَنَ الله الرِّيح ووصلنا إلى مطار (شيكاكو) (وشهِدْنا معهم أنّها مدينة الرِّياح)، واعتذر قائد الطّائرة عن (رحلة سيِّئة لم يمرَّ عليه مثلها). ودعوتُ الله له بالهداية وألاّ يمرَّ عليه مثل هذه الرِّحلة وأنا معه.

وعند باب الطائرة وقف ممثِّل شركة الطيران يعتذر ويُعَوِّض عن العشاء الذي حالت دونه العاصفة ببطاقة تتيح للراكب الأكل في مطعم المطار بما لا يزيد عن (١٥) دولارًا، فقَبِل الجميع عُذْره وبطاقته وتسابقوا إلى المطعم ليأمنوا من جوع بعد أن آمنهم الله من خوف في هذه الليلة الليلاء.

و(شيكاكو) من أسوأ المدن الأمريكيّة مناخًا وأمْنًا وأكثرها تلوُّثًا وإجرامًا، ومِن أوَّلها اشتهارًا بعصابات كبار البيض ثم

بعصابات صغار السُّود، ولن أعود إليها إلَّا مرورًا أو لسبب مُهِمٍّ غير الاستمتاع بما ابتلاها الله به.

٩) وركبت الطائرة إلى (سان فرانسيسكو) في ولاية (كاليفورنيا)، وهي خير مقامًا وأحسن نديًّا بموقعها الجغرافي الجميل على المحيط الهادي، وباستضافتها لجامعة كليفورنيا ـ بيركلي ومحيطها الثقافي، ويكفي مثلي الركوب في عَرَبَة السِّلك (سكَّة الحديد المحلِّيّة) لتطوف به في شوارعها، فلا ينزل منها حتى يلزمه النّزول لدافع من نفسه أو دافع من الشّركة، كمثل أحد الطلاب السّعوديّين في القاهرة قبل نصف قرن رفض المسؤولون عن الابتعاث ضمَّه للبعثه، فأعانه زملاؤه بشراء تذكرة تخوِّله الرُّكوب في (التّرامواي) طرفي النَّهار وزُلفًا من الليل، فكانت تَسْلِيَتَه ووسيلة سياحته ومكان مذاكرة دروسه، ومَطْعمه ممّا يَعْرضه الباعة على الرُّكاب من الطَّعام الخفيف، وإذا رأى أحد معارفه سوَّغ ذلك بصرْخَة: (نبي ناخذ حَقّ فلوسنا). [رواه د.الخويطر].

١٠) ومن (سان فرانسيسكو) ركبت الطائرة إلى (هُنُلولو) في ولاية (هاواي)، وهي الولاية المنعزلة عن بقية الولايات المتّحدة الأمريكيّة يَفْصِل بينهما أربع ساعات من الطّيران فوق المحيط الهادئ؛ فأنْسَتْنِي الشِّتاء والثلوج والتَّلوُّث في (بتسبرك) و(شيكاكو) و(نيويورك). هنالك لا تكاد ترى إلا البحر والرّياضات البحريّة والأشجار والنّباتات الاستوائيّة والرَّقصات

البولينيزيّة، وكأنَما خُصِّصَت الولاية متنزَّهًا لبقية الولايات الأمريكيّة يستريح فيها الأمريكيّون ويَسْترخون ويَعْبثون، ويشربون ماء جوز الهند، وكأنّما اختُصَّت بفصلين من فصول السّنة: الرّبيع والصّيف.

١١) ومن (هونولولو) ركبتُ طائرة يابانيَّة أوصلتني بعد أكثر من تسع ساعات إلى (طوكيو) عاصمة الإمبراطوريّة اليابانيّة، وكنتُ أسمع باليابان في طفولتي (زمن الحرب العالميّة الثانية) لتميُّز منتجاتها بالرّداءة في مقابل المنتجات الألمانية الجيّدة، فيقال: (جَرْمَلِي أصلي) و(جاباني كامتي أو تِكْلِيد)، وحالَفَت اليابان ألمانيا في حربها الخاسرة فجلبت كلّ منهما الدّمار على بلادها وشعبها وسوء السُّمعة في معاملة البلاد التي احتلّتها (والأسرى الذين وقعوا في يدها بخاصّة).

واحتُلَّت كلٌّ منهما بعد تدميرها، ولعلّ الخير في ذلك لهما ولغيرهما فقد انصرفتا عن الحرب والاحتلال إلى الإنتاج الصِّناعي التجاري، فحقَّقتا بالسِّلم ما لم تحقِّقاه بالحرب.

وقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ تفوُّق اليابان بعد الحرب في الصِّناعة التّجاريّة واستمرار ألمانيا في تفوُّقها الصِّناعي التِّجاري مَرَدُّه إلى منهاجٍ تعليميٍّ أو تربويّ أحدث من مناهج الأمم الأخرى، ولو رَكِبَ الظَّانُّون مركب البَحْث الواقعي عوضًا عن الظنِّ الخياليّ لوجدوا أنَّ المنهاج التعليمي والتربويّ لم يتغيَّر في أيٍّ منهما

تغيُّرًا يذكر، وثقافة اليابان (بخاصة) وتقاليدها وقِيَمُها بالغة التّعقيد لا يسهل الانفلات منها، ولكن اليابانيّين (مثل الألمان والسّويسريين مثلاً) يميّزهم الجدّ والمثابرة واحترام العمل إلى حدّ أن الياباني بعد تقاعده يغرس علم المؤسّسة أو رَمْزَها في فناء منزله، ويأخذ على نفسه تحيّته كلَّ صباح، ويتطوَّع بالقيام بعملٍ عام يشغله ولو من أعمال النّظافة في الشوارع. قارِنْه بالعربيّ الذي يكفر ولا يشكر مَصْدر خَيْرِه من الله، ولا من خلق الله.

وللرِّجال في (اليابان) على النساءِ درجة (بل درجات)، له العمل في الخارج وعليها العمل في المنزل وتهيئته لِسَكَنِ الزّوج والأولاد. يعودُ الزَّوج بعد انتهاءِ عمله (وربما تسليته الخارجيّة) فيدخل منزله وتستقبله زوجه تخلع عنه حِذاء الخروج وتُلبسه حذاء المنزل، ويدخل الحمّام الذي أعدَّته له، وتنصرف لإعداد الطعام، ويخرج من الحمّام ويجلس إلى المائدة، فتستعمِل فَضْلته من ماء الاستحمام، ثمّ تأكل فَضْلته من الطعام، وإذا كان في المنزل أكثر من رجل وامرأة فإنَّ كُلاًّ من الجنسين يغتسل عاريًا مع جنسه، بحجّة أن العُريَ لا يُرَى في الحمام، وقد حاول المحتلُّون الأمريكيون مَنْع هذا التَّقليد في المسابح العامّة فأصدروا قانونًا يُحَرِّمُ على الذكور والإناث السِّباحة عُرَاة في مَسْبَح واحدٍ، ولكنَّ اليابانيّين جمعوا بين خُلُقِهم الذين تعوَّدوا عليه وبين العمل بالقانون الجديد ففَصَلُوا بين الجنسين بِحَبْل.

وكأنَّ ابن آدم مجبول على التّناقض، وقد يُستدلّ على

تناقضه بقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِسَاء: ٨٢]، والمقصود بغير الله: ابن آدم، كما يتَّضح من السِّياق، وما يُرْوى من حديث أو أثر: «كل ابن آدم خطَّاء»؛ فمع ما ظهر من عَزْم اليابانيّين وتفانيهم وذكائهم ودأبهم على العمل وإنتاجهم قبل الحرب وبعدها؛ فإنَّ أكثرهم وثنيُّون أو ملحدون؛ يدخل أحدهم منزلاً فيُهْرَع إلى صَنَمِه (تمثال طَيْرٍ أو غير ذلك) ويقف أَمامه بخشوع ويصفِّق بيديه ليوقظه مِن سباته ثم يدعوه من دون الله (ناسيًا ثقافته وإنجازه وتفوُّقه الصِّناعي والتِّجاري).

ولَبِث اليابانيُّون قرونًا لا يرون إمبراطورهم ولا يسمعون صوته، وتُعَدُّ وظيفته مرتبطة بالرُّبوبيّة حتى أعلن (هيروهيتو) عام ١٩٤٥ استسلام (اليابان)، وبعدها ببضعة أشهر (في اليوم الأول من عام ١٩٤٦) أعلن فكَّ ارتباطه الرّبوبيّ، ثم زاد التقارب مع عامّة الناس، فأذن بزواج وليِّ عهده منهم.

ركبتُ سيارة أجرة من المطار إلى فندق في (طوكيو)، فرأيتُ ما لم أرَه في أوروبا ولا أمريكا ولا غيرها: السَّائق يعامِلُ الرّاكب باحترام بالِغ، ويلبس بِزَّة نظيفة وقفازات بيضاء، وتُكْسَى المقاعد ثيابًا بيضاء ليَظْهر فيها الدَّنس فتُغَيَّر فَورًا، ولا احتمال لِلْغِشِّ في اختيار الطّريق أو حساب المسافة والأجرة كما يُتَوَقَّع من سائق سيارة الأجرة في أكثر بلاد العالم (العرب بخاصّة). أمّا بَدْوُ (مكة) و(الطائف) فلن تستطيع حملهم على

تغيير لون السّيارة وأرقام لوحاتها وفق النّظام بيُسْر. وتبهرك أضواء الإعلانات والمحلّات التجارية وكثرة النّاس وسرعة حركتهم (دخولاً إلى وسائل النقل وخروجًا منها بخاصّة).

وقد تختار غرفة في الفندق أُعِدَّت لتُذَكِّرَكَ بأسلوب الحياة في المنزل الياباني الشعبي، وقد تختار تناول أكْلة في مطعم شعبي يعود بك إلى الماضي أثاثًا وطعامًا. وتشترك في رحلة سياحيّة تمرُّ بك على شيء من كلِّ شيء، وتنتهي بضيافة (الكيشا) حيث ترى كيف تُسَخَّر المرأة لخدمة الرّجل وتسليته بالطّعام والشّراب والسّماع، وكيف تبالغ في احترامه إلى درجة تشبه العبادة، فإذا أرادت تقديم خدمة له فهي تزحف أكثر ممّا تمشي، أما الانحناء وغضّ الصّوت وتَغْطِية الفم عند الضّحك فحدِّث ولا حرج.

وكان صَرْف الدّولار الأمريكي ذلك الوقت (٣٢٠ ينًا) ثم تناقص على مرِّ السّنين حتى نزل عن (١٠٠ ينّ). ثم أصاب الاقتصاد الياباني ما أصاب غيره؛ لأنَّ لكلِّ شيء إذا ما تمّ نقصان، ولأنّ اليابانيّين مالوا إلى التّرف وباعوا مميِّزاتهم وإنجازاتهم وعلاماتهم التجارية إلى دول ناشئة الاقتصاد والصِّناعة والتِّجارة (مثل ماليزيا والصّين) كما فعل بهم الأمريكيُّون من قبل، والتَّرف آفة الفرد والأمّة وسببٌ للخسران.

وأكثر طعام اليابانيّين الرزّ (من إنتاجهم)؛ يأكلونه فطورًا وغداءً وعشاءً، ومعه (يَتْلُوه) السّمك، وربما صنعوا الأواني

الحافظة لتيسير الحصول عليه وقت الحاجة (أيْ في كلِّ وقت) فلم أرها في أيِّ مكان قبل اليابان عام ١٩٦٤.

١٢) ومن (طوكيو) سافرت إلى (بانكوك) عاصمة (تايلند)، ولم أرَ فيها عربيًّا واحدًا، فلم يكن بدأ غَزْو (السائحين) العَرَب بَعْد؛ بل لا يكاد يعرفها من العرب (السّعوديّين بخاصة) غير تجّار الرزّ ونحوه من منتجاتها.

وزُرْتُ مسجدها، فلَفَتَ انتباهي وجود طَبْل كبير في زاوية من فنائه، وعرفتُ أنّه يُستعان به في دعوة المسلمين إلى الصَّلاة (العيد بخاصّة).

والتايلندي (فيما ظهر لي) سمْحٌ سهلُ القياد، أليفٌ أكثر من غيره؛ تُوقِفُهُ بمجرد الإشارة فيتوقَّف، وتسأله عن شيء أو مكان فلا يكتفي بالبيان إشارةً أو لفظًا؛ بل يأخذك حتى يوقفك عليه، وكأنما خرج من منزله ليكون في خدمتك، وقد تدعوه إلى طعام أو شراب فيلبِّي دعوتك، ثم لا يتركك حتى تتركه؛ يسهل عليك الارتباط به والانفكاك منه.

و(بانكوك) في جنوب شرقي آسيا (لي) مثل (بيروت) في البلاد العربيّة، صارت محطّة ثابتة في كلِّ سفر يمرّ قريبًا منها، تَسْكُن إليها نفسي بعد أن تضطرب من صَخَب الحياة في العواصم الأخرى، لجمالها وهدوئها وأمْنِها.

١٣) ومرّت بي رحلة العودة على (هونك كونك) وكانت تُشْرِف عليها (إنكلترا) (ثم عادت إلى الأرض الأمّ (الصين) بعد

زيارتي الأولى لها بأكثر من ثلاثين سنة). واختارت الصِّين الموافقة على أن تبقى على نظامها الاقتصادي الرأسمالي، وأساسه: حرِّية التّجارة التي جعلت منها قوة اقتصادية صناعيّة تجاريّة بارزة.

رأيتُ في (هونك كونك) لأول مرّة: النِّساء يعملن في البناء حافيات كما تعوّدن في البلد الأم (الصِّين الشيوعيّة).

ورأيتُ في (هونك كونك) لأوّل مرّة: الرِّكشا، وهي كرسي تجلس فيه فيجرّه صاحبه بيديه إلى أيِّ مكان تريده، ثم رأيتها في (سنغافوره) تجرّها دراجة هوائية، وهي في الحالين أكثر هدوءًا وأقلّ كلفة منها في شبه القارة الهندية، إذ تجرُّها درَّاجة آليّة تزعج الرّاكب والماشي بصوتها الصّاخب، ولما عثّرْتُ مرّة على ركشا تجرها الدّراجة الهوائيّة في (لِكْنَوْ) دعوت معالي الأستاذ الأديب المؤرخ اللغوي محمد العبودي لأتمتّع بهدوء المركوب وطيب حديث الرّاكب، ولم يَرُدَّ طلبي (على غرابته) كعادته: السّماحة والأريحيّة والكرم بنفسه وماله.

١٤) وفي (دلهي) العاصمة الهنديّة لا يُحْصِي الزّائر الغريب ولا المقيم ما يراه من آثار الحضارة الهنديّة، وهي من أبرز الحضارات وأوّلها وأكثرها تأثيرًا على الحضارة اليونانيّة (وهي مثلها وثنيّة)؛ بل على اليهود والنّصارى والمنتمين إلى الإسلام فيما أُدْخِل على التَّديُّن من بِدَع التَّصوُّف فيما يسمّى السُّلوك، بل في الاعتقاد (وأعظم ذلك: وحدة الوجود والاتِّحاد

بين الخالق والمخلوق، وأدناه: هزّ الجسم أو الرَّأس عند الذِّكر، وإحصاء الذِّكر بمسبحة الخرز).

ورأيتُ لأوّل مرّة بعض مظاهر التَّصوُّف الهندي التي اقتبسها متصوِّفة المسلمين مثل: (الضرب بالشيش) الذي اقتبسه متصوِّفو الطريقة الرّفاعيّة والنَّوم على المسامير، ومختلف مظاهر الزُّهد والخرافات التي لم يشرعها الله في أيِّ دين.

ورأيت في (أَكْرَا) أثرًا بارزًا مشهورًا من صُنع المنتمين للإسلام خلافًا لشرع الله: (تاج مَحَل)، بناه الحاكم المغولي (شاه جِهان) قبل (٢٧٠) سنة ضريحًا لزوجته (ممتاز مَحَل) على نهر (جُمْنا) على هيئة مسجد بأربع مآذن وقبّة كبيرة وقبّتين صغيرتين، ودُفِن معها. وقد ابْتُلِيَ المسلمون منذ الفاطميِّين ببناء المساجد على القبور مخالفةً لآخر وآكد وصايا النبيِّ ﷺ عند موته، ولم يُغَيِّر هذا المنكر بدولة من دول المسلمين قبل (ولا بعد) السّعوديّة (في القرون الثلاثة الأخيرة)، وابْتُلِي المسلمون بما دون ذلك من متابعة العمارة الكنسيّة البيزنطيّة في القبب والأقواس وتعدّد المآذن منذ الدّولة الأمويّة حتى سمَّاها الناس ـ جهلاً ـ: عمارة إسلاميّة، ولا يجوز أن ينسب إلى الإسلام ما لم يَنْزِل به الوحي في الكتاب أو السُّنّة بفهم سلف الأمّة.

أمّا مخالفة النَّبيِّ ﷺ بالبناء على القبور فلا يكاد يَسْلَم منها في بلاد المسلمين غير السّعوديّة؛ لالتزام الدّولة بشرع الله، ثبَّتها الله عليه.

وبعد زيارة هذا الأثر الذي يُعجِب المسلم وغير المسلم ويفخر به أكثر المسلمين لجَهْلِهِم بدينِ الإسلام، ركبتُ طائرة إلى بلاد التَّوحيد والسُّنّة بطريق (بيروت) شاكرًا الله على فضله وتفضيله.

❁ ❁ ❁

(السفر مرة أخرى إلى إنكلترا)

ط ـ في عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م أوفدتني وزارة المعارف في بعثة لاختيار مدرِّسين للُّغة الإنكليزيَّة في المدارس الثانويّة مع عدد من زملائي في الوزارة. واستأجرت منزلاً في (كُولْدَرْزكرين) من أَمْيَز ضواحي (لندن) بمبلغ (١٤) جنيهًا في الأسبوع، وهي أول رحلة تصحبني فيها زوجتي وابني الأول، إذ كنتُ تزوَّجت قبل سنتين. ولما كنَّا في انتظار المولود الثاني تقرَّر (رسميًّا) خَفض سِعر الحليب الذي كان يضعه موزِّع الحليب كلَّ صباح على عتبة البيت، ولمّا ذكرتُ للمسؤول الصِّحيِّ أنّنا في غِنًى عن التخفيض بيَّنَ أن التخفيض إلزاميٌّ للغنيِّ والفقير لمصلحة الأمِّ والولد ولمصلحة العائلة والأمّة عامّة بعد ذلك.

وكنّا نغبط (إنكلترا) و(أمريكا) على وفرة الحليب في الأسواق؛ لأنه لا يتوفَّر في المملكة المباركة إلَّا لمن يملك

ويصبر على اقْتِناء الغنم أو البقر، وهم القِلَّة من النَّاس، ثم أعطانا الله مثلما (أو أكثر ممّا) أعطى غيرنا، ولله الحمد والفضل والمنَّة.

وقضيتُ خمسة أشهر في هذه المهمّة، ولمّا كان وقت العمل قصيرًا يسَّر الله لي خدمة عدد من النَّاس: علماء وتجّار وعامّة في التّعاون على البرِّ والتقوى بالترجمة لدى الأطباء خاصّة وغيرها عامّة، أذكر منهم الشيخ الغديان ووالد الشيخ الجبير.

وقد اشتريت سيارة (فورد) إنكليزيّة مستعملة تعينني على الخدمة العامّة، ولكنّ التّنقُّل بالقطار تحت الأرض داخل (لندن) أيسر وأجدى؛ فكنتُ أتركها عند آخر محطّة يمكن الوصول إليها بيُسْر، وأركب القطارات تحت الأرض في تنقُّلي داخل المدينة، ثم أعود إليها بعد انتهاء أعمالي آخر النهار لتوصلني إلى المنزل وإلى السُّوق التِّجاري وإلى أيِّ مكان آخر أحتاج إلى الذَّهاب إليه في الضواحي.

ولم أر قَبْل قطارات (لندن) تحت الأرض ولا بَعْدها خيرًا منها في يُسْرِ استعمالها وضخامتها وامتداد خِدْمتها (إلى مطار هيثرو، نقطة البداية والنهاية غالبًا).

وعُدْتُ الأمير/ فهد بن عبد العزيز آل سعود (خادم الحرمين الشريفين فيما بعد) في المستشفى، وكان يتألَّم من المرض ومن الإشاعات عن أسباب خياليّة لتأخّر عودته لعمله

وزيرًا للداخليّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وبعد أن شفاه الله دعتنا السّفارة السعوديّة معه للغداء في مطعم شرقي، وحضرها الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ومعه ابنه (الطّفل يومها) صالح، الذي أقرَّ الله عيني بمعرفته بعد ذلك بنحو عشرين سنة عالمًا من علماء التَّوحيد والسُّنّة، وداعيًا من دعاتهما على منهاج النُّبوّة، وباحثًا مُحقِّقًا، ومناوئًا للشرك والبدعة ودعاتهما، وبقيّةً من إرث تجديد الدِّين والدّعوة الذي ميَّز الله به الإمامين المحَمَّدَيْن ونسلهما الصّالح، ثم اصطفاه الله للعمل في شؤون الدِّين والدعوة نائبًا للوزير ثمّ وزيرًا في دولة الدعوة.

وكنتُ أُحْسِنُ معاملة من يحسن معاملتي من الإنكليز وأسيء إلى المسيء، وتنبَّهتُ بعد ذلك إلى أنّ خيرًا من ذلك شرعًا وعقلًا: الإحسان للفريقين كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤]، والأَوْلى بالمسلم (بل بأيِّ ذي عقل) أن يَفْرِض خُلُق الإسلام على نفسه وغيره بالإحسان، ولا يكون إمّعة إن أحسن النّاس أحسن وإن أساؤوا أساء؛ فإنْ فعل فإنَّه إنَّما يتخلَّق بما يكرهه من سوء أخلاقهم.

وعندما قرب موعد العودة إلى الأرض المباركة بعت سيارتي على زميل سَمْح رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمثل ما اشتريتُها به إلَّا قليلًا بشرط أن توصلني إلى محطَّة السَّفر.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى فلسطين)

ي ـ وفي عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م أيضًا سافرت مع صديقين عزيزين (الأستاذ عبد الكريم المنقور ووالده رَحِمَهُ اللَّهُ) بسيّارته من (بيروت) إلى (فلسطين) بطريق (سوريا) و(الأردن) قبل احتلال (القدس) وبقيّة (فلسطين) بنحو عامين، وأقمنا في نُزُل جميل نظيف كأنَّما نقل من أوروبا أو أمريكا سمَّوه: (المستعمرة الأمريكيّة)، وعرفت فيما بعد أن القائمة عليه تَعُدُّه أَثَرِيًّا لأنَّ تشرشل (رئيس وزراء بريطانيا وبطلها الأوّل في الحرب العالمية الثانية) أقامَ فيه أثناء زيارته لفلسطين بعد الحرب وقبل انتهاء احتلال (إنكلترا) للمنطقة. وبحثتُ مع مدرسة المقاصد فكرة إلحاق من يرغب من أبناء الدّبلوماسيّين السّعوديّين بها ليحصلوا على دراسة مستقرّة بالعربيّة لكثرة انتقال آبائهم ولم أوفَّق.

ومِنْ نُزُلِنا في (القدس) زرنا (بيت لحم) و(الخليل) وبحيرة (طبرية) والبحر الميت.

وتذكَّرتُ تخوُّفَ أخٍ سودانيٍّ من أن ينزع الله القدس من أيدي العرب لما رآه وسمعه من سبِّ الرَّبِّ وسبِّ الدِّين بين المنتمين للإسلام مما لا يجرؤ عليه يهوديٌّ ولا نصرانيّ ولا وثنيّ.

وساءني مع ذلك ما لم أتعوّده في بلاد التّوحيد والسُّنَّة (وتعوّده هو في السّودان في كلِّ عهودها منذ قرون): انتشار

وثنية المقامات والمزارات والأضرحة في مساجد المنتمين للإسلام والسُّنّة أكثر من انتشارها في معابد الضلَّال، وأبرز مثل لذلك ما يسمّى: (الحرم الإبراهيمي الشريف) وليس بحرم ولا إبراهيمي ولا شريف؛ بل كان في الأصل مَدْفنًا لمن ظَنَّه اليهود: إبراهيم وإسحاق وزوجتيهما. ولم يُبْن عليه غير السّور حوله، ثم جاء الصّليبيُّون فبنَوا عليه كنيسة، ثم جاء المنتمون للإسلام في عهد صلاح الدِّين الأيُّوبي فبنوا (داخل الكنيسة التي حُوِّلت مسجدًا) سبعة أوثان: اثنين عند المحراب باسم إسحاق وزوجته وأربعة في الفِنَاء الأوسط باسم إبراهيم ويعقوب وزوجتيهما وسابعًا باسم يوسف (عليهم الصّلاة والسّلام والبَرَكة) عند مصلَّى النِّساء ابتلاءً له بالنساء بأسوأ مما ابْتُلِيَ به في حياته؛ فالشِّرك أشنع من كلِّ معصية.

وزرتُ معبد الأوثان هذا الذي اجتَمَعَتْ فيه أوثان المنتمين إلى الأديان الإلهيَّة الثلاثة (وأسوأهم المنتمون إلى الإسلام) وتقرَّبْتُ إلى الله بعدم الصَّلاة فيه، فهي محرَّمة شرعًا كما في حال مسجد الضِّرار الذي حرَّم الله على نبيّه وعلى متَّبعيه الصّلاة فيه؛ لأنه لم يُبْن على التقوى من أول يوم.

وقد كتبت عنه في مجموع مقالاتي الأوّل (الحكم بما أنزل الله فرض عين على كلِّ مسلم) وأثبتّ في آخره مُخطّطًا للمسجد وأوثانه وَضَعَه ألماني تحوّل إلى الإسلام (ص٩١ ـ٩٥) مُنْكِرًا خطأ اليهود وغافلاً عن خطأ المسلمين. ولا يزال

المسلمون يدعون الله أن يردَّ بيت المقدس وينصر المقاتلين لأجله وينسون الدُّعاء بالهداية والرَّدِّ إلى دين الله ردًّا جميلاً ليزول الضّلال سبب الهزيمة.

وتقوم حركاتٌ ومنظّماتٌ وأحزابٌ باسم الكفاح والجهاد فلا تَسْمَعُ قولاً ولا ترى فِعْلاً يستحقُّ أن يُطْلب به النصر من الله (وأهمّه: الدَّعوة إلى إفراد الله بالعبادة ونفيها عمّن سوى الله ممّن سُمِّيت باسمهم المقامات والمزارات والأضرحة، والدعوة إلى التزام السُّنّة والتحذير من الابتداع في الدِّين).

ولم أعرف من قادة الكفاح والجهاد (بزعمهم) عالمًا شرعيًا ولا داعيًا إلى الله على بصيرة من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ بفهم فقهاء القرون المفضّلة في الدِّين، ولم أعرف منهم واحدًا منذ حسن البنا وسيّد قطب تجاوز الله عنهم (إلى هذا اليوم) جَعَل أكبر همِّه (بل شيئًا يذكر من همِّه ومنهاج عمله) ما دعا إليه جميع الرسل ـ قبل كلّ أمر أو نهي ـ من تصحيح الاعتقاد والعبادة.

❁ ❁ ❁

(زيارة إيران)

لك ـ وفي عام ١٣٨٦ كنْتُ عضوًا في وفدٍ يرأسه وزير المعارف إلى مؤتمر اليونسكو في طهران ـ إيران، وكان لإيران

ـ ولا يزال ـ تأثير دينيّ ودنيويّ بالغ أرجو الله أن يكفي الإسلام والمسلمين شرَّه.

١) نافسَتْ (إيران) الهند في افتراء ونَشْر إفْك التَّصوُّف؛ فمَنْشَؤُه (الهند) وحَمَلَتُه من (إيران): الحَلاَّج والبُسْطامي والغزالي، ثمّ مَنْ نَقَلَهُ عنهم من بلاد فارس بطريق العراق مرتديًا ثياب الزُّهد ومعنى التَّزكية والإحسان وفِرْيَةَ عِلْم الباطن بديلاً من علوم الظاهر والرّسوم، والعلم اللدُنِّيّ بديلاً من الوحي والفقه في نصوص الوحي بفهم السَّلف.

٢) وتَفَرَّدَتْ (إيران) عن (الهند) وغيرها بالإرهاب والتَّقتيل غَدْرًا بعد التَّكفير واحتجاجًا به؛ ابتداء من نهاية القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الرّابع بما فعله القرامطة في الإسلام والمسلمين، ثم في القرن الخامس والسادس بما فعله حسن الصّباح وعصابته (النّزاريّة)، ويقال بأنهم برزوا في الحروب الصَّليبيّة، ثم صاروا يتقرَّبون إلى الله بقتل المسلمين (الولاة والعمّال خاصّة، وكان أفراد عصابة التقتيل يَلْبَثُون في مكان جرائمهم ليُقْبض عليهم ويُقْتَلوا رغْبَةً في العَجَلةِ إلى الجنّة) [أعلام الزركلي].

ثمَّ في بداية القرن الرّابع عشر الهجري بما فعله ميرزا رضا الكرماني مِنْ قتل الشاه ناصر الدِّين بأمرٍ من شيخه جمال الدِّين الأفعاني، ثم في بداية القرن الخامس عشر إذ انقلب السِّحر على السَّاحر فقُتِل من فقهاء الشيعة عددٌ يتجاوز عدد من

اغتيل قبلهم بأمرٍ منهم، وقَتَلَت جماعة (فدائيّان إسلام) قبلهم عددًا من السِّياسيِّين بفتوى من أحد المجتهدين من أئمة الشيعة.

ثمّ بَعْد قيام ما سُمِّي بالجمهورية الإسلاميّة آن للدّولة أن تعترف وتعلن على الملأ رفعَها لهذه الرّاية بإصدار طوابع بريديّة تحمل صُوَر إرهابيّين مثل ميرزا الكرماني ومجتبى نوّاب صفوي (الشيعة والتّصحيح/ د.موسى الموسوي).

ولم تنس فضل العرب على فتنة الإرهاب والتّقتيل والتّكفير (بل: سبّ كبار الصّحابة فمن دونهم) فأصدرتْ طابعًا بريديًّا يحمل صورة سيد قطب ورَفَعَت اسمه على سبعة طُرُق على الأقل، وَرَفَعَت اسم خالد الإسلامبولي على طريق واحد على الأقل في (إيران) لاغتياله السّادات تجاوز الله عنهم.

٣) وقادَتْ (إيران) خطباءَ العرب ودعاتَهم وواعظيهم في خُطَب الجمعة والدُّروس والتَّسجيلات (الموصوفة ـ زورًا بالإسلامية) إلى نبذ سنّة النبيِّ ﷺ وخلفائه وصحابته وتابعيهم رضي الله عنهم بتحويل الدعوة إلى الله من السِّياسة الشرعية (في أحكام الاعتقاد والعبادات والمعاملات) اليقينيّة، إلى السّياسة الرّخيصة الظَّنّيّة المستقاة من وسائل الإعلام الضَّالَّة.

رأى الحركيُّون الشيعةُ العجمُ والحركيُّون السُّنَّة العربُ إمَامَهم الخميني يُزِيل حُكْم شاه (إيران) بلا سبب ظاهر غير شريط التّسجيل فغفلوا عن ذكر المسبِّب وهو الله العليّ الحكيم

الذي يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] بسبب ظاهر أو خفيّ قويّ أو ضعيف أو بلا سبب؛ فركضوا يسْتَنُّون بسنَّة الخميني فيَرْكَبُون شريط التسجيل؛ بل يَرْكبون السّيرة والتّفسير وتحفيظ القرآن ودعوى الجهاد لتحقيق غرض الخميني: منازعة الأمر أهله والاستيلاء على السّلطة باسم الإسلام دون طاعة لله ولا إخلاص في عبادته ولا اتِّباع لسُنَّة رسوله، ولا دعوة لإفراد الله بالعبادة، ولا نهي عن إشراك غيره فيها معه، وما دون ذلك من الابتداع في الدِّين.

٤) كالعادة لم نستفِدْ من المؤتمر ولم نُفِدْهُ ولسنا بِدْعًا من الأمم في هذا الأمر، فقد لاحظتُ أنّ جاري ممثل ألمانيا الغربية ـ مع ما عُرِفَ عن الألمان من الجدّيّة ـ كان لا يجلس في مقعده إلاّ دقائق لإثبات وجوده بمناقشة قصيرة لأمر عام، ثم يعود إلى بركة السّباحة المبرّدة بالثلج. وإذا كان هذا هو حال المؤتمرات الدّولية فقل ما شئت عن المؤتمرات العربيّة والإسلاميّة.

٥) وحضر بعض وفدنا (من لا ينام مبكّرًا مثلي) حفلة غنائيّة راقصة مُتْرفة مع الشاه وحاشيته إلى ما بعد منتصف اللّيل أقيمت احتفاء بالوفود، وقد تكون هذه ومثلها أعلى ما يتوقّع المؤتمرون تحقيقه من الفوائد.

٦) وفي الصّباح حضرنا مع الشاه وزوجته وحاشيته عرضًا عسكريًّا، ولاحظت أنّ بعض الضباط يَعْسر عليهم المشي من السِّمَن والتّرف والإسراف المجاوز لحدود الشَّرْع والعَقْل

والحاجة والفِطْرَة، وسببٌ لزوال النِّعَم والدُّول والأمم، والأكثرون يقترفونه ويُصرُّون عليه متى أتيح لهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] ولعلّ من ذلك نكبة فلسطين ولبنان وفتنة العراق في الخليج، ولعلَّ الله أنقذ الخليج لندرة الشرك والبدع فيها وكثرتها في فلسطين والعراق ولبنان.

❁ ❁ ❁

(زيارة ليبيا)

ل ـ وفي العام نفسه كنتُ عضوًا في وفدٍ لوزراء التّعليم العرب في (ليبيا)، وأذكر أنَّ منظِّمي المؤتمر اعتذروا باعتكاف الملك السّنوسي بضعة أشهر عن عدم افتتاحه المؤتمر أو مقابلته الوفود (وعُرِف السّنوسيّة بطريقتهم الصُّوفية).

١) مع الاعتذار باعتكاف الملك عن استقبال ضيوفه؛ فقد وجدت أنّ من العسير اكتشاف مطعم أو مقهىً أو فندقٍ حديثٍ لا يقدِّم الخمور في طرابلس، وذكّرتني (طرابلس) بروما في طراز المباني وتنظيمها وأسماء شوارعها وآثارها.

٢) زرتها بعد ذلك ببضع سنين لحضور اجتماع تعليمي ـ بعد الثورة ـ فوجدتُ القذّافي (جزاه الله بهداه) قد حرَّم بيع

الخمور في أيِّ مكان عام، وزاد على ذلك بمحاولة القضاء على التَّصوُّف، ولكنّ ضراوة معاداة حزب (الإخوان المسلمين) له سياسيًّا ومنازعته الحُكْم حَمَلَتْه على مهادنة الصُّوفية حتى لا يفتح على حُكْمِه أكثر من جبهة. وألغى الحروف غير العربيّة من الاستعمال في أسماء الشوارع والإعلانات التجارية ونحوها، وألزم غير العرب بترجمة المعلومات في جوازات سفرهم إلى اللغة العربية في أكثر الأحوال تمشِّيًا مع منهجه القومي العربي.

٣) وفي زيارتنا هذه بَدَا لنا صعوبة تكيُّف الشباب الليبي البدوي الأصل مع متطلّبات الخِدْمة في الفنادق والجمع بين الأَنَفَة من خدمة الغَيْر وبين الحاجة إلى أداء المهنة والوظيفة، إلى درجة أنَّ رئيس الوفد السعودي وزير المعارف طلب مِنْ أحدهم شَرْبَةَ ماء فردَّ عليه بجفاء: (قُم واخدم نفسك)، وكان ذلك في بداية توطين الخدمة والوظيفة.

٤) ومع احتلال (إيطاليا) ليبيا سنين طويلة ومحاولة تحديثها إدارةً وزراعةً وتنظيمًا وتعليمًا، فقد بدا لي أنَّ الليبي لا يزال يحتفظ بحبِّه للحياة البدوية في مأكله وملبسه ومعيشته في منزله وبين أهله وأصدقائه.

ولقد أهدى لي أحدهم قَصْعة من عصيد الشعير فوجئتُ بلذّتها (من جانب) وحقيقة أنّ الشعير لا يزال يؤكل، ولم أسمع بذلك منذ عصر النُّبوَّة مع أننا في (نجد) لم نبعد عن معيشة البَدْو كثيرًا، ولا تزال تَسْتهوي الأغلبية.

٥) ولاحظتُ أنهم يسمّون آلهة الرّومان الأثرية (مُؤَلَّهات)، وما ذلك إلاَّ لغلبة العاطفة الدِّينية على الأكثرين وإن كان منهم من يتَّخِذُ إلهه هواه أو هوى غيره، وأسْوَأ مظاهره: تعظيم المقامات والمزارات والأضرحة.

٦) وحاول القذافي إكمال ما بدأه قُدْوَتُه جمال عبد الناصر تجاوز الله عنهما من تحدِّي الغرب، فأغلق قاعدة (وِلِس) الأمريكيّة، وزاد عليه بمحاربة اللغة الإنكليزية، واستيراد شكل الإدارة في الصّين الشيوعيّة (تسليم الإدارة إلى اللجان الشعبيّة الشابة) ونتيجة لذلك وجد كثير من الشباب الليبي ذكورًا وإناثًا أنفسهم فجأة في مواقع المسؤولية الإدارية في المدارس والمعامل ونحوها مكان الأجانب (المصريِّين بخاصّة).

ويظنُّ كثير من العرب أنَّ لفظ (الأجنبي) لا يجوز أن يوصف به إلاّ الأعجمي الكافر، ومصدر هذا الظَّنّ: الجهل بالشرع واللغة والفقه؛ فابن العمّ أجنبيٌّ (شرعًا ولغة) عن ابنة عمه حتى يتزوّجها ولو كانا يسكنان بيتًا واحدًا، كما كان حال النّاس قبل غَلَبَة الشّحّ والأَثَرَة وتقليد الثقافة الغَرْبية، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النِّسَاء: ٣٦] غير القريب [ابن جرير].

ولكن العامّة في البلاد العربيّة المحتلّة تعوّدوا وصف المحتلّ بالأجنبي، فظنّوا أنّ هذا الوصف خاص به وبشركاته وثقافته، وقد وجدتُ الشيخ عبد الله خياط رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابَعَهم خطأ فأنكر وصف العربي والمسلم بالأجنبي [لمحات من الماضي].

٧) وربما وجد وفدُنا نفسه في حاجة إلى زيارة بلدٍ أبْعَدَ عن التّقاليد البدويَّة قبل العودة إلى المملكة المباركة، فتقرَّر المرور بـ(تونس) المجاورة في زيارة خاصّة، ولكن الوفد التّونسي عَلِم بذلك، ففوجئنا في مطار (تونس) بسيارات رئاسة الجمهورية التّونسيّة تنتظرنا، ثم تُوصلنا إلى فندق (الهِلتون) في ضيافة الرئاسة.

وتبيَّن أنّ يوم غدٍ هو يوم ذكرى استقلال (تونس)، وأننا مدعوُّون للاستماع إلى خطاب الرئيس (بو رقيبة) تجاوز الله عنه. وفي المساء تناولنا طعام العشاء مع الرّئيس على مائدته في أحد قصوره العديدة، ولم يحضرها غيرنا؛ فاستكْمَلْنا ذكريات الرئيس عن كفاحه في سبيل استقلال (تونس)، ومع ذلك: كانت مائدة الرَّئيس وطعامه ومجلسه تذكِّرني بمثلها في باريس، فالثقافة الفرنسية عميقة الجذور في (تونس) أكثر من غيرها في المغرب العربي.

❁ ❁ ❁

(زيارة الجزائر)

م ـ وفي عام ١٣٨٦ كنتُ عضوًا في وفد المملكة إلى الجزائر لبحث وجوه التّعاون بين البلدين، مُثِّلَتْ فيه وزارات المعارف والدِّفاع والصّحة والبترول والتجارة، إضافة إلى القطاع

الخاص، واستضافتنا الحكومة الجزائرية في عهد (هوَّاري بو مدين) وهيّأت لنا زيارة مؤسّسات الدّولة الإداريّة والصّناعية، ونَقَلَتْنا لأهم مناطق البترول (حاسي مسعود) بطائرة خاصّة، ولما حطّت بنا في المطار وبدأنا النزول منها وجدنا في انتظارنا حرس الشرف بأفراده وموسيقاه، ولم يكن فينا من سبق له تفتيش الحرس أو عَرَف شيئًا عن رُوتينه، فتسابقنا إلى النّكوص داخل الطائرة، ولما كان لا بدّ لنا من مواجهة المأزق بدأنا التّشاور ومحاولة إقناع زميل أو آخر بالتّضحية، فقبل أحسنهم خلقًا عبد المنان تُرجمان (القائم على كليّة البترول بين د. صالح أمْبَة ود. بكر بكر) تحمّل الإحراج عن بقية زملائه، ومرّت الأزمة بسلام (جزاه الله خير الجزاء).

ولمّا كانت الدّولة الجزائريّة الاشتراكيّة تنتج نوعًا من سيارات الجيش ومستلزماتها، فقد أقلّتنا سيّارات (سترون) الفرنسية المتميّزة بالقدرة على رفع هيكلها (بعيدًا عن الأرض عند الحاجة) إلى صحراء مماثلة لبعض صحارى المملكة ترتفع فيها كثبان الرِّمال لتجربة سيارات نقل الجنود ومشاهدة قدرتها على مواجهة الرمال.

وبعد أن استعرضنا مختلف منتجات الدّولة الصِّناعيّة والزراعيّة بضعة أيام؛ خُتِم برنامج زيارتنا بمفاجأة لم نعرف عنها شيئًا من قبل ولم نتوقعها: شجر الأرز يكسو المناطق الجبليّة المعروفة به، وتذكّرنا (لبنان) الذي لا يكاد يوجد به من شجر

الأرز غير الشجرة المرسومة على العَلَم اللبناني، ومع ذلك يَشْتَهِر بالأرز ولا تُعْرَف به (الجزائر).

وتتميَّز (الجزائر) على شمال أفريقيا بميزة أعظم: قلّة عدد أوثانها وبدعها وزواياها الصُّوفيّة بفضل الله ثم بعِلْم ودَعْوَة (جمعيّة علماء المسلمين) وعلى رأسها البشير الإبراهيمي وابن باديس ومبارك الميلي الذين آثرهم الله على من قبلهم من علماء التَّصوُّف والابتداع، وآثرهم الله على من بعدهم من علماء الفكر والسِّياسة غير الشرعيّة؛ فطهَّر الله بهم أكثر أرض (الجزائر) ومساجدها وقلوب وأعمال أهلها من الشِّرك والبِدَع والفِتَن والمعاصي، وجدَّد الله بهم دينه والدعوة إليه بالعودة إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، حتى صارت الجزائر شامَةً بين بلاد المغرب العربي رغم ما بقي فيها وما أُضِيفَ إليها بعدهم من مضلَّات الفِتَن والبِدَع، غفر الله للماضين وأصلح الباقين.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى العراق)

ن ـ وفي عام ١٣٨٧ انتدبتني وزارة المعارف إلى العراق مع د. محمد حياتي رَحِمَهُ اللَّهُ للتعرُّف على مستوى دراسة الطّبِّ الجامعيّة في (العراق) ـ الموصل بخاصّة ـ، لإيجاد خيَارٍ آخر لابتعاث الطلَّاب السّعوديِّين تحسُّبًا لتأثير المهارشات العربيّة

على البعثات السّعوديّة لدراسة الطّبّ، ود. حياتي طبيب سعودي هجر ممارسة الطّبِّ لجهلة بالجانب التّجاري من هذه المهنة، وعمل سنين طويلة في مستوصف وزارة المعارف رئيسًا للإدارة الصّحيَّة، ورزقه الله طفلاً سمَّاه: (رفيق حياتي)، ولكنه لم يرافقه طويلاً؛ إذ أصيب بمرض نادر جدًّا يمنعه من التَّعرُّض لأشعّة الشمس.

كانت (العراق) في بداية حكم (البَعْث) في عهد (البكر)، ومع التّناقض الشديد بين حُكْم البعث وحُكْم الشريعة، فقد كان سفير المملكة محمد الشبيلي يَغْلِب التّناقض بكرمه الذي يبلغ حدّ المبالغة وحُسْن خُلُقه عامّة، وكان سفيرًا للمملكة في (باكستان) والهند معًا رغم كثرة الخلافات بينهما، وعندما آن نقله طالب كلٌّ منهما ببقائه.

أصرَّ السّفير الشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ على أن يرافقنا إلى الموصل رجل تعوّد الإحسان إليه من وجوه كثيرة، منها: مرافقة ضيوفه والنيابة عنه في النّفقة على نفسه وعليهم، وكان أحيانًا يطالبه بنفقة على ضيف لا يجيزها إلاَّ مثل الشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ (ولا أعرف له مثيلاً) مثل مطالبته بنفقةٍ على ضيف أعمى بدعوى مشاهدة السّينما، وتخلّصنا منه في الطريق.

وكنت أتمنّى أن يرزق الله المملكة المباركة نهرًا يُلطِّفُ شدّة الحرارة (في أكثر مناطقها) صيفًا، فلما رأيتُ بغداد بل كلّ المنطقة الممتدّة من الحدود الكويتية إلى الحدود السّورية،

شكرتُ الله على ما قدّر وقضى ورزق، فلم يؤثِّر نهرا دجلة والفرات شيئًا في تلطيف الجوّ العراقي؛ بل زاداه غمًّا.

وكانت تثور ثائرة الغبار الدّاكن (الطّوز) ضحًى، فيكاد يغطِّي نور الشمس. وتَسْمع المنادي يدعوك لشراء لَبَن (أَرْبيل) وقد وضعه في دلوٍ معدني (سطل) لا يعرف معنى كلمة النَّظافة، وأضاف إليه قطعةً من الثلج سرعان ما تذوب فلا يبقى من اللبن إلاّ ماء رماديٌّ: (هل رأيت الذّئب قطّ؟).

وجرَّبتُ (المَسْقُوف) في (الرِّياض) ـ وهو حُوتٌ يُشَقّ على هيئة الكتاب ويُصْلى على نار السَّعَف ـ وظننتُ أنّه سيكون أطْيبَ على ضفّة (دجلة) موطنه الأوّل، وليتني لم أفعل، فقد أفسَدَ عليّ ذكرى طَعمِه في (الرِّياض) للفَرْق بين سمك البحر والنَّهر، وأهمّ من ذلك الفرق بين النظافة والعناية وبين عدمهما، أو الفرق بين الطازج والبائت (الغابّ).

وقد أعطى الله العراق مع نهري (دجلة) و(الفرات) أنهارًا من النّفط كفيلة (مع الأيدي العاملة والتّربة المنْبِتة) بأن تجعله مميّزًا على كلّ أرض الله (والمنطقة بخاصّة)، ولكن لعلّ البركة نُزِعَتْ بسبب التّفرق والشقاق والعنف، وفوق ذلك بسبب مظاهر الشرك (المقامات والمزارات والمشاهد) وما دون ذلك من البدع والمعاصي والظلم والعدوان المنتشرة في مختلف الفِرَق (المنتمين إلى السُّنة فما دونها)، ردَّهم الله إلى دينه ردًّا جميلاً فيأمَنُون ويَطْعَمون.

كانت كلّيّة الطبِّ في (الموصل) جيّدة تضاهي مثيلاتها في العالم العربي، ولكنّ تسلّط حزب البعث العربي الاشتراكي وفَرْض فكره على العراق ومن فيه، يؤكّد ذلك لوحة على الحدود: (أنت بَعْثيّ ولو لم تسجَّل في الحزب) صَرَفَنَا عن فكرة الابتعاث إليه، داعين الله أن يُصلِح العلاقات مع مصر فلا نضطرّ إلى البحث عن غيرها، فهي أمُّ الدُّنيا العربيّة في التّعليم ذلك الوقت.

وعند عَزْمِنا على الرّحيل عن الفندق للعودة إلى المملكة المباركة، أبلغَتْنا إدارته أنَّ السَّفارة تحمَّلت نفقة إقامتنا فيه، فرفَضْنا شاكرين ليقيننا أنّ السَّفير (لا السّفارة) سيتحمّل النفقة كما هي عادته مع غيرنا، جزاه الله خير الجزاء.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى)

بس ـ وفي عام ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ شجَّعني زميلي أحمد المنصور رَحِمَهُ اللَّهُ (مدير الإدارة الماليّة) على السّفر إلى الولايات المتّحدة الأميريكيّة للجمع بين العمل ضابط اتِّصال في (كاليفورنيا) لمكتب الملحق الثقافي السّعودي في (نيويورك) وبين الدّراسة، ولم يكن من عادته التّشجيع على مثل ذلك،

ولكني اشتركت معه وعدد من أكبر موظفي الوزارة في تنبيه ولاة الأمر إلى تأثّر العمل في الوزارة بسبب تدخّل الوزير في تنفيذ الأنظمة فيما يتعلّق بالابتعاث وانتداب الموظفين للعمل في الخارج، لعجزه عن مقاومة الشافعين والوسطاء على حساب العمل والنّظام، وقلّة ساعات عمله في الوزارة ونحو ذلك (بعد تقديم النّصيحة له أكثر من مرّة)، ولكن هذا التّنبيه شُبِّه بالمظاهرة أو الخروج عن طريق الإصلاح النظامي؛ فأحيل أكبر هؤلاء الموظفين مدير عام الوزارة إلى التّقاعد، ونُقِل ثاني أَكْبَرِهِم إلى جامعة الملك سعود، ولأني تولَّيت نَسْخَ هذا التّنبيه فقد ظنَّ الأستاذ/ أحمد المنصور أنّ الأوْلى ابتعادي عن الوزارة في ذلك الوقت، ووافق هذا التّشجيع هوىً في نفسي لرغبتي في السَّفر والحصول على خبرة نظريّةٍ وعمليَّةٍ في مكان آخر، فطلبْتُ للمرّة الأولى والأخيرة الحصول على هذا التّميُّز، ونبَّهتُ الوزير عند توقيع القرار (بحضور زميلي الأستاذ خالد المسعود) إلى مصلحتي في هذا الأمر، فوقَّع القرار قائلاً: (أرجو الله أن يجمع المصلحة العامّة مع المصلحة الخاصة في هذا القرار) وهو حييٌّ كريم (ولو على حساب الدّولة)، ولا أظنُّه حاول الانتقام منّي، وإن كان وقف في طريق تعييني في وظيفتين لا زلت أدعو الله أن يجزيه عن ذلك خير الجزاء لعجزي عن القيام بأيٍّ منهما.

١) ولعدم حرص المكتب الثقافي السّعوديّ على التَّخلِّي عن جزء من عمله، وعدم حرصي على التقيُّد بالشكل والرُّوتين فقد التحقت بالدِّراسة العليا في جامعة (جنوبي كَلِفورنيا)

وحَصلتُ على درجة الماجستير في فلسفة التّربية خلال العامين الدّراسيَّين ٦٨ ـ ٦٩ و٦٩ ـ ١٩٧٠، وقدّمت عددًا من التّقارير عن التّعليم الجامعي في المنطقة وعلاقته بطلاَّبنا، ومثّلت المكتب في المرَّات القليلة التي طُلِب فيها منِّي تمثيله.

٢) خيَّرتني وزارة المعارف بين البقاء لمحاولة الحصول على الدكتوراه وبين العودة للعمل في الوزارة، وزارني عميد كلية التّربية (CARPENTER) يحضّني على البقاء، ولما عرف كراهيتي لدراسة ما يسمّى (علم النّفس) عَرَضَ إسقاطه عنِّي مكتفيًا بدراسته في كلّيّة الشريعة بمكة، ولكنّي لم أتوقع الحصول على فائدة تعادل عناء الدراسة، فشكرت العميد واعتذرت منه، وطلبت من الوزارة البقاء عامًا ثالثًا في دراسة حُرَّةٍ، وحصلتُ على موافقتها، وكانت من أهمِّ الميزات التي حصلت عليها، إذ إنَّ قيود التّعليم على أيِّ مستوى تُيَسِّر مهمّة الإداريِّين ولكنّها تَعُوق عملية التَّعلُّم الفطريّة، فلم يُفْطر ابن آدم على التَّعلُّم بالتجزئة أو التّقسيط أو التّقنين المفتعلة سواء في توحيد عدد السّنوات أو عدد دقائق الدّرس أو عدد الصّفحات في الموضوع الواحد أو توحيد عدد موضوعات الدّراسة لكلِّ طالب في زمن محدَّد ومكان محدَّد، وهو ما سعيت لتعديله بَعْدُ.

وكنتُ أبحث في برنامج الجامعة وفي جريدتها عمّا تقدِّمه في جميع الأوقات، ثم اختار الدروس والمدرِّس، ولو وجدت في برامج التلفزيون التعليميّة ما أحتاج إلى معرفته اخترته على برامج الجامعة.

٣) وكانت السّنوات التي اختار الله لي قضاءها في أمريكا أهَمَّ سنواتٍ أَخْتارها لنفسي: كانت الثقافة الأمريكيّة تتعرَّض لتغيير بالغ، وربما كانت حرب فييتنام التي يتحمَّل نتائجها الشّباب الأمريكي من أهمّ دوافع المطالبة بالتّغيير وبلغت هذه المطالبة نهايتها بالهزيمة. ولم يتوقف التّغيير بالانسحاب المهين من فييتنام بل امتدّ إلى القِيَم والتَّقاليد والعادات وأسوأ مظاهره: ظهور ثقافة (الهيبيز) بتحلّلها من قيود الدِّين والأخلاق وتجاوزها حدود المخدّرات والفواحش، ولها أصل يُسَمَّى (الهُوبُو) الذي يختار ترك عمله ومنزله وأهله مهما كان مستواه العلمي والاجتماعي والوظيفي ويهيم في الأسواق وينام في الحدائق العامّة.

٤) ودخلَتْ أمريكا في ذلك الوقت سباق الفضاء وفازت بالنُّزول على القمر، وقتِل (كينيدي) الذي أعلن دخول أمريكا هذا السِّباق وفاز في مواجهة مع روسيا بسبب نَصْبِها الصّواريخ في كوبا، ثم أذِنَ الله بِبَدْءِ ما سُمِّيَ بالصّحوة أو اليقظة الدِّينيّة في الوثنيِّين (الهندوس ثم البوذيِّين)، ثم في النّصارى بما سُمِّي (الولادة من جديد)، ثم بعد ذلك في المسلمين (السّود أتباع إليجا محمد)، ثم في (جمعيّات الطلاّب العرب) التي تغير اسمها إلى (جمعيّات الطلاّب المسلمين)، ومن أمريكا انتقل ما يسمّى: (الصّحوة الإسلاميّة) إلى جميع أنحاء العالم، وظهر تأثيرها في التديُّن العاطفي: الركض وراء كلِّ شيء يوصف بالإسلامي من شريط وكتاب وموعظة وفضائية ومهرجان

وجماعة وحزب؛ بل ومستشفى، حتى صارت كلمة (إسلامي) علامةً تجارية. وزاد عدد المصلِّين وعدد المساجد وعدد الجمعيَّات دون شرط النبي ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي» فلم يكن بين محرّكي الصّحوة عالم شرعي يذكِّرهم بذلك، ولم يَنْقُص عدد الأوثان والبدع والزَّوايا الصّوفيّة؛ بل لم تّدعُ الصحوة إلى تَرْكِها.

٥) وكان انتشار ظاهرة (الهيبيز) مُؤْذِنًا بظهور فِتَن كثيرة لم تنتشر في أمريكا من قبل: خَطْف الطّائرات المدنيّة وسرقة المصارف وترويع وخطف وقتل الآمنين؛ فظهرت تجارة الحراسة الأمنيّة والأبواب والأقفال المتينة وأجهزة الإنذار، وكانت المنازل قبل سنوات لا تكاد تغلق (فيما عدا المدن الكبيرة مثل نيويورك وشيكاكو) والمؤسَّسات بلا حراسة تذكر. ولم يعجبني من أمرهم غير قولهم (تسويغًا لتركهم الأهل والمال وراءهم): (بقَدْر قِلَّة مالك ومتاعك؛ يَقِلُّ خوفك على فقده). واقتدى بهم العَرَب كالعادة في بعض سيِّئاتهم فخطفوا بضع طائرات مدنيّة (أوروبيّة وأمريكيّة) وفجَّروها جميعًا في صحراء الأردن، إضافة إلى تفجير عدد من السّفارات والمؤسَّسات الإسرائيليّة والعربيّة وقَتْل الآمنين، وتهييج العامّة على الولاة.

٦) وأثناء إقامتي في لوس أنجلس ـ كَلِفورنيا نزل الأمريكي آرمسترونك على سطح القمر، وزُلزلت لوس أنجلس فعرفنا أثر الزّلزال على الناس والجماد، وحَكَمَ القذّافي ليبيا،

ومات جمال عبد الناصر فلخّص المعلّق على نشرة أخبار (C.B.S) إرِك سَفَرَايْد حياته وحركته بقوله: (كان رَجُلاً أحبَّه كثير من النّاس، وكان رَجُلاً كرهه كثير من الناس، ولكنَّه كان رَجُلاً)، ولا شك أنّه قاد العرب إلى الخير أو إلى الشرّ.

٧) ونفع الله بحركة (إليجا محمد) وإن لم تكن شرعيّة، فتحوَّل إلى اسم الإسلام عدد كبير من الزّنوج يُقدَّر بمائتي ألف، وأُسِّس عدد من المعابد يُقدَّر بمائة وخمسين، وبعد موته اتجه ابنه وارث الدِّين بالحركة وجهة السُّنّة التي عليها أكثر المنتمين إلى السُّنّة خارج أمريكا، وبقي (فرخان) وأتباعه على نهج (إليجا محمد)، وكثرة الأَتْباع وتَحَقُّق النّتائج الطيبة لا يعني صحّة منهاج الدّعوة، والقلّة والإخفاق لا يعني فساد منهاج الدعوة، فأكثر الرسل لم يتبعهم إلاّ القليل أو لم يَتْبعهم أحد، وقد يؤيّد الله الدِّين بالرَّجل الفاجر.

٨) وتأثّرت جامعتنا بهذه الحركات (الفكرية والسّياسيّة والاجتماعيّة بخاصّة) كما تأثّرت كلّ المؤسّسات والأفراد في أمريكا؛ فوُجِدَتْ دروس ومدرِّسون واجتماعات وفنون غريبة لم يكن أحد يحلم بوجودها من قبل لمفارقتها العِلْم والخُلُق والواقع المألوف.

٩) وفي (لوس أنجلس) إضافة إلى اعتدال مناخها بعض أبرز مظاهر الحضارة الأمريكية التي لم تُسبق إليها، وأهمّها: (هَلِي وُدْ) بمعنى: الغابة المقدّسة، وهي أبعد ما تكون عن

القداسة، ومن الفصل الدّراسي في جامعتنا نرى الجبل المسمّى بهذا الاسم كما تعلنه الحروف البيضاء الكبيرة، ويحجبه عنّا دخان السّيّارات غالبًا، وتحته وحوله (هَلِي وُدْ) المعروفة بأفلامها وممثِّليها وقصورها ومحلاَّتها الفاخرة ومجتمعها الذي بلغ درجةً من الثراء والتَّرف والفضائح والغرائب لم يبلغها غيره في أيّ مكان ولا زمان معروف، مع أن (لوس أنجلس) تعني: الملائكة.

ومن أهمّ مظاهر الحضارة الأمريكيّة في (كلفورنيا) غير بعيد من (لوس أنجلس): (دِزْني لاند) التي تجمع بين الترفيه بمختلف أشكاله على نحوٍ مبتكر وبين الإطلالة على الحياة في الماضي والإطلالة على الحياة في المستقبل، وقُلْ عن الفخامة والضخامة والفنّ ما شئت.

وفي (إنديو) غير بعيد من لوس أنجلس (أيضًا) غَرَس (كْرَين) خمسين ألف نخلة استوردَ شتلاتِها من العراق مع عمّالها وأسماء تمورها، وكعادة الغربيِّين طَوَّروا طُرُق غرسها وسقيها والعناية بها وجَنْيِها، واخترعوا الآلات المناسبة لذلك، وكنا نزورها أيام الاحتفال السّنوي بجني التمور، وربما لبس بعضنا الملابس العربيّة طمعًا في إعفائهم من ثمن تذاكر الدّخول، ثم ساهم كْرَيْن في التنقيب عن نَفْطِنا وإنتاجه. وفي (لوس أنجلس) رأينا للمرّة الأولى: الطّرق السّريعة الممتدّة (٦,٠٠٠) كيل إلى ساحل أمريكا الشرقي مرصوفةً بالإسمنت والحديد غالبًا، ومحلاَّت السُّبَرماركت، ومطاعم الوجبات السّريعة والسّينما؛ تأكل من المطاعم وتشاهد السّينما دون

التَّرجُّل من السّيارة، ولم تكن هذه كلها انتشرت في غيرها.

١٠) وبعد أن وصَلَتْ عائلتي بعدي ببضعة أشهر اشتريت سيارة مستعملة بثمانمائة دولار، استعملتها طيلة سنوات إقامتي، وسافرت بها بين السّاحل الغربي والشرقي ثلاث مرّات، إضافة إلى الأسفار الأقلّ مسافة، وكان من زملائي من يشتري الجديدة يومها بثلاثة آلاف دولار للمسافات القصيرة ثم يبيعها عند سفره بنصف قيمتها.

وقبل انتهاء فترة إقامتي بنحو أربعة أشهر طلبْتُ من نادي السّيارات تخطيط رحلتي الأخيرة في أمريكا بحيث أزور أكثر الولايات والمناطق المتميِّزة بطبيعتها، أو بما ابْتَكَرَتْه يد الإنسان، أو بثقافة أهلها؛ مثل (الهنود الحُمْر) في مناطقهم التي خُصِّصَتْ لهم، ومثل (الأَيْمِش) الذين يعيشون في هذا القرن كما كانوا يعيشون قبل قرنين، أمّا (الإسْكِمُو) فلم يَخْطر ببالي زيارتهم للبُعْدِ والبَرْد في ولاية (ألاسكا) المنفصلة عن الولايات الأُخرى بجزء من (كندا)، و(ألاسكا): أكبر الولايات مساحة وأقلّها سكّانًا، وقد اشترتها أمريكا من (روسيا) في القرن التّاسع عشر بسبعة ملايين ومائتي ألف دولار (٢٣٠٠٠م^{٢} بدولار). وقد اشترت أمريكا قبلها (نيوأورلينز) في أول القرن (١٩) ومعها جزء كبير من الأرض الأمريكيّة بخمسة عشر مليون دولار من فرنسا، ولا يزال جزء من (أورلينز) يحمل الاسم والرسم الفرنسي.

١١) وقبل أن أختم دراستي في الجامعة وفَّقني الله إلى تدبُّر قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥] في طريقي من الفصل إلى المنزل؛ فذكّرَتْني أني لست بعيدًا عن الأربعين (ثم يبدأ العدّ التّنازلي) وزادتْ عَزْمي على البُعْد عن التّقليد الدّيني والدّنيوي شاكرًا الله على ما جبلني عليه من ذلك.

١٢) وقبل مغادرتي (لوس أنجلس) حضرت أوّل عمل لجمعية الطلَّاب المسلمين؛ وكما هي الحال مِنْ قَبْل ومِنْ بَعْد؛ لم يكن درسًا في العلم الشرعي ولم يكن أمرًا بمعروف ولا نهيًا عن منكر، ولا دعوة إلى (أو على) منهاج النّبوَّة في الدّين والدعوة، ولا فِقْهًا في الدّين، بل كان رحلة ترفيهيّة تجمع أعضاءها على غير عقيدة ولا سنّة صحيحة ولا عِلْم.

١٣) وكانت (لوس أنجلس) خيرًا من غيرها من المدن الكبيرة في النصف الغربي من أمريكا ومثل غيرها من المدن في النصف الشرقي من أمريكا لا يوجد بها غير مسجد واحد يسمّى المركز الإسلامي تديره (رابطة العالم الإسلامي) ولم يكن يُفْتح غير يوم الأحد (ضُحًى) تُلْقى فيه موعظة غير شرعيّة (عن مثل: سبق الإسلام بالسّواك الغَرْب بالفرشة والمعجون)، ويعقد فيه

زواج من يرغب الزّواج، وفي الغالب: لا يُرْكع فيه لله ركعة واحدة. وأوّل من بنى المساجد شرق أمريكا: المهاجرون من لبنان لغرض واحد: أن يكون للمسلمين معبدٌ لا يفتح إلاّ يوم الأحد والأعياد كما للنّصارى وغيرهم معابد كذلك.

❁ ❁ ❁

ع ـ ولوجود طفلين معي ـ مثلي ـ يضيق بهما المكان المغلق ويضيقان به، وللرغبة في قضاء فَتْرة سَفَر العودة الطّويل بأقل تعقيد ممكن (وبالتالي: بأقلّ نفقة ممكنة)، اشتريت خيمة صغيرة بأعمدة ألمنيوم يسهل تركيبها وطيّها وحملها، ومَوْقدًا بالكاز (دافور) وأضفْتُ إليهما ما نحتاجه من أدوات وأواني المطبخ وأكياس النَّوم.

١) اخترت أقرب الطُّرق (١٠) إلى السّاحل الجنوبي بين السَّاحل الغربي والشرقي؛ لأني سبق أن سافرتُ بالسّيارة نفسها على طريق (٤٠) الوسط وطريق (٩٠) أقرب إلى الشمال بين السّاحلين، يبلغ طول كلٍّ منها نحوًا من (٦,٠٠٠كيل) ليتحقَّق لي زيارة أكثر الولايات الأمريكيّة، واخترت الطّرق المتعرِّجة البطيئة على الطرق السَّريعة ليتحقّق لي زيارة أكثر المدن والقرى والأنهار والمواقع الطبيعيّة والتَّرفيهية، وأظنُّ أني ـ بَعْد سفر نحو (٣٤,٠٠٠كيل) في العامين الماضيين و(١٦,٠٠٠كيل) في هذا السَّفر الأخير الذي امتدّ ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يومًا ـ رأيت

من أمريكا ما لم يره ٩٠٪ من الأمريكيّين وعرفت من أرض الله وخَلْقه ما لا يُعرِّف به الفصل الدّراسي.

٢) والولايات المتحدة الأمريكيّة أكبر بلد في العالم (بعد روسيا وكندا والصِّين) وأكثر سكانًا (بعد الصِّين والهند)، وأكثر بلاد العالم تأثيرًا على بقيّة العالم من حيث الثّقافة الحديثة ومن حيث مجموع اقتصادها وزراعتها وصناعتها وقوتها العسكريّة، وهي (٥٠) ولاية أصغرها (رَوْدآيلَند) وأكبرها (ألاسكا)، إضافة إلى منطقة كولومبيا الفدراليّة وفيها العاصمة (واشنْكتُن)، وإضافة إلى عدد من الجزر مرتبطة بأمريكا وليست من ولاياتها مثل (ساموا الأمريكيّة) و(كوام) و(فِرْجن الأمريكيّة) و(بورْتُوريكُو)، ولها من السّواحل ما يبلغ طوله نحوًا من عشرين ألف كيل، ومن الجبال والغابات والمحميّات (الحدائق الوطنيّة)، وفيها من أنواع البشر والحيوان والطَّير ما لا يجتمع لغيرها، وأطول أنهارها (المِسِسِبِّي) ويجري من (مِنِسُوتا) في أقصى شمالها إلى (لويزيانا) في أقصى جنوبها بطول (٣,٧٨٠ كيل)، وتمتدّ سلسلة جبال (رُكِي) نحو (٤,٨٠٠ كيل) من (ألاسكا) في أقصى شمالها إلى (نيومَكْسِكُو) في أقصى جنوبها، وتغطّي البُحيرات العذبة نحوًا من (٣٢٨,٠٠٠ ك.م) من أرض الولايات المتحة الأمريكيّة، وفيها من العجائب الطّبيعيّة مثل: شلّالات (نَيَاكْرَا الأمريكيّة) وعرضها (٣٢٣ مترًا) بارتفاع (٥١ مترًا)، ومثل: (كراندكانْيُن) وهو مجرى حَفَرَهُ نهر

(كَلُرَادو) بعمق (١,٦٠٠متر) وطول (٣٤٩ كيل)، ومثل: ينبوع (أولدفَيْثفُل) في مَحْمِيّة (يُوسِمِتي) الوطنيّة الذي ينفث ماءً في درجة الغَلَيان كلَّ (٦٨ دقيقة) بارتفاع (٤٨مترًا)، هذا مِنْ خلق الله قبل أن يَعْرِف الأوربيّون شيئًا عن هذه الأرض ويستعمرهم الله فيها فيعملون (مِنْ خلق الله) عجائب لا يحصيها إلَّا الله؛ قليل منها للذّكرى (ثم الدَّخْل السياحي) مثل: (تمثال الحريّة) يستقبل سُفُن القادمين من أوروبا وما خَلْفها، هدية من الفرنسيّين إلى الأمريكيّين تذكارًا لتحالف بين فرنسا وأمريكا عام ١٧٧٨م. ومثل: (منحوتات جبل رَشْمُور، جنوب داكوتا) لوجوه أربعة رؤساء أمريكيِّين (واشنكتن، جِفِرْسُنْ، لِنْكُلْن، وروزفلت) تُرَى ـ لضخامتها ـ على بُعْد نحو (١٠٠كيل)، ومثل: نحتٍ لأحد رؤساء الهنود الحمر (كْرَيْزي هُورْس) لم ينْتَه بَعْد على جبل (ثَنْدَرْهِدْ) في ولاية (جنوب داكوتا) أيضًا، وبَدَأَ نَحْتَه قبل خمسين سنة، وفُتِح موقعه للسّياحة قبل مروري به عام ١٩٧٠، وانتهى نَحْت الرّأس بعد ذلك برُبْع قرن تقريبًا، ويدلّ على ضخامته أنَّ طول يده سيبلغ مائة متر والرّيشة على رأسه أكثر من عشرين مترًا. ومثل: قوس (سيْنت لِوِس ـ مِزُوري) الذي يرتفع (١٩٢) مترًا في الفضاء باسم (قوس البوّابة) تذكارًا لما كانت عليه مدينة (سيْنت لِوِس): بوّابة للغرب الأمريكي في القرن (١٩).

وأكثر مُنْشَآت الحضارة الأمريكيّة (تعليميّة وطبِّيَّة وصناعيَّة

وزراعيَّة وترفيهيَّة) من ابتكار وتنفيذ الأمريكيِّين (لا الدولة الأمريكيّة) يدفعهم إلى ذلك: منفعة خاصّة من مال أو سُمْعة أو هما معًا، أو منفعة عامّة للوطن وأهله. ويعينهم على تحقيقه: الصّبر والمثابرة والعزم والإصرار، والتّعاون بالمال أو العمل.

ويبيِّن ذلك بعض التفاصيل عن أحد الأمثلة السّابقة؛ نحت التمثال النصفيّ للزَّعيم الهندي الأمريكي (كريزي هورس) على فرسه: فقد عمل النّحات (٤٣) سنة وحيدًا على تحويل الموقع الجبلي إلى تحقيق لفكرته حتى أقعده المرض عن العمل فأوصى زوجته وبَنِيه بإتمام المشروع، وبعد (٥٠) سنة من بداية العمل احتُفِل بإتمام المرحلة الأولى من المشروع (رأس الزعيم) بعد أن أزيلت ثمانية ملايين طنّ من الحجارة والتُّراب، وصُرِفَتْ عشرة ملايين دولار من التَّبرعات ورسوم الزيارة، ووضِعَتْ أعداد كبيرة من المهندسين والمتعهِّدين والفنِّيين والعمال أسماءها على قائمة الانتظار الطويلة للتطوع بمهاراتها وجهدها ووقتها مساهمة في تحقيق رمزٍ وطنيٍّ بارز للسُّكّان الأصليِّين: الهنود الحمر.

٣) وتركتُ (كلفورنيا) المتفاوتة بين منطقة الفِكْر الجبليَّة (المائلة للبرودة) في (سان فرانْسِسْكو)، وبين منطقة الفن والثروة (المعتدلة) في لوس أنجلس وما جاورها، وبين منطقة (وادي الموت) شديدة الحرارة (تصل إلى ٧٥ درجة) قليلة الأمطار غريبة النّبات والحيوان.

ومَرَرْت بولاية (أرِزُونا) الصّحراوية القاحلة التي يظنّ البعض أن عملية النُّزول على القمر إنما كانت خدعة مصوَّرة على صحراء (أرزونا)، كما أنّ من العرب والأمريكيّين من يظنّ أنّ احتلال العراق للكويت وتدمير (برجي مركز التجارة العالميّة) والقضاء على طالبان والبعث العراقي مجرّد تمثيليّة مبيّتة بهدف التّنصير والاحتلال. وذكّرتني (أرِزُونا) ـ مَع عُقدة المؤامرة ـ بصحرائنا من حيث الحرارة والحشرات ليلاً ونهارًا.

وزرت (كراندكانيون) أبرز مناطقها السِّياحيّة، وشكرت الله أن لم يجعل أكبر همِّي في أيّ يوم: المخاطرة بمتابعة مجراه في قارب مطّاطي تتقاذفه المياه الجارفة. ولم أحرص على إعطائها من وقت السّفر أكثر مما يعطي الحاج وادي محسّر؛ وقَبْل سنة زرت صديقًا عزيزًا في منطقة سياحيّة مرتفعة (فلاك ستاف) في هذه الولاية بالسّيارة نفسها. وحدث في الطريق أن تسرَّب الزيت بسبب تلاعب عامل مكسيكي عهدت بها إليه لإعدادها للسّفر، ولم نتنبَّه للخطأ إلَّا بعد ارتفاع صوت (المحرّك) بعد نفاد الزّيت، ولكن من عادتي الاستفادة من السّيارة على أيّ حال فلم أصلح الخطأ بأكثر من تعويض الزّيت المفقود.

ومع أنّ (أرزونا) معروفة بصحرائها ورمالها وحرارتها فإنّ أكثر من نصف مساحتها يُعَدُّ أرضًا زراعيّة، وما ينقص من طبيعة الأرض يكمله العمل بالوسائل الحديثة.

٤) وفوق (أرزونا) ولايتين: (نيفادا) المشهورة بمدينة

القمار واللهو: (لاس فيكس)، و(يُوتاه) المشهورة بأكثريّة سكانها من (المورْمَن)، وهي طائفة أسَّسها (جوزف سْمِث) عام ١٨٢٠ بدعوى أنّ مَلَكًا دلَّه على الألواح الذَّهبيّة التي تضمَّنت كتاب المورمن، وهذا الدّين يختلف عن النّصرانية السّائدة في أمريكا بتقرير أنّ الرَّبَّ وعيسى كائنان منفصلان، ومن أبرز ما اشتهر به تحريم الخمر والدّخان والشاي والقهوة، وإباحة تعدُّد الزّوجات، ولا تزال فرقة من المورمن تمارس التّعدُّد وتتحايل على القانون الأمريكي الذي يحرِّمه بوصف الزّوجات (فوق الواحدة) بالأخوات لأن القانون لا يحرّم المسافحة والمخادنة، وهم أيضًا يفرضون الحجاب على الإناث منذ الطفولة.

٥) وتشتهر ولاية (نيومكسكو) بكثرة تنوُّع أرضها (الصّحراء والبحيرات والأنهار والجبال البركانية). وقد مرَّت بي خطّة سَفري على أعلى جبالها (٤,٠٠٠ متر)، وأهلها من أصل هندي وإسباني وأوروبي، وتتميَّز بمحميَّة (الرِّمال البيضاء) لبياضها اللامع، وبأنها كانت موقع أول تجربة نووية عام ١٩٤٥ ومساحتها (٥٨٥ك.م)، ويكاد يَشْطُرها من شمالها إلى جنوبها أكبر أنهارها (رْيُوْكرانْد).

وكنتُ في سفري هذا ـ حتى الآن ـ أنْصبُ خيمتي في أحد الأماكن المخصّصة للتخييم (سواء كان عامًّا أو خاصًّا بأُجْرته) عندما يحلُّ المساء حتى نقضي لبانتنا من المنطقة، ولكن رؤية النَّهر أَغْرَتْني باستئجار منزل على ضفَّته بضعة أيام للرَّاحة (من وعثاء السَّفر) في هذه المنطقة الجميلة، ولو

استقبلت من أمري ما استدبرت لم أقيّد نفسي بالبناء وجدرانه وأثاثه بعد أن تعوَّدت أيامًا على التَّحرُّر من قيود الحضارة.

٦) ودخلنا ولاية (تِكْسَس) الفسيحة أرض النِّفط، وكانت تستقبل بعثاتنا للدراسة، وأوّل وأبرز من تعلَّم هندسة البترول والجيولوجيا في (أُوسْتِن) عبد الله بن حمود الطَّريقي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولقربها من (المكسيك) وكثرة المهاجرين من المكسيكيّين إليها كان يوصف بالمكسيكي النَّحيف، وربما زاده ذلك بُغْضًا لأمريكا وأهلها، مع أنَّ أمّ ولده صخر أمريكيّة، ولكنّه باتجاهه القومي العربي كان حريًّا ببغض أمريكا بحقّ أو بدون حقٍّ رغم أن الله جعلها وسيلة لتعلّمه ثم عمله ـ طيلة حياته ـ في شؤون البترول وزيرًا في دولة الدعوة ثم مستشارًا لخمس دول بترولية، ولعلّ بغضه لأمريكا ومن دونها الشركات البترولية الأمريكيّة وسوء ظنِّه بها قد نفع الله به الدّول المنتجة للنّفط (أوبيك) بإنشائها ثم باكتشاف تلاعب الشركات الأمريكيّة بالأسعار وإرغامها على تصحيح مسْلَكها. وختم الله حياته المتميِّزة (وظيفيًّا) بخير، فَبَدَّلَه مِنْ بَعْدِ قوميَّته دِينًا وجعله من السّابقين إلى المسجد.

وأذكر ـ للمقارنة ـ أن جالون البنزين كان يباع في (تِكْسَس) بستة وعشرين سِنْتًا، أمّا اليوم فلا ينخفض عن ثلاثة دولارات بفضل الله ثم بفضل ذكاء عبد الله الطريقي وجهده.

وأذكر ـ للمقارنة ـ أنّ أحد من ابْتُلينا به بعده كان يُعَدُّ عَيْبة نُصح لأمريكا والشركات الأمريكيّة على حساب البلد الذي

ابْتُلي به، وأنه كان وحده ضدَّ مقاطعة أمريكا عام ١٩٧٣، ولما خلَّصنا الله منه لم يجد أحد مجالاً للاستفادة منه إلاّ وسائل الإعلام (التّهريجيّة) من تهريجه، وكان الكلب خيرًا منه لأنه لا يعضّ اليد التي أَطْعَمَتْه دون استحقاق علمي أو عملي أو خُلُقِي.

وهذه الولاية (تكسس) هي أول الولايات، ولذلك يحمل علمها نجمًا واحدًا إذ كانت وحدها جمهورية مستقلة قبل اتحاد الولايات الأمريكيّة، وهي أكبر الولايات المتّصلة مساحة، وفيها الغابات والجبال والصّحارى والبحيرات والأنهار، إضافة إلى ساحل طويل شبه استوائي على خليج المكسيك، وأكثر إنتاجها الزّراعي: من القطن، ومن المعادن: النّفط، ومن الأنعام: البقر، ومن الصّناعة: الكيميائيّات. وتشتهر (هيوسْتِن) أكبر مدنها بمراكزها الطّبّيّة والفضائيّة والعلميّة والنفطيّة وصناعة السُّفن... إلخ.

٧) وتنفرد ولاية (لُويزْيانا) بميزات كثيرة على أكثر الولايات؛ فهي تنفرد بمجرى نهر المسيسبّي في نهايته، بينما تتقاسمه معها ولايات أخرى قبل ذلك، وتبلغ نسبة الأقلِّيَّات (السّود بخاصّة) حدّ الأغلبية، ولا يزال بعض سكّانها من أصل فرنسي يتكلَّمون الفرنسيّة، ولا تزال بعض مبانيها القديمة تحتفظ بهندستها المعمارية الفرنسيّة (في نيوأورلينز بخاصّة)، وكان الرئيس الأمريكي جِفْرسُنْ قد أرسل ممثّلَيْن له لشراء (نيوْأوْرْلينز) من حكّامها الفرنسيِّين في أول القرن (١٩) بمليوني دولار، ففوجئ الممثلان بالفرنسيّين يعرضون عليهما شراء

جميع ممتلكات فرنسا (تضمّنت ثلاث عشرة ولاية تقريبًا) بمبلغ (١٥) مليون دولار، فوقّع الممثلان العقد رغم عدم تفويضهما خوفًا من رجوع الفرنسيِّين عن عرضهم، وسجّل التاريخ الأمريكي هذا العقد باسم (صفقة شراء لويزيانا) وتمَّ بها مضاعفة مساحة الولايات المتّحدة في ذلك الوقت.

و(لويزيانا) وما بعدها من أجمل المناطق الطبيعيّة في أمريكا لكثرة الأنهار والبحيرات وخصوبة الأرض واستغلالها في الزّراعة والرعي.

وتتميّز (نيوأورلينز) بملامحها الفنّية على كلّ مستوى (مَهْما نزل) تذكرني بالمناطق البوهيميّة في باريس، وبسكّانها، وبِعمَارتها، وبنهر المِسِسِبّي يجري في وسطها، وبمينائها الذي لا ينافسه غير مثيله في نيويورك.

وقضينا يومًا أو بعض يوم على ضفّة (المسسبّي) الغربيّة، وكان أحد أولادي يسلّي نفسه برمي الحجارة الصّغيرة، وكنت أحذّره من الاندفاع مع الحجر إلى النّهر الذي يبدو راكدًا من ثقل ما يحمله من الطّمي منذ منبعه في (مِنِسوتا) على بُعْد آلاف الكيلومترات، ولكن الطفل لا يتعلّم من نصائح أهله كما يتعلّم من أخطائه ـ كما يقول (هِرْمَن هِسْ) في: (سِدَارْثا) ـ، وفجأة فقَدْناه فتطلّعنا إلى ضفة النّهر ووجدناه يغوص في النَّهر الطينيّ شيئًا فشيئًا، وأعاننا الله على إخراجه بفضله.

وأثناء إقامتنا في (لويزيانا) جرّبنا مواجهة الإعصار وإن

كان لا يقاس بـ(كاترينا)، فجلسنا جميعًا في جانب الخيمة المواجه للإعصار (وهي من النّوع المغْلَق من الجهات الأربع ومن السّقف والأرض حماية من الرّياح والحشرات، ونازَعَنا الإعصارُ الخيمة حتى ظننتُ أنّه سيطير بها وبنا، ولكن الله سلَّم.

٨) وبعد أن عَبَرْنا نهر (المِسِسِبّي) إلى ولاية (المِسِسِبّي) وقفنا (عصرًا) على ضفّة النهر الشرقيّة نرقب بعض الزّوارق تجري بأهلها فيه، فتوقّف أحد الزّوارق يحمل عائلة من ثلاثةٍ (رابِعُهُم كلبُهم) وطلبوا من وَلَديّ مرافقتهم في جولة على النّهر، وتذكّرْتُ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] فلم أرَ مثل هذه الرأفة في بلد عربيّ ولا مسلم، وقد يكون السّبب: نَمَط الثّقافة.

وولاية (المِسِسِبّي) مثل (لويزيانا) قبلها و(أَلَبَاما) بعدها من المناطق الزّراعية المتميِّزة (زراعة القطن بخاصة) ولذلك تميّزت بكثرة السّود، وبمقاومتها تحرير الرقيق إلى درجة خروجها من اتحاد الولايات الأمريكيّة ودخولها الحرب ضد سياسة تحرير الرقيق منذ أعلنها الرّئيس (لِنْكلن)، وقد شهدت في أعوام السِّتّينات بعض مظاهر التّمييز العنصري العلني في (ألباما) وما جاورها إلى درجة اغتيال (مارتن لوثركنك) مضاد التمييز، ومحاولة اغتيال (جورج والاس) مناصر التّمييز، وإصابته بالشلل.

٩) ومن (أَلَباما) انتقلنا إلى ولاية (فلُردا)، فأوقفتنا ـ مثل غيرنا ـ فتاةٌ تعرض علينا أولاً: شُرْب عصير البرتقال الذي تشتهر به الولاية، وثانيًا: استضافتنا الليلة على العشاء والإقامة (٢٤ ساعة) بلا مقابل، وثالثًا: الاشتراك في جولة بالسَّيارة والقارب لتفقُّد منطقة الشاطئ لعلنا نشتري أرضًا منها لبناء منزل في المستقبل، ولم يَثْنِها عن عرضها السّخيّ تأكيدنا أننا لا نرغب في شراء أرض ولا بناء منزل في أمريكا، وأنّنا في طريقنا لمغادرتها؛ فهي موظّفة في شركة لا يهمّها إلَّا اصطياد المسافرين لمجرد المحاولة، ومن يدري فقد يجد الزّائر ما يغريه بالشراء (كما يقول بعض الفقهاء تسويغًا لإباحة الزّواج بنيّة الطّلاق)، وقبلنا الدعوة فشربنا عصير (فْلُردا)، وأخذنا المال المخصّص للعشاء (أو ما يرمز إليه حتى لا يهرب الزائر بعد العشاء قبل تفقّد الأرض في الصّباح)، ونمنا تلك الليلة في ضيافة الشركة، وفي الصّباح بعد طعام الفطور وجدنا سيارة ثم قاربًا في انتظارنا مع عدد من الزّوار، وبعد الجولة ساعةً على المنطقة قُدِّمَت لنا (خاصَّةً) سيارة (كادلك) أقلَّتنا لمقابلة ممثِّل شركة البيع (وهي غير شركة اصطياد المشترين) فأبدينا له شكرنا على الضيافة وإعجابنا بالأرض المعروضة للبيع، واعتذارًا جازمًا عن الشراء؛ فاختفت سيارة (الكادلك) وظهرت مكانها سيارة أجرة قديمة أعادتنا إلى سيارتنا، ودعونا لهم ولأنفسنا بالهداية.

وأكثر ما تشتهر به (فْلُرِدا): شاطئ (ميامي) ـ ولم تكن (دِزْني وُرْلد) قد أُنْجِزَتْ في ذلك الوقت ـ، وربما كنت أنظر بعين السّخط فلم أرَ ما يميّزه غير غمامة من الذّباب الصّغير ألجأنا إلى تغطية أكواب الشاي وأفواهنا وأنوفنا وأخيرًا إلى السّيارة والهرب من الشاطئ المشهور وترك نصيبنا منه للذّباب.

وأجمل منه وأعجب: مُسْتَنقع (إفَرْكليدز) الذي يُغَطِّي (١٠,٠٠٠ كيل مربّع) من أرض الولاية، وتجُوبُهُ قوارب السّياحة بين النَّباتات والشجيرات التي تنمو في المستنقعات، وفيه كثير من الأحياء التي لا تجتمع في غيره، ولكن لا بدَّ للزّائر من دهْنِ ما ظهر من جسمه بمضادّ للبعوض الذي يملأ المنطقة.

وانحدرنا إلى (كِي وِسْت) أقصى نقطة في جنوب الولايات المتّصلة وتَبْعُد (٢٤٠كيلاً) عن (ميامي)، وتقرب (١٤٥ كيلاً) إلى (كُوبا) عَبْر مضائق فْلُرِدَا.

١٠) وبعد أن قطعنا المسافة بين أقصى نقطة في الجنوب الغربي إلى أقصى نقطة في الجنوب الشرقي (نحوًا من ٦,٠٠٠ كيل) بدأنا الصُّعود إلى: ولاية (مَيْن) أقصى نقطة في الشمال الشرقي (نحوًا من ٤,٥٠٠كيل) مرورًا بعشر ولايات إضافة إلى منطقة (كلومبيا) المقتطعة من ولايتي (فرجينيا وميري لاند) لتقام عليها (واشنكتون) العاصمة على نهر (البُتُماك) بمساحة قدرها: (١٧٤ك.م). وسُمِّيَت باسم الرئيس الأوّل قائد أمريكا

إلى الاستقلال من الاحتلال الأوربي (الإنكليزي بخاصّة) وقائد الشّعب الأمريكي إلى الاتِّحاد في القرن الثامن عشر.

والأرض الأمريكية ـ عمومًا ـ زاهية متعدِّدة الألوان، غنيَّة بطبيعتها وثقافتها وحضارتها الدّنيويَّة، وتتكرر فيها مظاهر الثقافة: (المكتبات العامّة والمتاحف ومراكز البحث) ومظاهر التّسلية: (الملاعب الضخمة والمسارح ودور السينما وحدائق الحيوان والمحميّات ـ من كلّ شكل ونوع ولون ـ والعروض البشريّة والحيوانية) والمظاهر الفنية: (النُّصُب والتّماثيل والمجسمات الهندسيّة بكل وسائل البناء) فلا حاجة ولا قدرة على ذكرها بالتّفصيل.

أما (نيويورك) فهي عالم قائم بذاته، ويلقّبها أهلها: (التفاحة الكبيرة) وهي في رأيي أهل لأن تلقَّب (الرمّانة الكبيرة) لمحدوديّة مساحتها (فهي مبنيّة على ثلاث جُزُر وبِضْع جُزُر أصغر محاطة بالبحر من كلّ الجهات عدا الجهة الجنوبية الشرقيّة، وأنّه يسكنها أكثر من ثمانية ملايين (في المركز) وأكثر من تسعة عشر مليونًا (في مجموعها). وفيها أكبر ميناء أمريكي وأكثرها حركة، وهي أكبر مركز للثقافة والترفيه في أمريكا، وتُعَدُّ عاصمة المال والأعمال في العالم.

وصلنا ولاية (مَيْن) أرض الغابات والبحيرات والشلالات والأنهار، (أكثر من ٥,٠٠٠). وعندما نزلنا في إحدى

الاستراحات للغداء أَكَلَنا البعوض قبل أن نأكل طعامنا، فانتقلنا إلى مكان آخر نستطيع فيه بناء الخيمة وشراء مبيد للبعوض.

ولم يطل مقامنا في هذه الولاية الباردة، إذ اخترنا الانتقال إلى منطقة متميّزة (كوبك) في دولة (كندا)، وولاية (كوِبك) أكبر الولايات الكندية مساحة، وأكثرها سكّانًا (بعد ولاية أُونْتاريُو) ومساحتها أكثر من مليون ونصف مليون (ك.م)، وطولها من الشرق إلى الغرب: (٢,٥٧٠) كيلاً. ومن الشمال إلى الجنوب: (١,٩٢٠ كيلاً)، وأكبر أنهارها: (سانت لورنس) الذي يخترق المنطقة بطول (٣,٤٠٠ كيل). ولكن أهمّ ما يميّزها أن ٨٠٪ من سكانها فرنسيو الأصل، وطالبت كثيرًا بالاستقلال عن (كندا)، وزارها (ديكول) الرئيس الفرنسي في آخر ولايته فأظهر التَّعاطف مع محاولة الاستقلال بعدم رفع العلم الكندي على سفينته في المياه الكنديّة (كما يقضي العُرْف الدولي)، وأكّد ذلك بهتافه في حفل استقباله الرسمي: (عاشت كوِبك حُرَّة) فأمرت (كندا) بقطع زيارته.

ولاختلاف سكان (كوبك) في الأصل والدِّين واللغة، اختلف تعليمهم بين الكاثلِكِية والبروتستانتيّة وبين الفرنسية والإنكليزية.

وتابَعْنا نهر (سانت لورنس) وما أَحْيا الله به من نبات

وطير وحيوان، وتوقفنا وقتًا أطول في مدينتي (كوبك سِتِي) و(مُنْتريال).

وأنهينا زيارتنا (كندا) بالإقامة أيّامًا عند مصبِّ شلَّال (نياكرا) الكندي ويلقّب: (هُورْسْ شُوْ) تشبيهًا له بحذوة الفرس في انحناءته، وغير بعيد منه شلال (نياكرا) الأمريكي (غير المنحني)، ومع أنه أعلى من الشلال الكندي، ويتكوّن كلاهما من مصدر واحد في منطقة البحيرات الكبرى بين البلدين إلَّا أنّ الشلال الكندي بدا لنا أعظم وأروع وأجمل؛ من حيث طبيعته التي أوجده الله عليها ومن حيث تنظيمه وتزيينه وكثرة خدماته.

وعند مصبِّ الشلال يجد السائح من الغرائب والخدمات ما يُغْريه بصرف نقوده من ركوب طائرة هِلِكُبْتر لمراقبة الشلالات من السّماء (سبعة دولارات للفرد) إلى شراء نسخة من جريدة وهميّة باسم الشلال تروي قصةً خياليّة باسمك وصورتك في الصّفحة الأولى عن نزولك مع الشلال وسط برميل يصارع قوة اندفاع المياه ويَهْوي من علوّ نحو خمسين مترًا إلى البحيرة تحته.

ولك أن تكتفي بالاستمتاع بجمال المنطقة حول المصبّ بخضرتها وأزهارها وسط هدير الشلال ورذاذه. وإذا كان للختام الدّنيوي أن يكون مِسْكًا؛ فهذا أقرب شيء إليه، فلم أرَ ولم أتخيّل في الوجود شيئًا ولا مكانًا يضارعه روعة وهيبة وجمالاً.

١١) وقاوَمْنا الرّغبة في الإقامة أيّامًا أخرى، وقاوَمْنا إلْحاحَ رجل كندي وحفيده ألِفَا المقام معنا منذ البداية. وعُدْنا إلى ولاية (نيويورك) وأخيرًا إلى مدينة (نيويورك)، ولما كان يوم وصولنا يوم الأحد وهو اليوم الوحيد الذي نستطيع فيه إيقاف سيارتنا دون خوف من سَحْبِها وتغريم أهلِها؛ أوقفنا السّيارة ومشينا على الأقدام إلى مطعم غير بعيد، ولم أنسَ تحذير الأهل بأني سمعت في المذياع قبل قليل إحصائيّة تؤكد أنّه تُسْرق سيارة كلّ دقيقة في (نيويورك)، واحتطنا للأمر بتغطية ثلاث حقائب (سمسونايت) كبيرة تضمُّ كلَّ ملابسنا، ولما عدنا بعد ساعة وجدنا السّيارة مفتوحة والحقائب مفقودة، وأعمى الله اللصوص عن فتح درج السّيارة وفيه تذاكر السّفر بالطائرة من (نيويورك) إلى (الرِّياض)، والشيكات السّياحيّة وبعض الحُليّ ونحوها، ومرّت سيارة الشرطة فأوقفناها وأخبرناه الخبر، والشرطي هناك (سُوق وساقِي وشُعْبة) كما يقول المثل الشعبي، فهو يتحوَّل ـ حسب الحاجة ـ إلى شرطي مرور، أو دفاع مدنيّ، أو مكافح للمجرمين أو مفرّق للتجمّع المخالف للنّظام... إلخ، وبدأ يُحْصي المسروقات فسألته: هل يوجد احتمال لردِّها؟ فقال: لا، فطلبت منه أن يريح نفسه ويريحنا، وحمدنا الله على التّخفيف عنّا من حمل الحقائب والمحافظة عليها فكما يقول (الهيبيز): (كلما قلَّ متاعك قلّ خوفك من فقده) وصِرْنا (مثلهم) ليس معنا من الملابس إلَّا ما يُغَطِّي أجسادنا.

وأقمنا في مخيَّم غير بعيد من وسط (نيويورك) نهيِّئ للسَّفر، وكانت خُطَّته الأولى تمرُّ بنا على عدة دول في جنوب أمريكا ثم نعبر المحيط إلى جنوب أفريقيا ثم إلى عدة دول في أفريقيا آخرها مصر ثم الرّياض، وبدا لنا أنّ السّفر على هذه الخطة سيكون مرهقًا، فالسّفر بالطائرة يحتاج إلى حجز وتأكيد حجز واحتمال التأخير وسفر مِنْ وإلى المطار، وليس مثل السّيارة تستعدّ على مهلّ ثم تدير مفتاح التّشغيل وتنطلق ما طاب لك الانطلاق وتتوقف ما طاب لك التّوقُّف؛ فرأينا تجربة طريقة وخطّة أخرى للسَّفر: الباخرة ذكَّرنا بها مرورنا بمكتب للسَّفر بالبواخر ووجدنا خمس بواخر هي أكبرها وأكثرها رفاهية: (الملكة إليزابث الثانية) لإنكلترا، و(فرانس) لفرنسا و(أمريكا) للولايات المتحدة الأمريكية و(ليوناردو دافنشي) و(مايكل أنجلو) لإيطاليا؛ ولأن الإيطاليّين أقرب إلى العَرَب جغرافيًا وثقافةً (وفوضى وصياحًا) طلبنا الحجز لنا في إحدى الإيطاليَّتين مقابل تذاكر الطّائرة ومائة دولار فوقها من (نيويورك) إلى (نابُلي) أسفل نقطة في جنوب إيطاليا على البحر الأبيض المتوسِّط، وذهبنا إلى مكتب الطيران لتعديل التذاكر: من (نيويورك) إلى (نابُلي) إلى (بيروت) إلى الرِّياض، ورحّب كاتب التذاكر العجوز بتعديله رغم أنه تَعِبَ عليها من قبل ومن بعد، كما قال، لمعرفته بما سينالنا من تعب لو نَفَّذنا الخطة الأولى، فشكرناه ودعونا له ولأهله بالهداية.

ورجعنا إلى مخيّمنا في انتظار موعد السّفر بالباخرة الفاخرة عبر المحيط الأطلنطي، واشترينا بطاقة توضع على زجاج السّيارة الخلفي إعلانًا عن رغبتنا في بيعها، وفور الإعلان عن البيع اسْتوقَفَنا رجل أخبرنا أنه من (ألبانيا) في الأصل ويرغب في شراء السيارة فأخبرته أنني اشتريتها قبل عامين بثمانمائة دولار ومن عادتنا بيعها بنصف ثمن شرائها (٤٠٠ دولار) وأنّنا سنسافر بعد عشرة أيام ولن نتخلَّى عن السّيارة إلا لحظة ركوبنا الباخرة، فنَقَدَنا (١٠٠دولار) وتَبِعَنا ليعرف مكان المخيّم فيوافينا ببقية الثمن ويصحبنا إلى الباخرة ويأخذ سيارته وهكذا كان، وأهديناه كلَّ ما بقي من متاعنا، ولم نأخذ معنا إلا ثلاثة أكياس نايلون تحمل ما نضطر إلى حمله في السَّفر أسبوعًا في البحر وأسبوعًا بين السَّماء والأرض.

١٢) خشيت من أن نَمَلَّ العيش في الفُلْك أسبوعًا بين السَّماء والماء، ولم يَغِبْ عن ذاكرتي مصير الباخرة الفاخرة (تايْتَنيك) التي أعلن عنها القائمون عليها بأنها غير قابلة للغَرَق فغرقَتْ في أعماق المحيط الأطلنطي في أول رحلاتها، وغرق معها أكثر ركابها الذين أدرك حظُّهم وجاههم ومالهم الحجْزَ على رحلتها الأولى.

ولكن (مايكل أنجلو) مدينة عائمة فيها محطة تِلْفاز (لم توجد الفضائيات ذلك الوقت) ومحطّة كهرباء تكفي مدينة متوسطة، وفيها: عشرة طوابق وبضعة عشر مصْعدًا، وفيها أكثر

من روضة أطفال، وثلاث بِرَك للسِّباحة، وملاعب وملاهي مختلفة، وفيها دار للسّينما تُفْتح ثلاثة مرّات في اليوم، وتُقَدِّم فطورًا وغداء وعشاء ورابعة خفيفة بينها، وأحْصَيْتُ وقتَ تناول الطّعام في اليوم فوجدته ستّ ساعات تقريبًا، وحتى لا يبقى فراغ تُصْدِر السّفينة جريدة يوميَّة؛ كلّ ذلك مجّانًا.

وخُصِّصَت لنا غرفة نظيفة بحمَّام خاصّ، وسريرين مترادفين للكبار ومثلهما للولدين. وبدأَتْ حياتنا في السّفينة بالتَّدريب على الغَرَق (مْعَزّيْ سلامات) بل النّجاة منه، وما حيلة العبد الضّعيف والحال أنّه (لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم).

ولم أجِدْ وقتًا للقراءة إلاّ شيئًا من كتاب الله اعتدتُ عليه كلَّ صباح منذ أن دلَّني عليه زميل في سفر سابق مع أنّه لا يُعَدُّ من أهل الدِّين، ومضت الأيام السَّبعة وكأننا لم نلبث في السّفينة إلا عشيّة أو ضحاها، والحمد لله أن لم يجعلها سبع ليالٍ وثمانية أيَّام حسومًا.

ونزلنا في (نابُلي) ـ مِثْل الغَجَر ـ بثيابنا القليلة ومتاعنا القليل في الأكياس الثلاثة. والغَجَر من أكثر الناس مَرَحًا وأقلّهم هَمًّا (قَلَّ متاعهم فقّلَّ همّهم عليه في وجوده أو فقده) وليس لهم حدود دنيويّة تعوقهم عن التمتُّع بالحياة (ولا دينيّة للأسف لأنَّهم لا يُدْعون للدِّين الحقّ، ولكنّي عرفت منهم مَنْ هداه الله إلى

الدِّين والدعوة إلى الله على بصيرة). وأصولهم في أغلب الظنّ غير عربيّة (تفضحهم عيونهم) وهم لا يُقَاتِلون ولا يُقَاتَلون وحياتهم تقوم على المسالمة والتَّعايش مع من حولهم وتبادل المصالح، وكانوا في الماضي (في جزيرة العرب) يختصُّون بالمهن التي كان العرب يأنفون منها (واليوم يُطالِبون بمنافسة الغَرْب عليها)، وأظنّ أنّ الله لم يؤهِّلهم لها؛ بل لما هو خير منها: الدِّين والدعوة على منهاج النّبوّة، فبعث الله خاتم رسله منهم، وأنزل كتابه بلسانهم، وقَبْل ذلك بنى بيته الأكثر بركة وقداسة على أرضهم، ثم أضاف إليه بيتًا من بيوته يليه في البركة والقداسة: مسجد النّبي ﷺ، ولكن أكثرهم لا يَعقلون.

ويقال: بأن ربطة العُنُق (كرافات) في اللباس الغَرْبي نشأت من فَرْضها عليهم تمييزًا لهم حَذَرًا مما يُتَّهَمُون به من السّرقة وغيرها، وأحَبَّها النّاس مِنْ حبّهم لمَرَح الغجَريّ ولهْوِه فاقتدوا بهم شيئًا فشيئًا، ولا علاقة لها بالصَّليب قَطْعًا.

ويظنّ بعض العرب أنّهم جاؤوا من نسل أوروبيّ صَليبيّ وربما تولّد هذا الظّنّ من تسميتهم (صَلب)، ولكنّ الغربيّين يظنّون أنهم انحدروا من أصل آسيويّ، وقد يكون هذا الظنّ أقرب إلى الصواب، فأشكالهم أشبه بأهل شبه القارّة الهنديّة، وفي الباكستان طائفة وثنيّة يدَّعون أنّهم من بقايا جيش الإسكندر المقدوني.

وكلمة غجري (GYPSY) مرادفة للفظ: مَرِح في قاموس (أكْسْفُرد) أو: جذّاب أو لعّاب.

❁ ❁ ❁

(العودة إلى المملكة المباركة)

ف ـ بعد عودتي من الدّراسة باسم العمل أو العمل باسم الدّراسة عُرِض عليّ العمل في عدة وظائف، واختار الله لي بفضله ثم باهتمام الأمير/ خالد بن فهد بن خالد آل سعود (وكيل وزارة المعارف): إدارة الإدارة العامّة للتّعليم الثانوي بالمملكة المباركة ابتداء من عام ١٣٩٢. وانصرفت أوّل الأمر عن أسفار الخارج إلى أسفار الداخل، فجُبْتُ الأرض المباركة طولاً وعرضًا أزور المدارس الثانوية وإدارات التّعليم أعرض فكرتي في الإصلاح على الطّالب والمعلّم والإداري، وكان الإداري أضيقهم صدرًا بذلك؛ فلم يتعوّد إلاّ أن يأمر فيطاع ويؤمر فيطيع ضمن الحدود المألوفة والطّرق المحفورة وفي الخروج عنها خطر الضياع.

وكان سفري دائمًا بالسّيّارة على طُرُق غير معبّدة غالبًا، ولأنّها متشابهة فلنكتفِ بذكر مثال واحد لها: السّفر من الرّياض إلى عسير وجيزان (مرورًا بالمدارس الثانوية على الطّريق) وقد قطعْتُ هذا الطّريق مرّتين قبل سفلتته، وكان المسافر لا يكاد

يخطئ سوقًا من أسواق عسير بثقافته وعاداته وأشكاله وألوانه المتميّزة، وكنت أحرص على الاستزادة من معرفة حال أهلي وبلادي كما كنت أحرص على الاستزادة من معرفة حال الآخرين وبلادهم من قبل أو أكثر.

وأثناء وجودي في أبها دعانا وكيل أميرها إبراهيم البراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ للغداء في (السّودة) مع اثنين من كبار العلماء في المنطقة، وفي الطريق بصحبة مدير التعليم رَحِمَهُ اللَّهُ استوقَفَنا مدرِّسٌ أردنيّ وألحَّ علينا أن ندخل منزله في القرية التي يعمل فيها، فوعدناه بإجابة دعوته في طريق عودتنا من (السّودة)؛ وجاءنا وكيل الأمير كعادته بذبْح عظيم أثابه الله لن يأكل منه الضيف إلاَّ قليلاً، ولكن أكثر العرب لا يعرفون من الكَرَم إلاَّ ما يُطْبَخ في القِدْر ويوضع على المائدة للأكل، أو للزِّينة والتكاثر وهو الأهمّ.

وعدنا إلى المدرِّس الأردني الحريص على دخول مدير التّعليم منزله، ونبّهناه إلى أنّنا أخذنا حاجتنا من الطعام والشراب ولا حاجة لنا إلاّ الجلوس معه والاستفادة من معلوماته عن الحياة في القرية المنعزلة التي يبدو أنّها لم تتغيَّر منذ آلاف السّنين ولا ينتظر أن تتغيَّر إلاَّ بوجود الكهرباء وطريق الإسفلت وهما قادمان لا محالة، فلنغتنم هذه السّانحة قبل أن يأتي جيل جديد لا يعرف شيئًا عن الماضي ولا يشكر أحدًا على الحاضر (لا الخالق ولا المخلوق)، وقابل مُضِيفُنا الطّلب بجدِّيّة وقادنا إلى مزرعة صغيرة مجاورة يَزْرعها بجِدٍّ رجل وامرأته تحمل

طفلاً على ظهرها وطلب منا الانتظار خارج المزرعة حتى يُبْلغ أهلها خبَرنا (قال: هذه عادة النّاس هنا) ورأيناهُ يُكَلِّم الرجل قليلاً فيضع أداة الزّراعة على الأرض، ويومئ إلى امرأته فتترك الزراعة وتَذْهب إلى المنزل، ونمرّ على صخرة مستطيلة فيمدّ يده تحتها ويستخرج شيئًا من العسل فاتح اللون ويقول: (هذا من العسل الجديد) ثم يمدُّ يده أبعد فيستخرج عسلاً داكن اللون ويقول: (هذا من عسل العام الفائت) وتبعناه إلى منزله المتواضع، ولم نكد نستقرّ في المجلس حتى أحضر العَسَل بلونيه ومعهما الخبز الشعبي من القمح يكاد يلتهب من الحرارة مما يوحي بأن التّنور والعجين مهيّأ للخَبْز دائمًا. وأكلتُ كأنّي لم أجلس على مائدة وكيل الإمارة وذِبْحِه العظيم قبل نصف ساعة، واكتفى زملائي بالمراقبة لأنهم أكلوا الفطور قبل الغداء ويعتزِمُون الأكل بعده على العَشاء. أمَا أنا فتكفيني أَكْلة واحدة كما كان النّاس يفعلون منذ القرن الأول إلى ما بعد منتصف القرن الرّابع عشر يوم وَصَلَت موضة الأكل الحديث المُقَنّن بأنواعه وأسمائه وأوقاته فاتّبعناها «شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حذو القذّة بالقذّة وحذو النعل بالنعل»، وليت الاقتداء قَصُر على أمر الدّنيا بل طغى على الدِّين.

واستشارني مدير التعليم رَحِمَهُ اللَّهُ في أمر مدرسة ابتدائية على بعد ٩٠ كيلاً من أبها (لأبناء بدوٍ من بني ثعلبة) في قرية (الحيمة) لم يعرفوا الكهرباء ولا استعمالاته ولا الإسفلت ولا الجرايد (الزّفت) ولا كرة القدم، ويأتي بعضهم يمشي سبعة

أكيال يوميًّا، ومدرِّسوهم من خريجي المعاهد الأزهرية الثانوية. ولكنّهم جميعًا يُنْهُون دراسة مقرراتهم خلال شهرين بينما يجأر أمثالهم في المدن من طول المقررات وكثرتها وثقل حملها، أمّا زميلي سعد أبو معطي رَحِمَهُ اللَّهُ فلم يهتمّ بالأمر لأنه مسؤول عن التّعليم المتوسط فقلت: (أَنَا لَهَا) لأنّي أرى أنّ الإصلاح واجب على المسلم مطلقًا حسب استطاعته بصرف النّظر عن حدود مسؤوليته الرّوتينيّة، وعاد زميلي إلى الرّياض، وأقمْت بضعة أيام في المدرسة بين معلمي المدرسة وطلّابها وأهل القرية لأتثبّت من الأمر وأتبيّن حدود المشكلة ثم أتعاون مع الجميع على اقتراح عدّة حلول تختار الوزارة أحدها.

وحصلت على أكثر مما أَسْتَحِقّ من حفاوة ومودّة الجميع، أَكَلْت من خبز المعلمين بأيديهم لأنّه لا يوجد مخبز ولا بقالة في المنطقة، وأَكَلْت (الدّغابيس) مع الأهالي، ولم أستسِغْ أمرًا واحدًا لعلّ بعض البادية تعلَّموه من الحَمَام: إظهار المودَّة بتبادل القُبَل من الفم إلى الفم (ومِنَ الحُبِّ ما قَتَل) أو لعلّه تطوُّرٌ لعادة آخرين: القُبَل من الأنف للأنف (وهي أهون، بشرط ضخامة الأنف مثل اليهودي والفلسطيني والإيراني)، ولم يرَ النبي ﷺ التّقبيل لأمّته ولم يفعله إلاّ نادرًا.

ورأيت أنّ أيسَرَ حلٍّ للمشكلة: تَرْك المخلوق لفِطْرة خالقه بإزالة الحواجز المصطنعة المستوردة عن التّعليم والمتعلّم والمعلّم، كما كانت الحال في عصر النبوّة والصّحبة والاتّباع حتى منتصف القرن الرّابع عشر عندما وصَلتْ موضة التعليم

المقنّن لبشرٍ غير مهيَّئين للتّقنين؛ فاتّبعناها بغير شرع ولا عقل. ووافق وزير المعارف على إزالة الحواجز التّعليميّة لأطفال هذه المدرسة سنة دراسيّة واحدة، فشكرتُه على ذلك فلم أتوقّع منه ذلك ولو لسنة واحدة.

ثم أَسَّسْتُ مدرسة في الرّياض للتعليم الابتدائي والمتوسّط تزال منها الحواجز التقليديّة بحيث تتَّسع للفَرْق بين طالب وبين طالب آخر؛ بل بين الطّالب نفسه في مادة دراسيَّة وبينه في مادّة أخرى، ووافَقَت الوزارة بفضل الله ثم بفضل الأمير خالد بن فهد بن خالد آل سعود وكيل الوزارة وجُرْأته وثقته، ولا تزال حيّة بعد نحو ثلاثين سنة وإن كانت أشبه بحياة المريض تحت خيمة الأوكسجين.

وكنتُ أسافر من أبها إلى جيزان بطريق (عَقَبَة ضِلع) قبل تعبيدها، وأعرف مِنْ فَقَد حياته من أهل التعليم أثناء سفره بطريقها، فهي عقبة وهي أم العقبات، إلَّا أنّها الطريق المناسب للمَعْز، ورعاتها من النّساء أكثر من الرِّجال، وللقرود قبل أن يتعلَّموا التّسوُّل والكسل من شباب الفراغ والجِدَة، أو يكتشفوا حاويات الزِّبالة.

ثم ننحدر في وادٍ طويل بين جَبَلَيْن، ونَمُرُّ بين حين وآخر (بالغَيْل) يذكّرنا بمجنون لَيْلى ورُوَاة شِعْرِه مع السُّمَّار على (الغيل بالليل) كما يتخيَّلهم شوقي تجاوز الله عنه.

وفي سفرٍ سابق سلكتُ طريقًا أقرب إلى أن يكون من مرابع ليلى ومجنونها، من: (ليلى) في: (الأفلاج) إلى: (وادي الدّواسر) مرورًا بـ: (الغَيْل) ومعالم كثيرة كأن شوقي قد زارها قبل أن يكتب روايته الشعرية الجميلة: (مجنون ليلى). ولكنَّ محاولة العودة من (جيزان) إلى (مكة المباركة) بطريق السّاحل قبل تعبيده تجربة مريرة تنسيك الشعر والشعراء وتُفقدك مُتْعة السّفر.

ولأن أكثر الطُّرق أوّل الأمر غير معبَّدة كنت أستعير من وزارة المعارف جيب (تويوتا) يعين على تخطِّي العقبات (الرّمال بخاصة)، ومرّة كنت أعبر بحار وجبال الرّمال بين (ضرما) و(القويعيّة) على وَجَل رغم قوّة السّيارة وملئها بالمتاع والطّعام ومعي صديق أكبر منِّي سنًّا سبق له السّفر في الصحراء على ظهور الجمال وسيارات النقل، وفي بُقْعة خالية من البشر والحيوان رأينا بدويًّا شابًّا يسير وحده بلا زاد ولا متاع غير ثوبه وغترته وشِبْشِبه، فعرضنا عليه الركوب معنا حتى يفترق طريقانا لنأنس به ونعرف خَبَره، فَظَهَر لنا أنّه لم يَكَدْ يبلغ الحُلُم، وأنه في طريق عودته بعد أن أوصل ثروة العائلة من الإبل إلى المرعى الجديد ليوصل ثروة العائلة من الغنم إلى أهله: سعوديّ يعيش على الفطرة حرَّره الله من الخوف بثقته في نفسه وثقة أهله به، وبالعمل لمصلحة نفسه وأهله خاصّة وأمّته عامّة، وفي هذه السِّنّ يبدأ (هو أو) سعوديّ آخر دراسة المرحلة الثانوية والأخيرة

من مراحل التّعليم العام، أيهما تربّى وتعلّم ليحقّق فطرته وذاته ويستعمل ذكاءه وقدرته على الإفادة والاستفادة بالتّدرُّب على العمل فور قدرته على التدرب والعمل؟ وأيّهما سيؤجّل الإفادة والاستفادة وخدمة نفسه وأهله وأمّته بحجّة الاستعداد لذلك ويقضي عدد سنين في قليل من الدّراسة النّظريّة وكثير من العبث المنظّم وغير المنظّم عالةً على الأهل والأمّة، وسيحرص غالبًا على اختيار وظيفة حكوميّة تهيئ له البطالة باسم العمل؟

❁ ❁ ❁

(السفر إلى اليمن)

ص ـ وفي عام ١٣٩٢ سافرت إلى اليمن عضوًا في وفد المملكة المباركة إلى اجتماع وزراء التّربية والتّعليم العرب في صنعاء، ولأن اليمن في ذلك الوقت لم تغزها الحضارة الغربية والشرقيّة بمبانيها الحديثة، بل لم يكن فيها غير طريق واحد مسفلت إلى تعز، ومصنعًا للنسيج أنشأَتْهما الصّين الشيوعيّة، فقد تمَّ إيواء أعضاء الوفود في القصر الجمهوري (الملكي سابقًا) وهو مبنيّ من خمسة طوابق بالطّريقة اليمنيّة القديمة المتميّزة.

١) لَبِسَ جميع العاملين اليمنيّين في المؤتمر اللباس الإفرنجي، ووُظِّفَتْ في مكتب الاستقبال في المؤتمر فتاتان

يمنيَتان مكشوفتا الوجه (دليلاً على التقدّم والتطوُّر) مع أن جميع العاملات في مصنع النّسيج محجّبات أو منقّبات. وللمحافظة على شكل الحياة في الشرق والغرب كانت ضيافة المؤتمر لنا ملتزمة بالنّمط الإفرنجي. فطلَبْتُ من مُضَيِّفينا مقابلة الطّباخ في القصر لشكره، وقد تعلّمت من والدي سنّة النّبي ﷺ في الاهتمام بخادمه، وكان والدي رَحِمَهُ اللَّهُ يرفض الأكل إلا بمشاركة الخادم والعامل، فأخذت منه عادة دعوة الخادم أو النّادل إلى مشاركتنا الأكل في أيّ منزل أو مطعم، مع علمي بأنه في الغالب لن يقبل التزامًا بالتقاليد الحديثة المستوردة، ولكني تعلَّمت أيضًا من وظيفة الدعوة إلى الله وهي الأهم والأعظم أنّ على العبد المحاولة وعلى الخالق وحده النتيجة. شكرتُ الطّباخ (أو رئيس الطّباخين) وطلبت منه مشاركتنا فيما صَنَعَتْ يداه ما استطاع، وطلبت منه (وهذا مهمّ كذلك) أن لا يحرمنا الأكلات اليمنيّة فهي خير وأحبّ إلينا من الأكلات الإفرنجية التي سنُلزَم بها في بلادها، وفوجئ بالشكر وفوجئ بطلبِ الأكل اليمنيّ فلم يتعوّد أيًّا منهما فيما بدا لنا منه. وفي اليوم التّالي توسَّطت المائدة قصعَة الحلبة الخضراء، جزاهم الله بهداه وتوفيقه، وأعاذهم من ذلّ التقليد بلا حاجة.

٢) زُرْنا سوقًا قديمًا في صنعاء لا تكاد تَرَى فيه إلَّا خنجرًا أو غمده يُصْنع ويباع، ولمحت طفلاً في السابعة من عمره تقريبًا عائدًا من المدرسة يحمل حقيبة الدراسة يمشي باتِّزان وهدوء غير معتادين في الأطفال مثله، جاء إلى مَتْجر أبيه

فوضع حقيبته وأخَذَ غِمْدًا يُكْمِل فيه عَمَل يوم سابق بكلّ استغراق، ولما نبّهت زملائي لهذا المنظر الفريد قدّم له أحدهم ريالاً فأخذه ووضعه في جيبه وعاد إلى استغراقه في عمله مما يوحي أن مجرّد العمل والإنجاز أهمّ له من اللعب والمال.

٣) وطلب منّي رئيس الوفد الأمير خالد بن فهد آل سعود وفقه الله أن أعِدَّ خطاب الوفد للمؤتمر فاشترطت ألاَّ يكون روتينيًّا تقليديًا فقبل الشرط بل أيَّده، فجعلت موضوع الخطاب: الطّفل اليمني وصناعة الخناجر والأغمدة كما شهدناها، ثم ختمْتُ الخطاب بسؤال عن تأثير التعليم العصري على هذا الفنّ الجميل المفيد وعلاقة الطفل به، هل سينمّيه ويطوّره أو يقضي عليه، بما في ذلك علاقة الابن بالأب؟

٤) وعند صياغة توصيات المؤتمر اقترح رئيس الوفد السعودي الأمير خالد بن فهد بن خالد آل سعود (وهو من خير من تولى قيادة المؤسّسة التعليمية السّعودية للبنين) تنقية مناهج التعليم في البلاد العربيّة من الأفكار الأعجمية المستوردة مثل الاشتراكيّة، فردّ عليه رئيس الوفد السّوري: لماذا لا تزيلون فكرة الرأسماليّة من مناهجكم؟ فردّ عليه الأمير خالد ردًّا مُفْحِمًا: إذا وجدت كلمة الرأسماليّة في مناهجنا فأنت مفوَّض لإزالتها.

وطالب رئيس الوفد السّعودي بأن تكون التّوصية الأولى

خاصّة بتركيز المناهج المدرسيّة العربيّة على نشر دين الإسلام وَفْق نصوص الوحي وفقه الأئمة الأُوَل في الدِّين، فتشبّثَ رئيس الوفد السّوري بالمخالفة مطالبًا بتقديم العروبة على الإسلام، وضاق رئيس المؤتمر بالاختلاف لأن أهمَّ مطلب هو الاتِّفاق (مثل الوحدة والتَّعاون) ولو على غير تقوى.

ومع تأييدي لموقف الأمير خالد وشكري لله ثم له؛ لم أرَ إحراج المضيف، لأن توصيات كل المؤتمرات بَقِيَت حِبْرًا على الورق الذي أرسل منذ انتهاء المؤتمر (وكلّ مؤتمر لا يخدم مصلحة خاصّة فرديّة أو حزبيّة) إلى خزائن المحفوظات، أمّا إذا كان يخدم مصلحة فرديّة أو حزبيّة فما أسرع التّنفيذ، ومنه نشأت: (النّدوة العالميّة للشباب الإسلامي) و(هيئة الإعجاز العلمي للقرآن) و(رسالة المسجد) وكلّها يستغلّها حزب الإخوان المسلمين ولا خير فيها للإسلام ولا للمسلمين، ومثلها كثير. هذا ما ظهر لي من كلّ المؤتمرات التي حضرتها بلا استثناء، إلاّ أنّه قد تنفّذ توصية بمتابعة بعض التّقاليد في الدّول الصّناعية كما حدث بعد سنين عديدة من إنشاء منظمة الثقافة والتّربية والعلوم الدّولية فقلّدَتْها (شكلاً) الدّول العربية فأنشأت منظمة عربيّة، ثم الدّول الإسلاميّة فأنشأت منظمة وصفتها بالإسلاميّة، وكان الاكتفاء بالمنظمة الدّولية أقرب إلى الواقع والمنطق.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى اليابان ودول آسيوية أخرى)

ق ـ وفي عام ١٣٩١ سافرت إلى اليابان عضوًا في وفد المملكة المباركة في مؤتمر اليونسكو، وقد عُقِد المؤتمر في فندق (طوكيو برنس) وفيه نزل أعضاء الوفود، ومع أنه من فنادق الدّرجة الأولى فقد تميّز عن كثير من الفنادق الغَرْبيّة بميزتين:

١) أن للمقيم فيه أن يختار غرفة على النّمط الياباني القديم لمعرفتهم أن الزّائر يهمّه أن يتعرّف على الثقافة المحليّة ومنها الطريقة اليابانية العريقة للحياة المعيشيّة.

٢) أن عددًا من دورات المياه العامة في الفندق زوّدت بمقاعد شرقية ويُسَمِّيها الإنكليز (فرنسيّة)، واليابانيون معتادون على استعمالها في بيوتهم منذ القدم بل وفي قطاراتهم، والغربيّون بدأوا يستعملونها في الأماكن العامة منذ ظهر وباء الأيدز خوفًا من العدوى.

٣) وكنت قبل سفري من الرّياض اتّفقت مع أمريكيّ من أصل ياباني على تيسير إقامتي بعد نهاية المؤتمر في منطقة نائية عن المدن الكبيرة وعن الحضارة الوافدة، وهذا الرّجل يقوم على تعليم طلّاب البعثات السعودية في أمريكا اللغة الإنكليزيّة تمهيدًا لدخولهم الجامعات (إذ أنّ دراستهم الإنكليزية في المرحلتين المتوسّطة والثّانويّة لا قيمة لها، وأعجب من رغبة

القائمين على التّعليم تعليم الإنكليزية في المرحلة الابتدائية مجرّد تقليد شكلي مكلف).

٤) وقد شاركنا في المؤتمر (شكليًا) وكالعادة لم أرَ فيه جديدًا غير أن القائمين على المؤتمر من اليابان رأوا من باب الاحتفاء بالمؤتمر ووفوده أن يُرُوهم ملكة جمال اليابان يُغَطِّيها الكثير من موادّ التجميل بحيث لو أصابها المطر لنَقصَ وَزْنها ولربّما ظَهَرَتْ صورتها الطّبيعيّة فكانت أحْسَن: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

٥) وَفْقًا لترتيب أعدّته الإدارة المحليّة لولاية (شيكا) اليابانية ركبْتُ القطار السّريع إلى منطقة تبعد (٦٠٠كيل) فلم يتجاوز وقت السّفر إليها ثلاث ساعات، إذ أنّ هذا القطار هو أوّل أسْرَع القطارات في العالم، فاستحقّ اسم هيكاري، أي: الضوء.

٦) استقبلني في المحطّة ممثل للإدارة المحلّيّة وصحبني بالسّيارة إلى قرية صغيرة وإلى نُزُل فيها صغير يتميّز ببنائه وتأثيثه بما يقرب من نمط الحياة اليابانية الأولى. فالغُرفة فيه يمكن أن توصف بالوصف الحديث: (متعدّدة الأغراض) فهي مجلس نثرت فيه بعض الوسائد (لا الكراسي) ويقدّم فيه الطعام في حينه، فإذا أقبل الليل أُخْرِجَتْ فُرُش النّوم من خزانة في الحائط بكلّ يُسْر وبلا شيء من التكلُّف.

٧) وزارني مدرّس اللغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية

القريبة يبيّن لي ما يخفى عليّ من عادات القوم وأدواتهم وأخلاقهم، ويبيّن لهم ما يخفى عليهم من حاجاتي وأحوالي: الأرض مفروشة بنوع من الحُصُر المصنوعة من نبات الرّزّ تشبه ما كان يُصْنع في الأحساء، إلَّا أنّ هذه أدقّ صَنْعَة بل هما حصيران (أو مَدَّتان) بينهما طبقة من الإسفنج تبلغ (٣ سم) لتقي من برد الشتاء القارس. ودورة المياه كبيرة نِسبيًا، وأكبرها قسم الاغتسال، وينقسم إلى مكان للتنظيف بالماء والصابون من صنابير في الجدار، وإلى حوض في الزّاوية مملوء بماء حارّ جدًّا لا يجعله مُحْتَمَلاً إلا العادة، وهذا الحوض ليس للنظافة بل يجلس حوله الرجال ثم النّساء (بعدهم) لتبادل الأحاديث قبل تناول طعام الغداء، ويقال: إنّ ولاة وأثرياء العرب في العصر الأموي والعباسي كانوا يعقدون جلسات المذاكرة (الأدبية بخاصة) في حمَّاماتهم، وبعد انتهاء النّساء من إعداد الطّعام يخرج الرجال اليابانيّون من الحمام إلى مائدة الطعام ويستعمل النساء فضلتهم من الماء ثم من الطَّعام بعد ذلك، فالرّجل الياباني يسبق المرأة إلى كلّ حقّ وللمرأة بعده ما يبقى. على أن اليابان الحديثة (بعد الحرب العالمية الثانية بخاصّة) مع كلّ تطوّرها وتقدّمها التّجاري والتّقني مهزومة ثقافيًا واجتماعيًا كما هُزِمت عسكريًا، فالثقافة الغربيّة هي الغالبة في اللباس والعادات والتقاليد واللهو رغم عراقة اليابان وحداثة الغرب، ولم يبقَ من ماضيهم إلا ما يباع للسيّاح.

٨) كان ممثل الإدارة المحلّيّة يزورني بين يوم وآخر ويشاركنا الطعام ويحاول ألاّ يفوتني شيء من أنماط الحياة اليابانية الخاصّة المنقرض منها والباقي؛ مِنْ عبادتهم للطّبيعة والأسلاف وفقًا لديانة (شِنْتو) الوثنيّة القديمة أو عبادتهم للأصنام البوذية التي وصلت اليابان منذ (١٥ قرنًا)، إلى طُرُق عَيْشهم في اللباس والزّواج والبِنَاء والزّراعة، ولم يَنْس أن يريني مغرفة خشبيّة ضخمة ظنَّ أنّني لم أرها من قبل (وصدق هذه المرة) يُسْتخرج بها فضلات دورات المياه لسماد حقول الأرز، وحمدت الله أنّا لا نأكل الرّز الياباني. واليابان واقعة على أربع جزر كبيرة ونحو (٣,٠٠٠) جزيرة صغيرة تمتد على شكل هلال طوله (٢,٢٥٠كيلاً)، مساحتها: نحو (٣٧٢,٠٠٠ ك.م) قريبًا من ١/ ٦ السّعودية.

أكبر مدنها ومدن العالم: (طوكيو) يعيش في مركزها (٩ ملايين) وفي حدودها الأوسع نحو (٢٥ مليونًا) من البشر، وفي اليابان كلها نحو (١٢٠ مليون نسمة).

٩) أَشْهَر منطقة في طوكيو (كينزا) يقصدها السّيّاح للتّسوُّق والترفِيه، وفيها أكبر محطّة قطار في العالم يوصل إليها (٤٨ بابًا)، وتضيق بالمسافرين والقادمين (عند بدء العمل ونهايته بخاصّة) حتى تتذكر يوم الحشر فتطلب من الله الرحمة والثبات. ومع أن اليابانيّين (الشباب بخاصّة) يميلون إلى محاكاة الغربيّين في اللباس والعادات، في الجدّ واللهو؛ فاليابان متميّزة

بأجسام أهلها ويُعْتقد أنّ أكثرهم جاء من بلاد مجاورة: الصِّين، وكوريا، وسيبيريا وربما الفلبّين، وجاءتهم الوثنية من الصّين وأخذوا لغتهم من الصّين أيضًا. ويبيعون السّياح بعض عاداتهم القديمة مثل إعداد الشاي (الثقيل) وتقديمه، ومثل خدمات (الكيشا).

١٠) بعد زيارة قصيرة (لأوساكا وهِرُوشِمَا وكيوتو) من أكبر وأشهر مدن اليابان بعد طوكيو، وبخاصّة هِرُوشِمَا التي كانت أول مدينة تُضْرَب بالقنبلة الذريّة ولا تزال منطقة منها سُمِّيت حديقة السّلام تذكّر بالدّمار الذي أصِيبَ به ٩٠٪ منها وإصابة (١٣٠,٠٠٠) من سكانها عام ١٩٤٥ ولم تُصَبْ بمثله أو قريبًا منه غير (نكازاكي).

بعد هذه الزيارة؛ ركبْتُ الطائرة إلى (تايْبي) عاصمة (تايوان) أو (فرموزا) كما سمّاها محتلّوها الأوائل البرتغاليُون، وهي جزيرة صغيرة (٣٦,٠٠٠ ك.م) يفصلها عن برِّ الصِّين (١٦٠ كيلاً) ويسكنها نحو (٢٠ مليونًا). وقد لجأَتْ إليها حكومة الصّين الوطنيّة برئاسة (كاي شِكْ) بعد تغلُّب الشيوعيين عليهم وطردهم. وكلّ شيء فيها للبيع بما في ذلك الفواحش، بينما يُحَرِّم الشيوعيون مجرَّد التّبرّج. وقد غَزَتْ منتجاتها الصّناعية الخفيفة كلَّ مكان حتى محميّات الهنود الحمر في أمريكا التي يُفْترض أنها تجتذب السّياح بعاداتهم وتقاليدهم وصناعتهم القديمة.

١١) اتّصلْتُ بالسّفارة السّعودية (التي بقيَتْ بعد أن احْتَلَّت الصِّين الشعبيّة مقعدها في الأمم المتحدة، بل زارها الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ ثباتًا على العهد) ولم أكن حريصًا على زيارة العاملين في أيّ سفارة لأنّي لا أوفّق عادةً في الحصول منهم على نتيجة طيبة أو أنّهم لا يوفقون إلى تحقيقها، ولكنّ جواز سفري صادر من وزارة الخارجيّة بصفتي موظفًا حكوميًّا ولن أحصل على تأشيرة لدخول أيّ بلد في العالم إلّا بطريقهم، وردّ على هاتفي الأستاذ زين الدّين الدّبّاغ، وكان حديث عهد ببلوى أصابته عوّضه الله بموت زوجته وابنته في حادث تحطّم طائرة ركبتاها إلى (هونك كونك)، فأخْبَرَني أنّه لن يتمكّن (هذه المرّة أيضًا) من قضاء حاجتي ولكني سأحتاج إليه في أمر آخر: الإعصار متّجه إلى الجزيرة وكالعادة ستنقطع أسلاك الكهرباء والهاتف وأنابيب الماء، ولن يكون الفندق آمنًا، فقبلت شاكرًا دعوته للإقامة معه في منزل السّفير حتى ينجلي الإعصار، ولم يكُ يشاركه منزل السّفير غير خادم وخادمة. وجاء الإعصار وتوقّفت الخدمات كافّة في تايوان التي تُعِين العالم ببيع الصّناعات الخفيفة بأقلّ الأسعار (باب النّجار مخلّع)، وعرّفني ببعض اللبنانيين العاملين في طيران (TMA) للشحن، كانت طائراتهم تأتيهم برزقهم رغدًا من لبنان: المرقوق (القرصان) وجبنة حلّوم وكنافة (عصملّيّة) من مرّوش. و(TMA) أوّل شركة طيران للشحن حول العالم أنْشَأَها رجل كان يعمل في شركة

(أرامكو) قبل أن تصير سعودية ١٠٠٪، وكان مسؤولاً عن توريد الخضروات والفواكه للشركة من لبنان، وبدلاً من الاستمرار في استئجار طائرة على حساب الشركة للنّقل من لبنان إلى الظهران عَرَض على الشركة أن يتعهَّد بتوريد حاجاتها على حسابه، فوافَقَت ـ كعادتها إفادة الرّاغبين والقادرين على الاستفادة ـ على عرضه فاستأجر طائرة على حسابه، ثم تنبّه إلى كثرة غَلْق الحدود العربيّة العربيّة والعربيّة الأعجميّة (بسبب الخلافات السياسيّة) والحاجة إلى النّقل الجوّي، فاستأجر طائرة أخرى ثم أخرى ثمّ أسّس شركته التي لم يكن لها منافس يومها يتولى النقل الجوي حول العالم.

١٢) وركبْتُ الطّائرة من (تايبي) التي تشبه (هونك كونك) من أكثر من وجه إلى (جاكرتا) وطلبْتُ النُّزول في نُزُل ذي طابع إنْدُنيسي فأقلَّتْني سيارة أجرة إلى نُزُل مبنيّ ومؤثّث بالخيزران (غالبًا)، ولكني ضقت به وضاق بي مع أنّ من عادتي تحمّل العيش في أيّ مكان، كانت المجاري المكشوفة تؤذي النّظر ولا بدّ أنها تؤذي الشمّ لمن ابتلاه الله به (غيري)، وبحثت عن مكان للتّسلية فلم أجد غير (كازِنُو للقمار)، وقد يسلّيني أيّ شيء غيره بفضل الله، والإنْدُنيسيّين (مع تهذيبهم ونظافتهم وحسن معاملتهم) يأكلون الطّعام حارًّا جدًّا مما يضيفون إليه من الفلافل، ويشربون الشاي فاترًا، وهم مُبْتَلَوْن بلوثات التَّصوُّف، وربما جاءهم به تجّار حضرموت وإن كان أصله من وثنيّة الهند

غالبًا. ولا يكاد المسجد في هذه البلاد يخلو من الطّبل؛ يُدَقّ إيذانًا بدخول الوقت إضافة إلى الأذان.

وإندُنيسيا: رابع أكبر بلد في العالم من حيث عدد السّكان (بعد الصّين والهند والولايات المتحدة الأمريكيّة) وتقع على أكثر من (٣,٠٠٠) جزيرة تمتدّ على خطّ الاستواء، وعلى هذا يكثر فيها المطر، وجوّها استوائي، ومساحتها واسعة، وتربتها خصبة، وإلى جانب إنتاجها الضخم من النّفط تُنْتج المطّاط والقهوة والرّزّ وغيرها، ومع ذلك فهي خاضعة غالبًا لتأثيرٍ أو حكم خارجيّ؛ فمنذ (١٤) قرنًا تأثّرت بالحضارة الهنديّة الوثنيّة إلى أن سيطرت عليها الممالك البوذيّة والهندوسيّة الوثنيّة، وقبل (٥) قرون وصل إليها الإسلام، ولكنّه (للأسف) وصلها مع التجار العرب (وهذا ما يفخر به الإسلاميّون الحركيّون لجهلهم بالدّين) ولم يَصِلْهم مع العلماء أو الدعاة إلى الله على منهاج النّبوّة (وهم حَمَلة الدّين الحقّ)، ولذلك يَجْمعون بين الطّبل والأذان وبين الهوى والوحي وبين البدعة والسّنّة وبين الشرك والتوحيد وبين الضّلال والهدى.

وهذا هو (الإسلام اليوم) الذي يدعو إليه قادة الفكر الإسلامي الضّالّ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] بدعوتهم إلى التّعدُّديّة والصّفاء النّفسي وقبول الرّأي والرّأي الآخر، وإفساح المجال واتّساع الصّدر في الجماعة الواحدة

للجماعات، وفي الحزب الواحد للأحزاب، وفي المنهاج الواحد للمناهج، بلا ضابط من نصوص الوحي ولا من فقه أئمة الدّين في القرون المفضّلة، ولا اتّباع لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ولا طاعة لولاة الأمر منّا (علماء وأمراء). ثم استعمرتها الممالك الأوروبيّة أكثر من (٤) قرون: البرتغاليّة والهولنديّة والبريطانيّة ثم الهولنديّة مرّة أخرى حتى عام ١٣٧٠ ـ ١٩٤٩. ردّ الله الجميع إلى دينه الحقّ.

١٣) وركبْتُ الطائرة إلى (سنغافورة) وفي ظنّي أنها ستكون (لبنان: جنوب شرقي آسيا)، والواقع أنها ليست بعيدة الشّبَه بها في صِغَر المساحة وكثرة السكّان، وفي المركز التّجاري الكبير، وفي تعدُّد الأديان والطّوائف، وفي غلبة الدّنيا على الدّين. ولكنّه شبَه الغزال بالحبيبة:

فعَيْناك عَيْناها وجِيدك جيدها
ولكنّ عظم الساقِ منك دقيق

لبنان أكبر (١٥) مرّة من سنغافورة، وسكانها أكثر مرّتين إذا لم نُضِف إليهم المهاجرين، ولبنان بين اليابسة وبين البحر، وسنغافورة على جزيرة كبيرة و(٦٠) جزيرة صغيرة، ولبنان بين النّصارى وبين المنتمين إلى الإسلام، وسنغافورة بين البوذيِّين والهندوس الوثنيِّين وبين المنتمين إلى الإسلام والنصرانيّة،

ولبنان تجارية زراعيّة، وسنغافورة تجارية صناعيّة. ولبنان أكثر ارتباطًا بفرنسا، وسنغافورة أكثر ارتباطًا بإنكلترا، ولبنان عربيّة وتلك أعجميّة.

١٤) ومن سنغافورة إلى (كلكتا)، وهي المرّة الأولى التي أزورها ولعلها تكون الأخيرة؛ فهي ثاني أكبر مدينة في الهند على طَرَفها الشرقي بعد (بومبي) على طَرَفها الغربي، وفيها أهمّ ميناء في الهند، وهي المركز الصناعي شرق الهند. وسكانها خليط عجيب من الناس قد لا يجتمعون في غيرها ويتكلّمون نحوًا من (٦٠) لغة. وهي مثل (بل أكثر من) بقية الهند تشكو من الفقر وشدّة الزّحام وكثرة العاطلين عن العمل. وقد أنشأتها شركة الهند الشرقيّة البريطانية في نهاية القرن (١٧) الكريكوري وعَجَّل برحيلي عنها منظر رجل مخيف أحمر العينين ثائر الشعر رث الملبس داكن اللون، أينما توجّهتُ وسط الزّحام الشديد وجدتُه أمامي يُحدِّق فيَّ النّظر، لم أرَ السّاحر ولا الشيطان ولكنّي لا أستبعد أن يكون أحدهما أو كلاهما.

١٥) وختَمْتُ هذا السَّفر بالمِسْك؛ فزرتُ أخي الأستاذ/ أحمد القاضي في بومبي، وهو سعودي مقيم في الهند منذ عشرات السّنين يعمل بالتجارة، ومع أن ابنتيه ولدتا وعاشتا وتعلمتا في الهند وتتكلّمان الإنكليزية والهندية فإنّهما لا تتكلّمان في المنزل إلَّا العربية العامِّيّة بلهجة أهل عنيزة كأنهما عاشتا فيها. وذكر لي الأستاذ/ أحمد (رَحِمَهُ اللَّهُ) وخَلَفَه في أهله بصلاح

دينهم ودنياهم) أن أخاه (توفيق) صار عميدًا للمسرح الهندي (هنديّ الجنسيّة).

وبقَدْر ما ضقت بجاكرتا وكلكتا وضاقتا بي، اتّسَع صدري لمقامي في بومبي (رغم ازدحامها ورغم مظاهر الفقر والمرض فيها) بصحبة الأستاذ أحمد وطيب خُلُقه وكرم ضيافته (أسكنه الله فسيح جنّاته)، على غير تكلّف ولا تظاهر.

والهند بلد عظيم في مساحته (أكثر من (٣) ملايين ونصف مليون كيل.م)، وعدد سكانه (نحو ألف مليون)، وطول سواحله (٥,٦٣٠كيلاً) وزراعته وصناعته، وسَبَق الأمم وعلّمها الوثنيّة والفلسفة والثقافة، ثم سبقها فعلّمها المقاومة السِّلميّة، وطمع (محمد علي جناه) في الرئاسة باسم الإسلام (وليس لها بأهل) وحصل عليها بعد موت نحو مليون من الفئتين وانفصلت (باكستان) وبقي نصف المنتمين للإسلام في الهند، فهم (١٠٪) من سكانه، تجاوز الله عمن مات موحِّدًا.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى فرنسا وأسبانيا وبعض دول أوروبا)

ر ـ وفي عام ١٣٩٤ تذاكرت مع شقيقَيَّ الحاجة إلى وجود بيت متنقّل يحلُّ مشكلة الإقامة في السَّفر داخل المملكة المباركة (لأنّنا بفضل الله شركاء في القليل والكثير من متاع

الحياة الدّنيا كما كان أهلنا وغيرهم قبل أن يحلّ الشحّ ـ وما يُسَمّى بلغة العصر: الأنانية ـ محلّ التسامح والتّعاون)، فاشترى أخي أثناء دراسته في أمريكا بيتًا بسرير كبير فوق مقعد القيادة، ومجلس يمكن تحويله إلى مكان لنوم اثنين أو ثلاثة، ومطبخ بينهما، ودورة مياه كاملة، وخزّان للماء ينفتح بفتح الحنفيات أو الدّشّ، وخزانة للملابس، وثلاّجة وسخّان ماء على الغاز، وخزّان للمياه المستعملة. ويُحْمَل هذا البيت عند الحاجة إليه على (ونيت جمس)، وعند عدم الحاجة إليه يرفع على رافعات مثبتة على جانبيه ويُخْرج الونيت من تحته لاستعماله منفردًا، ولما كانت موانئ المملكة المباركة في بداية (الطّفرة) التي تحققت بفضل الله بعد زيادة إنتاج النّفط وزيادة ثمنه، لمّا كانت الموانئ مزدحمة بحيث لا يتيسّر تفريغ السّفن إلَّا بعد انتظار أيام وأسابيع وأحيانًا أشهر، إضافة إلى التّعقيد الرّوتيني في إجراءات الجمرك والتّسليم، طلبت من أخي شحن البيت (مع ونيته) إلى أيّ ميناء أوروبي، فتمّ شحنه إلى ميناء (لُوهافْر) الفرنسي على القناة الإنكليزية، وسافرت مع أربعة من الأهل والأولاد إلى فرنسا لم نحمل من وثائق الشحن غير اسم الشركة ورقم (بوليصة) الشحن ثقةً بالله ثم بيُسْر الإجراءات الإداريّة الأوروبيّة (قبل أن يُقَلّدها ويُعَقّدها غيرهم فيما يسمّى بالعالم الثالث).

١) في (لوهافر) تركْتُ الأهل على الرّصيف ودخلت إلى مكتب شركة الشحن، وخلال عشر دقائق وقّعت الاستلام

وخرجت بالبيت المتنقّل وفوجئ الأهل بسرعة عودتي إليهم، فشراء الخبز أو الحليب من البقالة يأخذ وقتًا أطول، فقلت: أُشكروا الله على الأصل واشتكوا إليه التّقليد؛ فالعرب لا يتجاوز نصيبهم من الحضارة التّقليد ولكنهم لا يُحْسنون التّقليد، وهم لا يُنْتجون ولا يُحْسنون استهلاك إنتاج غيرهم، هداهم الله لأقرب من هذا رشدًا.

وإن كنْتَ في شكّ من ذلك فتذكّر مكبّرات الصوت والمراوح والمكيّفات والمصابيح والثّريّات الكهربائية في المساجد (وهي قدوة) كيف تستعمل؟ وتذكّر الإدارة في المؤسّسات الشرعيّة (قبل غيرها) كيف تُنفّذ؟ وتذكّر الجوّال والإنترنت ومختلف الخدمات (الماء والكهرباء بخاصّة) مقرونة بالإسراف الذي لا يحبه الله. ومع أننا نستورد ولا ننتج فإنّنا نُحَبِّبُ المستوردات إلى المواطن بالإعلانات التجارية، حتى يَرْغَب فيما لا يَرْغب ويشتري ما لا يحتاج منذ الطّفولة حتى أرذل العمر، وكان حقًّا على المسلم شرعًا وعقلاً أن يتجنَّب الإعلان التجاري (وهو المستهلك لا المنتج).

٢) وانحدرنا جنوبًا إلى الحدود الفرنسيّة الإسبانيّة لا نسأل عن فندق ولا مطعم، بل نطبخ ونأكل وننام، ونتوضأ ونصلّي ـ عند الحاجة ـ داخل المنزل المتنقّل، لا يكلِّفنا السّفر أكثر من ثمن الوقود وقليل من الضرائب الإداريّة والسّياحيّة. ونحن

بفضل الله نحرص على القَصْد (الذي كان من دعاء النبي ﷺ في الفقر والغنى) ولو أننا بفضل الله متعاقدون على عدم الادّخار ولوْ لما يُرْصَدُ تَحَسُّبًا لِدَيْن أو حاجة؛ فقد أغنانا الله برواتب الدّولة المباركة عن التّجارة والادّخار.

٣) وعند الحدود الفرنسيّة الإسبانية بَلَغَت كثرة السيارات الراغبة في العبور حدًّا لم يجد موظفو الحدود حلاًّ له غير فتح الحدود على مصراعيها دون نظر إلى جوازات السّفر ولا أوراق السّيارات، وحلَّ هذا مشكلة خاصّةً بنا فسيارتنا تحمل لوحة واحدة أمريكيّة خلف السّيارة حسب نظام الولاية التي اشترينا منها المنزل المتنقل، بينما النظام الأوروبي يطلب لوحة أماميّة كذلك، ولكننا استشرنا موظفًا في الحدود ـ احتياطًا ـ فدلّنا على مخرج أثبت: كتابة رقم السّيارة على الحاجز الأمامي بخطّ واضح، وهنا يظهر الفَرْق بين مجرّد التّنفيذ الحَرْفي للرّوتين النّظامي وبين تحقيق المصلحة.

٤) في (برشلونة) وجدنا خَلْقًا كثيرًا في أحد الملاعب الرّياضيّة، ولم يكونوا هناك لمتابعة أرْجُل لاعبي كرة القدم ولا مصارعة الثيران، وإنَّما كان تجمُّعًا دينيًّا لطائفة (شهود ياهوه) فقد أيقظت (الصّحوة) القاصرة العاطفة الدّينية في كلّ مكان ولكلّ طائفة وردّ الناس إلى مألوف دينهم (المبتدع غالبًا) وليس إلى ما رضيه الله لهم من الدّين الحقّ، فعاد اليهود والنصارى إلى ما حَرَّفَ أسلافهم، وعاد المتصوِّفة والمبتدعة عمومًا،

والمتحزِّبون، والمفكرون من المنتمين إلى الإسلام (وهم الأكثرون الأقلّون) إلى مناهج قادتهم الذين شرعوا لهم من الدِّين ما لم يأذن به الله ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

٥) ولمّا رأينا بعض السّيارات موثقةً بالسّلاسل والأقفال في مدريد وغيرها من المدن الإسبانية الكبيرة ضعُفَتْ رغبتنا في الإقامة أكثر من أيام قليلة، (ولو أننا نقيم في سيارتنا ونصحبها إلى السّهل والجبل والبحر) خشية سرقتها في الأوقات القليلة التي نفارقها للتزوّد بحاجتنا من الطّعام أو الشراب، أو مشاهدة عرض سياحي أو نحو ذلك.

ومررنا بعدّة مدن تُذكِّرُنا أسماؤها الأعجميّة العربيّة بالحكم العربي: (مجريط وقرطبة وإشبيلية والجزيرة وبلنسية) ورأينا شيئًا من آثارهم المعماريّة التي تسمّى ـ خطأ ـ إسلاميّة، فلا إسلام إلَّا ما نزل به الوحي وفِقْهه من أهله، ولم يتضمّن الوحي ولا الفقه في الدّين هندسة معماريّة (ولا فنًّا ولا فلسفة ولا فكرًا مُجرّدًا ولا نشيدًا)، وغالب فنّ البناء الأندلسيّ ومنفّذوه من خارج جزيرة العرب (ومقتبس من ثقافة أخرى) ولذلك لا تجده داخلها، والله تعالى لا ينظر إلى الصّور والأشكال بل إلى القلوب والأعمال؛ فلا فَخْر للإسلام ولا المسلمين حقًّا في مخلّفاتهم المعمارية بل هي إسراف لا يحبُّه الله.

٦) وعبرنا الحدود الإسبانية البرتغالية لنلقي نظرة على هذه

الدّولة الصّغيرة (٢٠٠x٥٨٠ك.م) على ساحل المحيط الأطلنطي، وصارت قوة بحريّة في القرن (١٦)، وفي القرن (٢٠) كانت تملك من المستعمرات (في آسيا وأفريقيا بخاصّة) نحوًا من (٢٣) ضِعْفًا زيادة على مساحتها الأوروبيّة. ومع أنّ اللغة البرتغالية هي لغة (١٠) ملايين برتغالي، فهي لغة (١٢٠) مليونًا في البرازيل و(١٠) ملايين تقريبًا في غيرها. وفيها بعض الكلمات من أصل عربي أثَرًا من حُكْم المسلمين والعرب شبه جزيرة (آيبيريا) حين انشغلوا بالتَّرف عن نشر التّوحيد والسّنة (تجاوز الله عنا وعنهم) فضيَّعوا الدّين والدّنيا. وفي سوق (لشبونة) كنّا نبحث عن لحم الغنم فوجدنا بين الذّبائح المعلّقة غُزلانًا.

٧) وتتبّعْنا السّاحل الإسباني على البحر الأبيض المتوسط إلى الحدود الفرنسيّة وفي (كان) من الرّيفييرا الفرنسيّة تَذَكّرنا أن خزّان المياه المستعملة في المنزل المتنقّل يحتاج إلى تفريغ فَلَم نجد خيرًا من تلّ أخضر في طرف الشاطئ الجميل يفتقر إلى السّماد العضوي فأفرغناه فوقه لينحدر إلى البحر بعيدًا عن اللاهين ولهوهم. وفي (مُونْت كارلو) خشينا ألاّ يمرّ منزلنا تحت جسورها وفي طرقاتها القديمة الضيّقة، وذات مرّة سألنا شرطيًّا: هل يمكننا الرّجوع إلى الوراء لنجد طريقًا أوسع؟ فأشار إلى الأمام بأنّه السبيل الوحيد، وسمع بعض المتسوّقين والجالسين في سوق ومقهى صغير طرفًا من الحوار الذي انتهى بإشارة الشرطي إلى الأمام فركضوا إلى سياراتهم يهربون بها عن زحف

السّائحين من بدو جزيرة العرب، وسَلِم الجميع بفضل الله وحده.

٨) وعبرنا الحدود الفرنسيّة الإيطالية متتبّعين بقيّة (الرّيفييرا) في الجانب الإيطالي وهي تبدأ قبل (سان تروبيز) الفرنسيّة مرورًا (بمونت كارلو) في (موناكو) إلى (لاسبيزيا) الإيطالية بطول (٣٧٠ كيلاً) تقريبًا من الشواطئ الدّافئة الجميلة والخدمات السياحيّة، أمّا إنتاجها الزّراعي (الزّيتون والورود بخاصّة) فقليل من يعرفه أو يهتمُّ به.

ومن (لاسبيزيا) صعدنا شمالاً بشرق إلى الحدود اليوغسلافيّة لعلّنا نوفّق إلى عبورها وبعدها إلى (بلغاريا) ثم (تركيا) بطريق البرّ، فلم نحصل على تأشيرة دخول إلى (يوغسلافيا) كما حصلْتُ عليها في المرّة الأولى قبل (١٣) سنة. فانحدرنا إلى جنوب إيطاليا مرورًا بروما، ومن بِرِنْدِسِي جنوب إيطاليا ركبنا (مع منزلنا المتحرك) العبّارة إلى اليونان وقطعناها بطولها لا نتوقف إلاّ قليلاً في بضع مدن، ولا يخطئ عابِرُ اليونان ثلاثًا: كثرة المقامات والمزارات النّصرانيّة على الطرق (رمزًا لما هو أكبر منها)، وكثرة العجائز يعمّم رؤوسهنّ الشيب، وكثرة بَيْع المسابِح للذِّكر، وقد اقتبسها النّصارى (مثل مبتدعة المسلمين) من وثنيّي الهند (الهندوس) كما اقتبسها قبلهم (البوذيّون). وأخذ أكثرهم من الهندوس: الهَزَّ عند الذِّكر (اليهود عند قراءة التّوراة ومبتدعة المسلمين عند قراءة القرآن

والبوذيّون عند ذكر صفات بوذا) وأكثر البدع. والطّريق إلى تركيا جبلي طويل متشابه لا يُغْري مثلي بالتّريُّث فضلاً عن الإقامة.

٩) وعَبَرنا الحدود التّركيّة، وطريقها إلى الحدود السّوريّة أطول من الطّريق اليوناني، ولكنّ الناس أكثر وألْطف، والمقاهي والمطاعم كثيرة على الطريق تخفِّف من الرَّتابة، ولعابِرِ تركيا الخيار في متابعة السّواحل التركية حيث المناظر أجمل والخدمات متوفّرة ورخيصة أيضًا.

ولم نجد هذه المرّة حاجة لعبور البوسفور على ظهر سفينة (عبّارة) كما حدث عام ١٣٨١ ـ ١٩٦١ عندما مَرَرْتُ به في المرّة الأولى، فقد بُنِيَ جسر على البوسفور يغني عن العبّارة. وفي سوريا التي دخلناها من منفذ (كَسَب) تابعنا الطريق الجبلي المطلّ على البحر الأبيض مرورًا ببانياس واللاذقيّة وطرطوس ثم انحدرنا جنوبًا إلى (حمص)، ثم انفتلنا إلى دمشق شرقًا ونحن معتادون على التّخييم سنويًّا في مخيّم على أوّل طريق حلب من دمشق يملكه بعض المعلّمين، وعادتنا الإقامة في خيمة صغيرة، أمّا هذه المرّة فمعنا منزلنا السّيّار الذي لم يحوجنا إلى الفنادق ولا المطاعم منذ استلمناه في (لوهافر) حتى وصلنا إلى الرّياض في سفر قارب (٧,٠٠٠ كيل)، والحمد لله على نِعَمِهِ بالدِّين والدُّنيا في الحلِّ والتّرحال. وقد وجدنا أن

المنزل المتنقل يمكن أن يحقّق لنا مآرب أخرى لأنَّه منفصل عن سيارة نقله فكنّا نضعه أحيانًا في مكان بعيد عن المنزل مئات الأكيال، ثم نتردّد عليه بضعة أسابيع أو أشهر يقيم فيه أحدنا أو من لنا علاقة به حسب الحاجة إلى ذلك.

وفي أوروبا وأمريكا توجد مخيَّمات تُعِين على الاستفادة منه وربطه بخدمات الكهرباء والماء وأنابيب الصّرف الصّحّي والغاز.

وأقرب ما عرفت في البلاد العربيّة إلى ذلك هذا المخيّم السّياحي في غوطة دمشق أوّل طريق حلب السريع، وهو بستان متوسِّط المساحة، فيه أماكن للتّخييم ووقوف المنازل السّيارة، وفيه بقالة صغيرة ودورات مياه شعبيّة كافية. اخْتَلَفَتْ عليه الأيدي خلال تردّدي عليه نحو عشر سنوات، ثم تمكّن صديقي العامل المصري فيه من افتتاح مخيّم جديد في أرض مجاورة تعاونًا مع والد زوجته السّوريّة، بارك الله لصديقي (رِزْق) في أهله وماله وعمله وهداهم. وبعد تكرار التّجربة عدد سنين وجدت أن الإقامة في مثل هذه المخيّمات خيرٌ مقامًا وأحسن نديًا، ولكنّ التّقليد والتّباهي والتّكلّف ـ في الدنيا ـ تضطرّ ابن آدم إلى مخالفة عقله وقلبه، وفي الدّين إلى مخالفة شرع الله تعالى وسنّة نبيِّه ﷺ.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى مؤتمر في جنيف)

ثش ـ واشتركت عام ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ في مؤتمر لليونسكو بجنيف من سويسرا، ورغبت هذه المرّة أن يكون لي أثر (ولو غير مرغوب) في بحوثه ومناقشاته، فاقترحت أن أُطْلِع أعضاءه على وجهة نظري في إصلاح هيكل التّعليم الثانوي فرفض رئيس الوفد (د.أحمد بن محمد علي وكيل وزارة المعارف للشؤون الفنّية) وكان رفضه مؤدّبًا كعادته وبلسان غيره (ما أمكن)؛ وما كنت أتوقّع منه غير ذلك فقد رفض الفكرة عندما عَرَضْتُها عليه في الوزارة مرّة أو مرّتين، ولا تجمعني به الخبرة النّظرية التّربويّة ولا العمليّة؛ بل ولا تجمعني به النَّظرة إلى الإدارة ولا طريقة التّنفيذ؛ فهو مثال الرّجل النظامي التّقليدي (ومِنْ خيرة من عرفت نزاهة وجدًّا ومواظبة ومحافظة على العمل) وليس من شأن مثله الخروج عن المألوف.

وعلى العكس فإني لا أثق في النّظريات الإداريّة (ولا التّربوية ولا الاجتماعيّة ولا النّفسيّة) فهي مجرّد ظنّ تعوّد النّاس عليه فقبلوه، وأنا لا أحترم المألوف حتى أختبره فيثبت لي أنه الأصلح (فهو عندي متّهم حتى تثبت براءته مثل المسلم ـ بعد انحراف أكثر المسلمين عن الإسلام ـ عند مؤسّسات الأمن)، وأنا لا أحترم الرّوتين (إلَّا فيما يخدم المصلحة) وكم من مرّة تركْتُ مكتبي إلى مكتب آخر قريب أو بعيد بلا استئذان ولا انتداب ولا

قرار روتيني من أيّ نوع، وفي المرّات القليلة التي تذكّر فيها المسؤول (عن حضور رؤساء الأقسام) مسؤوليته وجدني غائبًا وفقدت راتب يومين أو ثلاثة فَلَمْ آبَه ولم أحتجّ ولم أعتذر، ولو قويَتْ ذاكرة المسؤول ونشط لمتابعة الحضور لَمَا بقي لي راتب يُذْكَر، ولَمَا غَيَّرْتُ طريقي؛ فالمهمّ المصلحة. وقد سرَّني بعد هذه ببضع سنوات أن أقرَّني على هذا النهج أشْهَر الإداريِّين حرصًا على تنفيذ النِّظام (ونزاهة وخُلُقًا ومواظبةً وحَزْمًا) د. عبد العزيز الخويطر ختم الله له بصالح النِّية والعمل، وبالمغفرة والرحمة والثواب، فقد عُيِّن وزيرًا للمعارف في وقت طَلَبْت فيه (الإحالة على التّقاعد)، فسأل وكيل الوزارة عن السّبب فأجابه بأن سَعْدًا يكره القيود الزّمنيّة والمكانيّة، فقال: يمكنه البقاء في العمل دون قيود زمنيّة ولا مكانيّة، ولم أصَدِّقْ ما سمعت؛ فسألته: هل يجيز النّظام ذلك؟ (صرْتُ نظاميًّا أكثر منه)، فقال: نعم، أنا وزير المعارف وأنا رئيس ديوان الخدمة المدنيّة (بالنّيابة) وأنا مفوَّض بتحقيق المصلحة (ولو استثناء من النظام).

وبقيتُ بضع سنوات في وزارة المعارف وأكثر من (٢٠) سنة مع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة ثم مع وزارة الشؤون الإسلامية (في الخارج) بلا قيد زمنيّ ولا مكانيّ، فضلاً من الله ونعمة. وتذكرت قوْل (هِرْمَنْ هِس): (القَدَر: أن تثابر على الرّغبة في الأمر وطَلَبِه فيتحقّق عاجلاً أو آجلاً) وهو وإنْ كان لا يَصْلح قدوة ولا يُعْرف بالتَّديُّن وإنَّما بالفلسفة وهي ظنّ أو خيال، فإنه هنا لا يَبْعد عن الحقيقة والواقع، فالرّغبة في

الأمر والمثابرة على طلبه مِنْ قَدَر الله على عبده، والعاقبة من الله وحده، وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

وعودةً إلى مؤتمر اليونسكو في جنيف؛ حاولت مخالفة رأي رئيس الوفد فطلبت الكلمة في المؤتمر، ولكنّه كان يرأس المؤتمر فتجاهل طلبي، ولا ألومه فلربما فعَلْتُ ما فَعَلَ لو كنْتُ مكانه وكان مكاني.

وعندما حان وقت تنفيذ الرّغبة والطّلب هيَّأ الله أسبابه: الخطّة الخمسية الثانية واهتمام الأمير خالد بن فهد بن خالد آل سعود (وكيل الوزارة للشؤون التّعليميّة والإداريّة) وتَحَمُّله مسؤولية التنفيذ، فانفتحت كل الأبواب المغلقة وبدأ التّنفيذ واستمرّ عشر سنوات بنجاح لم يتوقّعه أحد (ولا مُقَدّم الفكرة) حتى جاء النّظريُّون يكحلونها فأَعْمَوها، وكانت نتيجة (التّطوير): إلغاءها بعد بضع سنين.

و(سويسرا): الاسم الإيطالي (بعد تَعْريبه) لهذا البلد الأوروبي الغنيّ جدًّا بأيدي أبنائه الفقير جدًّا إلى الثروة الطبيعيّة، فلا نفط ولا معادن، ولا مزارع كبيرة، بل تحتلّ جبال الألب (٧٠٪) من أرضه، وإنّما حصل على مستواه المعيشي البارز من المهارة التّقنيّة والصّناعة التّصديريّة الخفيفة، وللثقة في استقراره

وحسن إدارته صار مركزًا ماليًّا متميِّزًا. وهو مركز سياحيّ متميِّز أيضًا بموقعه الجميل من وسط أوروبا وببحيراته الكثيرة، وأشهرها: بحيرة جنيف، ومنه ينبع نهر الرّاين والرّون، ويقصده السّياح في الشتاء للرّياضات الثلجيّة، وفي الصيف لاعتدال مناخه. وقد حافظ على وجوده بحياده لا بقوّته العسكريّة، وفيه أربع لغات وطنيّة بتعدّد أعراق أهله الذين يجمعهم الاتحاد الفدرالي لأربع ولايات أو كانتونات.

وقد رفض النّاخبون السّويسريُّون عام ١٩٨٦ الانضمام إلى عضويّة الأمم المتحدة، فبَقِيتْ (سويسرا) على علاقتها بالمنظمة الدّوليّة بصفة مراقب دائم. وأقرّ النّاخبون عام ١٩٩٢ الانضمام إلى البنك الدّولي وصندوق النّقد الدّولي. ومع أنّ أنهار سويسرا تصبّ في أربعة أبْحُر فليس لها إطلالة على البحر مثل جاراتها: إيطاليا وفرنسا وألمانيا.

وبين سويسرا والنمسا حُشِر واحد من أصغر بلاد العالم (لِهْتِنْشْتايِن) لا يكاد يُعْرف أو يُرَى على خارطة العالم، ومساحته لا تتجاوز ١/ ٤ مساحة الرّياض، واسمه من اسم العائلة التي تحكمه، فهو يُحْكم بملكيّة وراثيّة مثل جُلّ دول أوروبا في الماضي وأكثر دول أوروبا الغربيّة في الحاضر، وإنتاجه الصّناعي الدقيق لا يستهان به إضافة إلى الزّراعة والسّياحة.

ولكنّ النجاح الصّناعي والزّراعي والسّياحي والاقتصادي عامّة لا يضمن السّعادة، فالابتسامة لا تعرف طريقها إلى وجوه

السّويسريين (والألمان) إلاّ لمامًا فضلاً عن الضحك الذي اختصّت به إيطاليا المُفْلِسة.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى بنكلادش)

ت ـ وفي عام ١٣٩٧ سافرت مع اثنين من جماعة التَّبليغ لحضور اجتماع (تونكي) السّنوي في (بنكلادش).

وليس من عادتي ولا عبادتي اتّباع الجماعات والأحزاب والفِرَق والطُّرُق المنتمية إلى الدّين؛ لأن الدّين الحقّ دين وحدانيّة: الله واحد لا شريك له، والرّسول واحد لا نبيّ بعده، وجماعة المسلمين واحدة، وحزب الله واحد غير شيعي، ومنهاج الدّين والدعوة واحد: الوحي بفهم فقهاء القرون المفضلة الذين لم يخلطوا يقين الوحي بفكر البشر الظنّي. ولكن قادة جماعة التّبليغ يدّعون أنها ليست جماعة ولا حزبًا ولا فِرْقة، مثل (بيرم التّونسي) عندما منعه الإنكليز في (مصر) زمن الاحتلال العسكري من إصدار جريدة ولا مجلّة فأصدر مطبوعة سمّاها (المِسلّة لا جريدة ولا مجلّة).

وبصرف النّظر عن الادِّعاءات والعناوين فإن (جماعة التبليغ) أو (جماعة الدعوة) أو: (الأحباب) جماعةٌ وحزبٌ وفِرقةٌ وطريقةٌ خاصّة (في الدعوة إلى الله، والدعوة من الدّين)

مستقلّةٌ عن جماعة المسلمين مُنْخَزِلَةٌ (بلفظ د. بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ) عنها بأميرها ومركزها ومنهاجها (وهو الأهمّ) ثم بأحد أسمائها (أيّها تختاره).

ولكن حُبِّب إليّ من أمرها: مخالفة الجماعة البارزة الأخرى (الإخوان المسلمين) بانصرافها عن جَمْع المال، والاستيلاء على المؤسّسات العامّة والخاصّة والوظائف، ومنازعة من ولاّهم الله الأمر سُلْطانَهُم، واختصاص القادة بالدعوة (ولو كانوا من غير أهلها). وحُبِّب إليّ من أمرها: عدم الاهتمام بالشّكل (في أمر الدّنيا)، والتَّمسُّك بالسُّنّة (في أمر الدِّين) في حدود معرفتهم بسُنَن العادات والآداب والأخلاق والهيئات. وإن ساءني منها مخالفة منهاج النبوة في الدّين (مثل بقية الجماعات والأحزاب والفِرَق والطّرق) بإهمالهم الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة (أوّل ما أمر به جميع الرسل) وإهمالهم النّهي عن إشراك العبد مع المعبود في العبادة (أول ما نهى عنه جميع الرسل).

وساءني منهم أنّ دعوتهم على غير بصيرة؛ فلا يجتمعون على العلم بأحكام الشريعة (اعتقادًا وعبادة ومعاملة) ولا يتقدّمهم العلماء بأحكام الشريعة، فهي (كما رُوِيَ عن الشيخ الجزائري ختم الله له بالسّنة والجنّة): دعوة العوامّ للعوامّ.

١) ركبنا الطائرة إلى (داكا) وأقمنا أيّامًا في مركز الجماعة بين استماع لدروس مشايخ الجماعة (المحصورة في الرّقائق بالقصص والأمثال) وبين دعوةٍ عامّة (في الأسواق) ودعوةٍ خاصّة

(في المنازل والمكاتِب)، تستغني (بعلم الفضائل) عن (علم المسائل). وقد يكون نَزَعَني عِرْق فأُلْقِيَ عَلَيّ شَبَه أهل شِبْه القارة الهنديّة فكثيرًا ما أجد منهم من يكلّمني بِلُغَة (الأُردُو)، وربما أعطاني صاحب مَتْجر (١٠تاكا) حوالي ريال ظنًّا منه أني أطلب صدقة، جزاهم الله بهداه.

٢) وحان موعد الاجتماع فانتقلنا إلى مكانه على بُعْد (١٥كيلاً) على ضفّة نهرٍ جارٍ كبير.

وفي (تونكي) على ضفّة النّهر بُنِيَت منصّة متواضعة من الخشب تُذَاع منها دروس المشايخ وضيوفهم من أتباع الجماعة عربًا وعجمًا، ولكنّ دروس الأتباع تُتَرجم بتصرّف (أو تُهَندس بلفظهم). وهي لا تتجاوز الرّقائق (بالقصص والأمثال) تمهيدًا لحثّ الحاضرين على الخروج مع الجماعة (في سبيل الله بزعمهم) للدّعوة على المنهاج الذي اختاره (محمد إلياس) ثم ابنه (محمد يوسف) ثم زوج ابنته (محمد زكريا) تجاوز الله عمن مات منهم ومن غيرهم لا يُشْرِك بالله شيئًا.

ويُعَدّ للعرب حظيرة خاصّة لإقامتهم ومعهم القادمون من أوروبا وأمريكا ونحوهما. أمّا بقية المشتركين في الاجتماع وجلّهم من (بنكلادش) فيتولى كلّ منهم أمر نفسه ولا يُعَدُّ لهم من الخدمات إلَّا بعض دورات المياه المتواضعة تكفي القريبين من المنصّة. ويتبارى أتباع الجماعة في تقدير عدد المشاركين في الاجتماع من مئات الألوف إلى أحاد الملايين، وهم يبالغون

في التّقدير ظنًّا منهم أنّ كثرة العدد دليل على صلاح الدّعوة ونجاحها، ولو كان العدد دليلًا لحُكم على الكثرة بالضّلال، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] ومَدَح القلّة فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبإ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: ٢٤].

٣) وبعد بضعة أيام انفضّ الاجتماع وعُدْنا إلى (داكا)، وصحبت أمير الجماعة في زيارة لرئيس القضاة نائب رئيس مجلس الوزراء البنكالي ذلك الوقت، وعند خروجنا اصطفّ حرس الرئاسة لأداء التّحيّة فانتصب أمير الجماعة عبد العزيز لردّها، وبعد عودتنا إلى مركز الجماعة طلب الأمير منّا إخفاء خبر هذه الزّيارة عن المشايخ في (دلهي) فأنسيت هذا الطلب وذكرت ذلك لأمير الجماعة في دلهي ولم أتنبّه لخطئي إلَّا بعد أن رأيت أثر ذلك على وجهه، وبدا لي من هذه الواقعة أمران: وجود أساس للخلاف على الإمارة وكّده عدم تعيين خلف للأمير بعد موته، وإنما عُهِد بالخلافة لعدد منهم، فأهل (دلهي) يرون الحقَّ لهم لأنهم القائمون على مركز الجماعة الأوّل ومن أهله اختير الأمراء الثلاثة السّابقون، وأهل (داكا) يرون الحقّ لهم لأنهم يجمعون أكبر عدد من الناس في اجتماع (تونكي)،

وأهل (رايوند) في الباكستان يرون لأنفسهم حقًّا بكثرة مشايخهم وبروزهم. والأمر الثاني: أنّ النّظرة الدّنيويّة ليست أجنبيّة عنهم إذا ما حصلوا عليها، فكثيرًا ما تباهى الأكثرون منهم بأن فلانًا الثّريّ أو المُغَنّي أو مُصَمّم الأزياء أو الموظّف الكبير خرج معهم (ولو مرّة واحدة أو مرّات قليلة)، وفي الهند وبنكلادش رأيت المشايخ وضيوفهم (وكنتُ أحدهم) يُفَضَّلون على بقية أفراد الجماعة في الأكل ولا يفصل بين المائدتين غير ذراع أو ذراعين. وعندما أبديت هذه الملحوظة لأحدهم صَرَف الحديث بطُرْفة فقال: (كان زادنا في الماضي متواضعًا جدًّا إلى درجة أنّ أحد المشايخ سمّى الله على طعامه بقول الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] لأنه لم يَرَ على المائدة غير بحيرة من المرق الصّافي تطفو عليه قطعة من البطاطس.

٤) وزرنا بعد مركز (داكا): مركز (دلهي) فطلبْتُ من أحد الطلبة الأردنيّين رؤية القبور التي ذُكِرَ لي أنها في المسجد فأوقفني على حظيرة مستطيلة في فناء المسجد تضمّ قبور محمد إلياس ومحمد يوسف واثنين لم يَعْرِف اسم أيّ منهما، والمركز يقع في منطقة تَجْمَع عددًا من أوثان المنتمين إلى الإسلام وتسمّى باسم أحدهم (نظام الدّين)، والجماعة (مثل أكثر الجماعات والأحزاب والفِرَق المنتمية للإسلام) لا تنهى عن الشرك ولا ما دونه من البِدَع بدعوى الاكتفاء بدعوتهم للخروج مع الجماعة، فإذا خرجوا صلحوا، وبدعوى تجنّب نشر أخطاء المسلمين،

وكل هذا تسويل من النفس ووسوسة من الشيطان، فجميع رسل الله أرسلهم الله للأمر بالتّوحيد والسُّنّة والنهي عن الشرك والبدعة لا الاكتفاء بالدّعوة للخروج (٣) أيام في الشهر و(٤٠) يومًا في السّنة و(٤) أشهر في العمر؛ فجماعة التّبليغ تخالف دعوة الرسل جميعًا في المنهاج (الموضوع) والأسلوب (الشكل).

٥) وطلبْتُ من أمير الجماعة وضع أيديهم في أيدي علماء تجديد الدّين والدعوة في جزيرة العرب تعاونًا على البرّ والتقوى، وجمْعًا بين العِلْم بالأحكام الشرعيّة وهو الأساس، وبين التّبليغ وهو الوسيلة، فأجاب بجواب الحزبيِّين: (نحن لا نذهب إلى أحد، ومن جاءنا لا نردُّه)، وقال البنّا: (ما وافق دعوتنا فمرحبًا به، وما خالفها فنحن منه براء).

٦) وصحِبْنا بعض دعاتهم إلى قرى صغيرة ذكّرتني بحال (نَجْد) قبل (٦٥) سنة، كان الذُّباب ينازعنا الطعام والشراب على قلّتهما، وكانوا ينزعون قشر البَيْض فلا يكادون يضعونه على المائدة حتى يغطّيه الذباب فيغلب السّواد على البياض. ولا توجد دورة مياه في المنازل إذ لم تصلها أنابيب المياه، وإنما يقضي المرء حاجته على حَجَرين في ركن من المنزل يُلْقى فيه الرّماد النّاتج من الطبخ على الحطب أو الرّوث.

٧) والنّاس في شبه القارّة الهندية يشربون الشاي ممزوجًا بالحليب مثل أكثر البلاد التي احتلَّها الإنكليز (عدن والقاهرة بخاصّة) فأورثوها هذه العادة. والناطقون بالأوردو يسمّونه (دود)

وبدون حليب يسمّونه (سليماني)، وعندما تاقت نفس أحد القادمين من (الأحساء) إلى الشاي الذي تعوّده بدون حليب ولم يستطع طلبه لأن تعاليم الجماعة تمنع الإشراف والسّؤال (اتّباعًا للسُّنّة) دعا الله بصوت مرتفع: (اللهم ارْزُقْنا شايًا سُلَيْمانيًا بلا إشراف ولا سؤال) فأجيب دعاؤه دون تأخير.

٨) ثم زرنا مركز (راي وند) قرب (لاهور) في (الباكستان) وهو مسجد مبنيّ بجوار المقبرة، وقد سوّل الشيطان لأكثر المنتمين للإسلام بناء المساجد على القبور اتِّباعًا لسنن من قبلهم رغم تكرار النّبي ﷺ التحذير من ذلك كما في الصحيحين: «لعنة الله على اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة رضي الله عنها: «يحذِّر ما صنعوا»، وهي آخر وصاياه لأمّته.

ويبايع مشايخ التّبليغ منذ محمد إلياس (تجاوز الله عنهم جميعًا) على الطّرق الصّوفيّة الأربع: الجشتيّة والسَّهروورديّة والنّقشبنديّة والقادريّة كما هي عادة أكثر مسلمي الهند. ويراقبون عند أحد القبور مرّة في الأسبوع آخر الليل مغطّين رؤوسهم مردِّدين: (الله حاضري الله ناظري)، وينطقون الضاد والظا: ز.

واطّلعت على (حجاب) كان أحدهم يكتبه ويعلّمه طلبة تحفيظ القرآن يشتمل على (١٦) مربّعًا، في كل مربّع رقم أو رمز غير مفهوم المعنى أو الغاية.

ومشايخ التّبليغ في المراكز الثلاثة مثل خريجي مدرسة

ديوبند: أحناف في الأحكام العمليّة، أشاعرة في الاعتقاد على أحسن أحوالهم، صوفيّة في الطريقة. هدانا الله وهداهم لأقرب من هذا رشدًا.

❁ ❁ ❁

(السفر مرة ثالثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية)

ث ـ وفي عام ١٣٩٧ سافرت ضمن وفدٍ من رئاسة إدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة إلى أمريكا (الولايات المتّحدة) للتّعرُّف على المسلمين حديثًا تمهيدًا لإقامة دورة علميّة مكثَّفة تهيِّئهم للعمل أئمة وخطباء ودعاة.

١) زرنا عددًا من الولايات والمدن التي تضمُّ أكبر عدد من المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم بين: تبليغ، وإخوان، وأحناف، ومسلمين سود، وغيرهم، وتمّت مقابلة عدد كبير منهم (وكان أكثرهم مسلمين بمجرّد الانتماء للإسلام لأنّ الأعاجم ـ بقلّة علمهم ـ مثل الأعراب: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]).

٢) ولما كنْتُ أتولّى محادثتهم وترجمة إجاباتهم لزميلّيَّ في الوفد إسماعيل بن عتيق وعبد اللطيف آل الشيخ رغبْتُ في معرفة أكثر الدّعاة والمؤسّسات أثرًا في انتمائهم إلى الإسلام

(وإن كانت الهداية من أمر الله وحده) فوجدت أنّ جلّهم رجع إلى الإسلام (دين الفطرة) بعد أن نصّره أبواه بدعوة جماعتين: الأولى والأكثر والأهمّ: جماعة المسلمين السّود، والثانية: جماعة التّبليغ، وهما أقلُّ مؤسَّسات الدعوة علمًا ومالاً، وهما (مثل بقية الجماعات والأحزاب والفِرَق) أبْعَدُ عن منهاج النُّبوّة في الدّين والدعوة، ولكنّهما تشتركان في ميزة خُلُقيّة لا يكاد ينافسهما عليها أحد من أفراد ومؤسّسات الدعوة؛ ألا وهي عدم التكلُّف شكلاً ومالاً وتنظيمًا.

فيتميَّز أفراد الجماعتين على بقيّة الدّعاة بالصَّبر والتّواضع والتّحمُّل والتّفاني والتّجرُّد (إلَّا لجماعتهم)، فتراهم يذهبون بدعوتهم إلى النّاس في المنزل والمستشفى والمقهى والنادي لا يأنفون من مظاهر الفقر والمرض والمعصية والإعراض والاستهزاء والجحود. وهذا الواقع لا يجوز أن يخدعنا (بِخُلُق الدّعوة أو بتأثيرها)، لنكتفي به ونَعْدِل عن العلم الشرعي والمنهاج النّبوي، فالعبد الداعي إلى الله مطالَب بالثبات على المنهاج النبوي: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يُوسُف: ١٠٨] مهما كانت النّتيجة (قبولاً أو إعراضًا)، والمعبود وحده يقدّر النّتائج. وكان قَدَر الله ألاّ يؤمن مع نوح (بعد ألف سنة إلاّ خمسين عامًا) إلاّ قليل، وأن يؤمن مع موسى ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) السّواد العظيم وهما لم يلبثا في قومهما إلاّ عشرات السنين، ويأتي النّبي يوم القيامة وليس معه أحد، وقد يؤيّد الله الدِّين بالرجل الفاجر.

ولم أجِدْ بينهم من تحوَّل إلى الإسلام بطريق حزب الإخوان المسلمين أو المؤسّسة التي اغتصبها: النّدوة العالميّة للشباب (الإسلامي)، ولا بطريق مراكز رابطة العالم الإسلامي، وإن ادَّعى الأفراد والمؤسّسات أنّه: (أسلم على هذه اليد الضعيفة [بل المشلولة] ثلاثة آلاف أو أقل أو أكثر).

٣) ولما كان ظهور هلال رمضان وشيكًا اخترت تمديد إقامتي في أمريكا للصّيام في مسجد (ديربورن) من ولاية (مِتشِكَنْ) حيث يوجد عدد كبير من أهل اليمن وبلاد الشام يعملون في مصانع السّيّارات بالمنطقة.

وهذا المسجد (ويسمّونه: المسجد الإسلامي) بناه الأمريكيّون من أصل لبناني (مثل أكثر المساجد في الشرق والوسط الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكيّة)، وكانت هذه المساجد تبنى لغير الصّلاة والذِّكر وقراءة القرآن، بل للتجمّع في الأعياد الدّينية كما يفعل غير المسلمين، ولذلك كان يخصّص الطابق الأسفل من المسجد لرقْص الدّبكة وللطبخ والأكل.

وفي العام الذي صُمْت رمضان فيه (والعام الذي بعده) مَوَّل مُحْسِنٌ سعوديٌّ مأدبة إفطار في هذا المسجد لكلّ من يرغب من المصلِّين، فلم أتكلَّف نفقة ولا جهدًا لإفطاري، وتسابق بعض اليمنيِّين للبرّ بي جزاهم الله خير الجزاء.

وأثناء إقامتي في هذا المسجد كنت أحاول اصطياد الدّعاة (المنتدبين من المملكة المباركة للدَّعوة) للثّبات في مكان واحد

يكثر فيه المسلمون وتعهدهم بالتعليم والموعظة بالأحكام الشرعيّة لحفظ وقتهم وجهدهم من التّشتُّت في عدّة مناطق، ولكنّهم كانوا مهتمين بالتّعرُّف على أمريكا، كما أنّهم يرغبون في أمريكا وأوروبا ويرغبون عن الدّعوة في أفريقيا وآسيا، حتى قال أحد العابثين: إنّ المتديّن اليوم ليُحِبُّ الأرض الباردة والغنيّة، ولذلك لم يُصِرَّ على الانتداب للطّائف في أشهر الصّيف إلاّ موظفو بعض المؤسّسات الدينيّة في غير مصلحة العمل، بل مصلحة العامل، تجاوز الله عنّا وعنهم جميعًا.

وأخيرًا وافق أحد المنتدبين من حزب الإخوان على طلبي (وأكثر المنتدبين من هذا الحزب لا لعلم ولا صحة منهاج في الدّعوة بل لنفوذ الحزب وحركيّته) وقد لمَست فائدة وجودهً هنا (جزاه الله خيرًا) في حالة واحدة على الأقل:

٤) كان الخلاف قائمًا بين جمعيّة المسجد اللبنانيّة وبين المصلِّين من أصل يمنيّ، وربما بدأ الخلاف من عادة بعض اليمنيّين نَزْعَ سراويلهم الدَّاخليّة عند الصلاة (لأنها مظنّة النّجاسة) وتركها أثناء الوضوء والصّلاة معلّقة على حَبْل في مدخل المسجد بين المصلى وبين المِيْضأة مما يستهجنه اللبنانيّون بخاصّة. ولجأتْ لجنة إدارة المسجد إلى المحكمة، فقال القاضي: (يا للعجب، أنتم عرب مسلمون وأنا أمريكي نصراني من صقلية وتطلبون مني الحكم بينكم، وأنا لا أعرف طريق العدل في الحكم بينكم إلاّ أن يحضر معكم في الجلسة القادمة عالم مسلم يعينني على الحكم بالعدل).

وكنت في زيارةٍ لمسجد في (توليدو ـ أوهايو) لأتثبّت من نَبَإٍ عن عرضه للبيع على كنيسة، فاتّصل بي الإخوة اليمنيّون للمثول معهم في المحكمة غدًا لسابق دراستي العلوم الشرعيّة، فرأيت لهم أن يصحبوا الأخ المصري لأنه لا يمكنني العودة في الوقت المحدّد ولأنّ هذه القضيّة في محكمة أمريكيّة تستند إلى الفكر واللباقة وأخي الأستاذ المصري مؤهّل لهما أكثر منّي. وبيّن الأخ المصري للقاضي أن المساجد تُبْنى للصلاة والمدّعى عليهم هم الذين يعمرونها بالصّلاة فهم أولى بالمسجد، ونَشْر السّراويل مسألة ذوق وليست أجنبية عن المسجد أكثر من رقص الذكور والإناث فيه الدّبكة، وتنبّه إلى فتاة لبنانيّة حضرت المحاكمة بلباس يكشف عن ساقيها وأكثر فَخِذَيْها، فقال للقاضي: يمكنك أن تسأل هذه الفتاة هل يجيز لها الإسلام الدّخول إلى المسجد بهذا اللباس؟ فأجابت بالنفي.

فحكم القاضي للمصلّين بوضع أيديهم على المسجد وإدارته وأمواله.

٥) وللمسجد الذي كنت في زيارته (أثناء المحاكمة) في (توليدو ـ أوهايو) قصة أسوأ؛ كانت رابطة العالم الإسلامي قد ضمّته إلى مراكزها (الإسلاميّة) ووظّفَتْ لرئاسته وإمامته وخطابته أستاذًا عراقيًا، وعلمْتُ أنّه لا يؤمُّ المصلين ولا يعلِّمهم، ولا يعظهم عدا يوم الأحد موعظة اجتماعية أكثر منها شرعيّة مثل أكثر المراكز (الإسلاميّة) في أمريكا قبل أن يصلها ما سُمِّيَ

بالصّحوة، ولمّا سألته عن ذلك صدّق الخبر وادَّعى أنه يصلي بأهله في منزله لأن المسلمين لا يمكنهم الصّلاة غير يوم الأحد لانشغالهم بأعمالهم.

ولكنه أثناء إقامتنا الصلاة في المسجد بضعة أيام لم يكن يصلّي معنا هو ولا أَحَدٌ من أعضاء اللجنة غير شيعيّ لبنانيّ الأصل كان يصلّي معنا بضع ركعات من التّراويح ثم يذهب لمراقبة خمّارَتَين يملكهما، هدانا الله وإياهم صراطه المستقيم.

٦) وسألت رئيس المركز الإسلامي نفسه عن نبإ عرض المسجد للبيع على كنيسة، ومرّة أخرى صدّق النّبأ ولكنّه دافع عن نفسه: (لست أنا الذي رأيت للجنة بيعه على كنيسة ولكن الواقع أنه لن يشتريه إلَّا كنيسة).

وتتمّة القصّة السّيئة أن اللجنة قرّرت بيعه للاستعانة بثمنه على بناء مسجد أضخم وأفخم على بُعْد (٢٥ كيلاً) من مركز مدينة (توليدو ـ أوهايو) يحتوي (مع مسرح الدّبكة والمطبخ والنّافورات والزينات الأخرى) على بركة للسِّباحة، وقال السّود بأنَّ السّبب: ضيق اللجنة بالمسلمين السّود ومظهر فقرهم بعد أن كثرت زياراتهم للمسجد في العقد العاشر من القرن الرابع عشر، وقال المقرّبون من اللجنة بأنّ السّبب: الرَّغبة في إظهار الإسلام بمظهر لائق، وفي تعارف الشباب المسلم من الجنسين [بالسّباحة والرّقص] طمعًا في تزاوجهم وخشية زواجهم من أهل دين آخر، والله أعلم بحقائق الأسباب ولكن إذا كان إمام المركز

لا يصلِّي في المسجد القريب بحجة غياب المصلِّين فكيف بالمسجد البعيد؟

٧) ومرّة صلَّيت الجمعة في مسجد مؤسّسة الملك فيصل بالرّياض، فحثّ خطيبه عبد المقصود المصلّين على التّبرُّع لمسجد (توليدو ـ أوهايو) الذي لم يَبْقَ من تكلفة بنائه غير (٩٠٠ ألف دولار) وأشار إلى تزكية عدد ممن انتدبوا لحضور حفل افتتاحه. ولما خرج أكثر المصلِّين بعد أن أفرغوا جيوبهم في أكياس التّبرعات سألت أخًا مصريًّا كان يقوم على الأكياس: هل تمَّ بيع المسجد القديم؟ فقال: لا، بل أجَّرناه! وهذا هو: (الإسلام اليوم) والله المستعان.

٨) وزُرْتُ مسجد (كْلِيفْلَنْد ـ أوهايو) مع أخي الشيخ إسماعيل بن عتيق زميلي في هذا السّفر، فقصّ علينا أحد القائمين عليه وهو رجل كبير السِّنّ من أصل ألباني: أن أصل هذا المسجد بيت لأمريكي يهودي، فأراد ابنه شراءه بخمسة عشر ألف دولار لتوسيع تجارته: تأجير آلات غسيل الثياب، فقال الأب: نحن في حاجة إلى مثله مسجدًا، وظنّ الابن أن اليهودي لن يرضى بذلك، ولكنّ اليهودي تنازل عن نصف ثمنه بشرط تحويله إلى مسجد طمعًا في الثواب. ولعلّ هذه المساجد تطوَّرت الآن في عصر ما يسمّى الصحوة كما حدث للمساجد في كلّ مكان، ولعلّ الله أن يوجِّهها وجهة الحقّ الذي كان عليه النّبيّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لا الابتداع ولا الإسراف ولا الظلم.

❁ ❁ ❁

خـ ـ وفي عام ١٣٩٨ نتيجة لجولتنا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة العام الذي قبله سافرت إليها مرّة أخرى للاشتراك في دورة تقوم عليها رئاسة إدارات البحوث والإفتاء والدعوة في جامعة (شيكاكو) للمسلمين الأمريكيّين تهيئة لهم لوظائف الإمامة والخطابة والدعوة في أمريكا:

١) لم يشترك في الدّورة غير المسلمين الأمريكيين من أصل أفريقي لأن أكثر المسلمين في أمريكا منهم بسبب تأييد الله الدّين بعبده (إليجا محمد) الذي جمعهم الله به على اسم الإسلام وإن أضاف الناس إليه اللون: (المسلمين السّود). وبعد موته عام ١٩٧٥ جمع الله أكثرهم على ابنه (وارث الدّين) فخَطَا بهم خطى طيّبة للالتزام بالإسلام كما يعرفه ويعمل به أكثر المسلمين العرب والعجم، ثم اشتهر اسمهم فصاروا: (أمّة الإسلام في الغرب).

وليس كلّ الأمريكيّين الأفارقة من هذه الجماعة بل اشترك في الدّورة من ينتمي إلى الأحناف وإلى حزب الإخوان المسلمين وقليل جدًّا من التّبليغ وغيرهم.

ولكنّ أتباع (وارث الدّين) ووالده من قبله (إليجا محمد) هم الأكثر انتظامًا وحرصًا على الآداب والأخلاق وانضباطًا وتعلُّما، ولا عجب فقد كان أساس الحركة وتركيزها على ذلك منذ البداية، ونفع الله بها نفعًا عظيمًا (دينًا ودنيا).

٢) هَيَّأَت الدّورة لجميع المشتركين فيها والمستفيدين منها: المسكن والطّعام والدّراسة مجانًا، فنبّهتُ إدارة الدورة إلى أنّ نظام انتداب الموظف السّعودي لا يجيز له الجمع بين المسكن والطّعام وكامل بدل الانتداب كما نصّ قرار الرئاسة (هذه المرّة) ـ خطأ ـ، وبَدَأت بنفسي فدفعت مقابل سكني وطعامي. فلم يَنْسَها مُوَقِّع القرار تجاوز الله عنه (وكان أخوه أحد المستفيدين بدون حقّ) ولا ألومه فقد كتبتُ لرئيسه الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بأنّه لا يجوز انتدابه هو للطّائف مع الرّئيس لعدم الحاجة إلى ذلك ولما فيه من عرقلة العمل، وأنه لا يجوز انتداب (٢٣٠) موظّفًا لا حاجة لانتداب أكثرهم بينما كان وزير المعارف لا يَنْتَدِب أكثر من (١٥). وكتبت لأحد أعضاء هيئة كبار العلماء وأحد قضاة التّمييز (رحمهما الله) منكرًا إحراجهما الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بطلب استثنائهم من قرار الدّولة وقف الانتداب للطّائف.

٣) زرنا مركز (أمّة الإسلام في الغرب) في (شيكاكو)، وقابلنا طبيبًا سوريًّا وظّفته رابطة العالم الإسلامي للعمل مع هذه الجماعة وتعليمهم ولكن (فاقد الشيء لا يعطيه) كما يقول المثل الشعبي، فهو ـ مثلي ـ ترك العمل المؤهّل له: (التعليم الدّيني أو القضاء في حالي والطّبّ في حاله، وعملْتُ في الإدارة ولم أؤهّل لها، وعمل في الدعوة ولم يؤهّل لها، وبدا لي أنّ

أكبر همّه إرضاء قادة الجماعة ليضمن بقاءه في أمريكا على حساب الرّابطة، تجاوز الله عنّا وعنه.

٤) وزرنا مركز (الإخوان المسلمين) في إنديانا، وكان أكبر همّهم (أكثر من الأحزاب المبتدعة الأخرى) تجميع النّاس حولهم وتقوية مركزهم سياسيًا وماليًا وتوظيف أعضائهم في المؤسّسات الخاصّة والعامّة لتسخيرها لصالح الحزب، وكان أقلّ ما يهتمّون به دعوة المسلمين (ثم غيرهم) إلى عبادة الله وحده واتباع السّنّة والنّهي عن الشرك في العبادة والابتداع في الدّين عامة، هداهم الله لأقرب من هذا رشدًا.

٥) وانتهت الدّورة فعاد الزملاء إلى المملكة المباركة، وصُمْتُ رمضان مرّة أخرى في مسجد (ديربورن)، وكان كثير من المصلّين فيه من جماعة التّبليغ، وأقيم فيه وحوله اجتماع كبير كالذي اعتادوا إقامته في غير هذا المكان، وأَذِنَتْ لهم الإدارة المحلِّيّة بإغلاق شارع مجاور واستعماله لتهيئة مكان إضافي للنّوم والطعام والطّبخ ودورات المياه، وحضر عمدة المدينة اجتماعهم وأَذِنَ لهم بالأذان خارج المسجد من مكبّرات الصّوت داخله، ولم يحتجّ على ذلك غير بعض المسلمين من جيران المسجد بحجّة الإزعاج.

سألت أمير الجماعة الأمريكي لقمان عبد العليم عن مصدر تمويل الاجتماع، فذكر أنّ أميرًا غيره هنديّ الأصل

أُرسِلَ لإدارة الاجتماع وتمويله من (كندا) وأنّه لم يطلعه على مصدر التّمويل، فالأمراء في القارة الهنديّة لا يأتمنون الأمراء المحلّيّين في بلاد العرب ولا بلاد العجم الأخرى على مثل هذا السّرّ.

٦) ودعاني بعض الإخوة الأمريكيّين من أصل عربي إلى مرافقتهم لزيارة امرأة يُرْجى إسلامها، وأظهروا الاهتمام بها لأنّها (كُوْكَيْشَنْ) بيضاء، فذهبت معهم ظنًّا بأنهم محتاجين إلى تعليمها شعائر الإسلام التي لا يكون المَرْء مسلمًا بدونها، ثم اكتشفت أنّها إنما تريد أن توسّع ثقافتها بمعرفة شيء عن الإسلام، ولكنّ الإخوة كانوا يلحّون عليها لتنطق بالشّهادتين مدّعين أنّها مجرّد أغنية، فبيّنت لها ولهم الحقيقة التي لا يجوز إخفاؤها ولا الغِشُّ ولا الخديعة في أمرها وأن الغاية: تحوّلها عن النّصرانيّة إلى الإسلام، وتحوّلها عن كلّ ما يخالف الإسلام في حياتها إلى ما يوافقه ويوافق الرّسالات والرّسل والكتب قبله في الاعتقاد، والانقياد والاستسلام لشرع الله وسنّة رسوله.

٧) وفي طريقنا إلى أمريكا في هذا السّفر مَرَرْنا (بلَنْدن)، وتعرّفنا على بعض المنتمين إلى الإسلام على طريقة صوفيّة (دَرْقاويّة) أخذها شيخهم: (عبد القادر الصوفي) من المغرب، وكانت لهم رابطة تجمعهم في (لَنْدَن) سمَّوها (زاوية حبيبه)، ثم تبرّع لهم أحد شيوخ الخليج بثمن أرض شمال إنكلترا يستعمرونها بتزكية من أحد علماء الخليج لم يفرّق بين الصّوفية

والإسلام كما لم يهتمّ الإخوة الأمريكيّون العرب في الفقرة السّابقة ببيان الفرق بين النّطق بالشّهادتين والدّندنة بألفاظ الأغنيّة، فالمهمّ: اسم الإسلام وكثرة المنتمين إليه بالحقّ أو بالباطل.

وسوَّلَتْ لعبد القادر الصّوفي وأتباعه النّفس الأمّارة بالسّوء ووسوس لهم الشيطان نشر فكرهم الصّوفي (الذي لا يقف عند حدود الرّقص والغناء باسم الإسلام بل يتجاوزه إلى فكر ابن عربي) بإنشاء مستعمرات في أوروبا وأمريكا لتحويل النّاس عن بِدَع أهل أديانهم إلى بِدَع المنتمين ـ زورًا ـ إلى الإسلام.

٨) لا أظنُّ الدّورة أهّلَتْ أحدًا منهم بعد شهرين للإمامة أو الخطابة أو الدّعوة، ولكنّها جَمَعَتْهم على اختلاف توجّهاتهم هذين الشهرين على العلم الشرعي والعمل الشرعي في مكان واحد وزمان واحد وعلى مصدر واحد قبل أن يتفرّقوا ـ كما كانوا ـ شيعًا وأحزابًا وفرقًا وجماعات. واستفاد القائمون على الدّورة (وأكثرهم من حزب الإخوان المسلمين ومن قياداتهم مثل: أحمد توتونجي وعلي جريشة وجعفر إدريس) إجازة من العمل في أمريكا على نفقة الدّولة المباركة، ولأكثرهم من سياسة التّعامل واللباقة ما يؤهّلهم لاختيارهم للعمل في الدّورات والنّدوات والمؤتمرات والهيئات والمؤسّسات الحكوميّة والخاصّة. بل لقد اخْتَرْتُ جعفر إدريس على نفسي لتقديم دروس في السّيرة لخروجي على المنهاج الذي تعوَّدوا تدريسه

في السّيرة (العاطفية والسّياسيّة)، ولعجزي عن التّدريس ولولا ذلك لما ابتغيت به بديلاً في العمل منذ تخرُّجي من كلية الشريعة عام ١٣٧٦هـ. ولم يكن بين العاملين على الدّورة من هو مؤهّل لتعليم الشريعة علمًا ومهارة غير زميلي الشيخ إسماعيل بن عتيق ختم الله له بالسّنّة والجنّة.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى أوروبا وأمريكا لتتبُّع بعض النماذج التربوية)

ذ ـ وفي عام ١٣٩٩ سافرْتُ بالطّائرة إلى أوروبا وأمريكا أَتَتَبَّع بعض النّماذج التّربويّة التي نوّه بها تقرير لجنة اليونسكو (Learning to be) وتَرْجَمَه العرب: (تعلَّم لتكون) ولعل الأولى أن يترجم: (التَّعلُّم لتحقيق الذات) حرفًا ومعنى. وبدأت بإنكلترا مع زميلي/ تاج الدّين السّوّاس (وكان خير معين لي بعد الله على تنفيذ فكرتي في إصلاح التّعليم الثانوي)، وأقمنا في نُزُل نظيف في لندن، وكانت ممرّاته مفروشة بسجاد غليظ فذكرْتُ لزميلي أن هذا السجّاد بهذه الغلظة ممّا يساعد على الاحتراق، ولم أكدْ أضَعْ رأسي على الوسادة حتى سمعت صوت إنذار الحريق، وجاء زميلي جزاه الله خيرًا يحثّني على النّزول إلى الطّريق مثل بقيّة الناس، ولكن من عادتي البطء في

التّفكير والبطء في التّنفيذ فاخترت البقاء في غرفتي ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وعاد زميلي يخبرني بالسّيطرة على الحريق: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، والتّفكير والتنفيذ في مثل حالي وضعفي.

١) وكان أهمّ ابتكار في إنكلترا: أربع مؤسّسات تعليميّة حكوميّة أنشئت في محاولة لإنقاذ الطلّاب الذين لم يتمكنوا من إنهاء المرحلة الثانوية بحيث تتيح لهم تعلّم علم أو مهنةٍ أو فنٍّ يعملون به أو يهيئ لهم مواصلة الدّراسة، وسُمِّيَتْ هذه المؤسسات (Sixth Form Colleges)، وأعطي الطالب فيها من الحرّيّة في اختيار المكان والزّمان والمادّة الدّراسيّة ما يقنعه بالعودة إلى مقاعد الدّراسة بعد إزالة العقبات التّنظيمية الرّوتينيّة التي ألزمته بتركها. ووجدْتُ في أهدافها وطُرُق تنفيذها ما وافق المشروع الذي نفّذناه في المملكة المباركة وما أعانني على إقناع الآخرين به فإنّ (الفرنجي برنجي).

٢) وفي جولتي مع زميلي تاج الدّين السّواس رأينا في كلّ مدرسةٍ مطبخًا لتقديم أكلة مطبوخة يوميًّا لكلِّ طالب، وتدريب كلّ طالب على الخدمة العامّة بأدائهم الخدمة في المطبخ ساعات محدّدة.

وأدْخَلَنا مضيّفونا إلى حيث توجد بركة للسّباحة ترفيهًا عن الطلاب وضمانًا لتعلُّمهم السّباحة، وكانت مفاجأة لنا وللسّابحين فسارع كلّ الفتيات إلى تغطية ما ظهر من أجسامهنّ

والهرب من المسبح حتى لا يراهنّ الأجانب. ويبدو لنا غريبًا أن تستحي البنات في إنكلترا من ظهورهنّ بملابس السّباحة، والشواطئ والمسابح ملأى بالكاسيات العاريات، ولكنّنا نتذكر المثل الياباني: (العُرْي لا يُرَى في الحمّام)، وما يجوز في الشواطئ والمسابح العامّة لا يجوز في المدارس بمرأى من غير أهلها، هكذا علّمهم العُرْف والعادة. وقبل قرْن كان النِّساء في الغرب يحجبن ما عدى الوجه والكفّين ولا تزال الرّاهبات يلتزمن بذلك، بل لا تزال نساء (الأيمش) و(المورمن) في مستعمراتهم الخاصّة يلتزمن به في أمريكا، وأغْرَبُ من كلّ حجاب عُرِفَ أو لم يُعرَف ما يقوله بعض الإنكليز عن قدمائهم: أنهم كانوا يُغَطّون أرْجُل الطاولات تبعًا لأرجل النّساء، بجامع التّأنيث في الفئتين، مبالغةً في السّتر.

٣) ولعلّ هذه الطريقة الجديدة من التّعليم الحُرِّ في مؤسَّسات (6th Form Colleges) الحكوميّة تأثّرت بمدرسة خاصّة أسّسها قبل نصف قرن تربوي إنكليزيّ في (سّرِيْ ـ جنوب شرق إنكلترا) سبق بها أهل عصره أو لنَقُلْ: رجع بها إلى عصر (أفلاطون) أو على الأقل إلى ما قبل عصر النّهضة الأوروبيّة وتقنين التّعليم وإخضاعه للرّوتين الإداري. وقد أعْجِبَ بها التّربويّون ولم يعمَلْ بها أحد قبل أن تقْتَبِس منها هذه المؤسّسات ما تحتاجه.

٤) والفرق بين المؤسّسة المقْتَبِسة والمدرسة المقْتَبَس منها: أن الأُولى تخضع حرّية التعليم فيها إلى تنظيم دقيق

بحيث لا تتجاوز حرّية الطالب حدود حاجته وميوله وقدرته التعليمية، أمّا الثانية فتكاد الحرّيّة أن تكون مطلقة لا يحدُّها إلاّ حقوق الآخرين وحرّيّاتهم، والأُولى يضع نظامها القائمون عليها بمرونة أكبر (لا يحصل عليها الطالب في المدارس العاديّة) تستوعب الفروق الفرديّة بين الطلاّب حسب قدر الله وإرادته لكلّ عبد من عباده، والثانية يشترك الطلاب في وضع الأنظمة وربما يستقلّون بوضع بعضها ضمانًا لتوازن الحقوق والواجبات.

٥) وسافرْتُ من (لندن) بالطّائرة إلى (كندا) حيث هيَّأ لي ممثّل الغُرَف التّجارية الكنديّة في البلاد العربيّة (السّعودية بخاصّة) زيارة عدد من النّماذج التّعليميّة الحديثة في ولاية (أَلْبِرْتا) عَدَّها تقرير اليونسكو مثالاً يحتذى في الخروج بالتّعليم من قوقعته الرّوتينيّة، وتتميّز مثل أكثر النماذج الجديدة بإخضاع التنظيم التّعليمي للاعتراف بفرديّة كلّ طالب في القدرة والمهارة والموهبة وتَمَيُّزه عن طالب آخر، وتعويده تحمُّل مسؤولية تعلّمه في المدرسة وخارجها، في الحاضر وفي المستقبل، وتنمية رغبته الذّاتيّة في التّعلُّم (التي فطره الله عليها) بل محبّة التّعلم. وتتميّز مدارس (ألبرتا) الثّانويّة بجمعها بين الفنون الأكاديميّة والتجاريّة والصّناعيّة.

٦) وكنتُ متخوِّفًا من المشي على بُحَيْرَة مُتَجمِّدة فأكّد دليلي في هذه الزّيارة أن هذا الغطاء الثلجي للبحيرة يتحمّل نزول أكبر الطّائرات المدنيّة على سطحه.

وفي آخر أيّام زيارتي للولاية دعاني دليلي إلى مشاركته العشاء في مطعم متميّز بقدم بنائه وتأثيثه وطعامه وخدمته ظنًّا منه أنّ الأصالة في المطاعم تُلائمُ رغبتي في تطوير التّعليم بالرّجوع به لما تقتضيه الفطرة والأصالة.

وجاء مُقَدِّمُ الطّعام يعرض عليّ (بصفتي الضّيف والأكبر سنًّا) أصناف الطّعام مكتوبة على لوح خشبي في أعلاه نتوء مثقوب رُبِطَ فيه خَيْط (كاللوح الذي يحمله الأطفال إلى المدرسة يتعلّمون فيه القراءة والكتابة قبل المدارس العصريّة في جزيرة العرب)، وقد رأيت مِنْ قَبْلُ لوحةً لرسّام غَرْبِيّ تدلُّ على التّشابه بين طُرُق التّعليم القديم في الشرق والغرب، وفيها يتحلّق الأولاد على الأرض حول (دكّة) المعلّم وهو يبري قلمه من القصب بسكين صغيرة، ومِنْ خلفه بعض الأطفال يشيرون إليه ويهزؤون به وهو منشغل بقلمه ومِبْراته.

ولما انتهى عرض أصناف الطعام بكثير من التَّكلُّف في القول والحركة واللباس فوجئ باعتذاري عن الأكل لأنّي تركت أَكْلَة العَشاء منذ (٢٠) سنة، وتطييبًا لخاطره طلبت كأسًا من الحليب الحارّ، فأَوْقَعْتُه في ورطة ثانية، فالنّاس لا يطلبون الحليب وقت العَشاء، ولو وُجِدَ لم يَسْهل غَلْيُه حتى انتشر استعمال (المايكرويف) وصار من السّهل غَلْيُ الحَليب في علبته الوَرَقِيَّة.

٧) ومن ولاية (ألبرتا) ركبت طائرة كنديّة إلى (فانكوفر)

من ولاية (كولومبيا البريطانيّة) وهي في أقصى الغَرْب الكندي على المحيط الهادي، ومن أهم محطات سكة الحديد والسّفن والطائرات في كندا، وتحمل اسم أول مستكشف بريطاني في المنطقة عام ١٧٩٢م. ولم يصلها السّكان الإنكليز حتى عام ١٨٦٢م، ولم يكن يمشي على أرضها قبل ذلك غير الهنود الأصليّين، وأرضها دائمة الخضرة بسبب كثرة أمطارها (١,٠٧٠ملّي م) في العام. و(بندرستريت) صورة مصغّرة من (تشاياناتاون) في (سان فرانسسكو) شمال غرب الولايات المتحدة الأمريكيّة.

٨) ومن مطار (فانكوفر) الدّولي ركبْتُ طائرة إلى (لِيْما) عاصمة جمهورية (البيرو) وسط غرب أمريكا الجنوبيّة في رحلة استغرقت (٩) ساعات، وهذه أوّل مرّة أطأ فيها أرض هذه القارّة، ولم تكن (البيرو) أحبّ بلادها إليّ فلم يكن الحُكْم فيها مستقرًا في ذلك الوقت، ولم تكن صورتها الإعلاميّة ملوّنة جذّابة مثل (البرازيل)، ولكنّ تقرير لجنة اليونسكو اختار إحدى مدارس (لِيْما) قدوة تربويّة، ويهمّني زيارتها والوقوف على أحوالها للمقارنة بينها وبين المدارس التّجريبيّة التي بدأنا العمل فيها منذ بضع سنين.

وزرتُ هذه المدرسة الخاصّة التي يديرها أمريكي شمالي منذ الصباح التّالي لوصولي، وتفقّدت النّظريّات التّربويّة التي تميّزت بها المدرسة كما يراها القائم عليها مقارنة بتقرير اللجنة

الدّوليّة، وأهمّ من ذلك الإجراءات الإداريّة والفنّيّة التّنفيذية التي أستطيع مشاهدتها أثناء التنفيذ عن كثب.

٩) وفي نهاية اليوم الدّراسي دعاني مدير المدرسة إلى مشاركته وعائلته الغداء في منزله بإحدى ضواحي (ليما ـ بِرُو).

وفي انتظار إعداد المائدة استأذنتُ مضيفي لأداء صلاة الظهر والعصر جمعًا وقَصْرًا، فانضمّ إليّ في أداء حركات الصّلاة أخو المضيف (مع أنّه من طائفة (الهِبيز) الذين لا يلتزمون بعبادة دينيّة ولا عادة دنيويّة مألوفة، بل ظهروا منذ بضع عشرة سنة تقليدًا سيّئًا لطائفة (الهوبو) وكلّ أتباع الطّائفتين لا يلتزمون بأهل ولا منزل ولا عمل وإنّما يعيشون حياتهم الحيوانيّة يومًا بيوم وبأيّ حال، وقد ينامون في العراء ويأكلون من الزّبالة، وقد يتسوَّلون طعامهم ووسائل سفرهم، ولكن الأصل خير من التّقليد، فقد اشتهر المتأخّرون بإباحيّة الفواحش والمخدّرات وأحيانًا النّهب والسّلب والعنف)، وذكّرتني صلاته معي بفلسطيني ألزَمَتْه هيئة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في الرّياض قبل عشرات السّنين بالدّخول إلى المسجد للصّلاة (ولم يكن تعوّد ذلك في الأرض المقدّسة) فدخل وهو يتمتم: (أُصلِّي للسّعوديّة بلا وضوء ولا نيّة)، والفرق أنّ الهِبي صلّى طوعًا والمنتمي للإسلام صلّى كُرْهًا، هدانا الله وإيّاهم للتي هي أقوم.

١٠) والبيرو كانت مركزًا لحضارة (الإنكا) الوثنيّة التي

امتدت إلى الأرجنتين وازدهرت قريبًا من مئة عام، ومع أنها لم تعرف (اللُّغة) المكتوبة ولا فكرة (العَجَلَة) فقد حقّقت نجاحًا لم يكن له مثيل في أمريكا فيما يتعلّق بالهندسة المعماريّة والإدارة والاقتصاد، ولكن نجاحها في استخراج الذهب والفضّة كان سبب دمارها قبل أربعة قرون على يد الأسبان الباحثين عن الثروة لمملكتهم.

ومن منجزات (الإنكا) تأهيل حيوان (اللاما) وهو من فصيلة (الجمل) لحمل الأثقال في السّفر والعمل، ويتميّز على الجمل بقدرته على تحمُّل نقص (الأوكسجين) في جبال (الأنديز) التي يزيد ارتفاعها عن (٦,٥٠٠متر).

١١) وركبتُ طائرة من (لِيما) إلى (بوِنُس آيرس) في (الأرجنتين) ولم يكن الحُكْم مستقرًّا فيها أيضًا كما لم يكن في كثير من دول ما يسمّى بالعالم الثالث ذلك الوقت، ولكن (الأرجنتين) بعد (البرازيل) أكبر دول أمريكا الجنوبيّة وتستحق الزّيارة سياحيًّا لا تربويًّا.

وبينما لا يسكن (البيرو) من العنصر الأبيض غير (١٠٪) فإن (٩٠٪) من سكان (الأرجنتين) هم أوروبيّو الأصل (من إيطاليا بخاصّة).

وتقع (الأرجنتين) مع (تشيلي) على مَجْمَع البحرين: (الهادي والأطلنطي) مثل (جنوب أفريقيا) في الجهة المقابِلة

على البحرين: (الهندي والأطلنطي). أمّا اللُّغة فتطغى على القارّة كلّها لغة محتلِّيها الأسبانيّين والبرتغاليِّين.

١٢) ويتميَّز أهل الأرجنتين وجيرانهم بحبّ التمتُّع بالحياة، وبعد الظهر كأنما يتحوَّل مركز المدينة (بونس آيرس) إلى ميدان للتَّنافس على الأكل والشرب، فلم أر في الشرق ولا الغرب ولا عند العرب ولا العجم مثل ما رأيت فيها من مطاعم ولا من هجوم جماعيّ عليها. وأغراني بمشاركتهم ما رأيته في بعض المطاعم من واجهات زجاجيّة أوقدتْ فيها النّار وحفَّ بها (يُصْلى عليها) عدد من الجِدْيان فُتِحَتْ كما تُفْتَح الكتب (ومثل ما يُفْتَح سمك المسقوف في العراق) ليسهل نضجها على حرارة النّار لا لهيبها.

ولكنّها (مثل المسقوف على نهر دجلة) يجذبك منظرها ولا يعجبك طعمها، فمع شهرة المراعي وكثرتها في الأرجنتين بحيث لا تدخل الغنم الحظائر إلاّ لجزِّ صوفها أو لتنظيفها؛ فإنَّ نسبة الدَّسَم (أو الزّنخ) تَحُول بين الطّاعم ومطعمه، وقد يكون هذا سببًا في كثرة شربهم الخمر عليها.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى جنوب أفريقيا)

١٣) ومن ذَيْل (أمريكا اللاتينية) الذي يفصل بين

محيطين ركبت طائرة إلى ذيْل (أفريقيا) الذي يفصل بين محيطين، إلى (كيب تاون) في دولة جنوب أفريقيا التي يحكمها (مثل البيرو) الأقليّة من أصل أوروبّي.

ولقد صدق العرب هذه المرّة فسمّوا الاحتلال الأوروبيّ: (استعمارًا) والحقّ أنّه (بالرغم مما صاحبه من استغلال) كان استعمارًا لكلّ منطقة حلّ بها (في القرن الماضي) فلم تَعْرِف بلاد العرب والعجم (المستعمرة بالأوروبيِّين) المدارس ولا الطرق ولا الكهرباء ولا الماء (في الأنابيب) ولا الغاز ولا البترول استخراجًا أو استعمالاً إلاّ بفضل الله ثم بفضل المستعمرين الأوروبيّين (باستثناءات نادرة مثل السّعوديّة التي حماها الله من الاحتلال الأوروبي وسخّر الأمريكيين لاستخراج ثروتها الدّنيوية من باطن الأرض دون احتلال بل بتبادل المصالح).

١٤) وعند الحجز للسّفر بالطائرة طلبْتُ أن يكون الطّعام خلال (٥) ساعات تقريبًا (كوشر) ممّا يُعَدُّ للمسافرين اليهود (وهم من أكثر الأقلِّيّات في الأرجنتين) لحرصهم على تجنُّب أكل الخنزير وما يتعلّق به من دُهْن، أو أدوات ذبحه أو نَقْله أو أكله، وكنّا في أمريكا لا نأكل إلاّ ذبائحهم فهم يبالغون في إحسان الذّبح فيُمِرُّون السِّكِّين الحادّة دائمًا على الحَلْق مرّة واحدة، ولا يجيزون الذّبح بسكّين ذُبح بها خنزير، بل ولا نَقْل الذّبيحة في سيارة تبريد اسْتُعْمِلَت لنقل ذبائح الخنزير احترامًا للمتديّنين منهم.

ورأيت في هذه الطّائرة مبالغة أخرى، فقد كُتِبَ على صينيّة طعامي: إن كلّ الأدوات المستعملة في هذه الأكلة جديدة لم تستعمل من قبل (أي الطّبق والسّكّين والشوكة والملعقة) تنطُّعًا وتكلُّفًا في تجنُّب شُبْهة أكل لحم الخنزير.

١٥) ولأن السّائحين يُسْتَثْنَون في (جنوب أفريقيا) من كلِّ ما يسمَّى بالتّمييز العُنْصري وأنّ العَرَب (عامّة) يُعَدُّون (كُوكَيْشَنْز) مثل الأوروبيّين والأمريكيّين (أو البيض) فقد بَدَتْ لي (جنوب أفريقيا) جَنَّة من جنّات الأرض (طبيعتها ومستوى المعيشة فيها وإدارتها). أمّا أكثرية سكّانها فقِصَّتُهم مختلفة (منهم وعليهم).

ومع سوء فكرة التمييز (أو الفصل) العنصري المخالفة للشّرع وللعقل السّليم؛ فإنّها في (جنوب أفريقيا) غيرها في (ألمانيا النّازيّة)؛ فهي في جنوب أفريقيا تعني عزل الأوروبيّين عن الأفارقة والهنود أو مختلطي الأصل (في الإدارة وفي الخدمات وفي المناطق كما كانت التفرقة أو قريبًا من التّفرقة العنصريّة قبلها في الولايات المتحدة الأمريكيّة). أما التّمييز العِرْقي في ألمانيا النّازية فهو مَبْنِيٌّ على خرافة سموّ العِرْق الآري الذي ادَّعت ألمانيا تميُّزها به عن الجميع (واليهود والغَجَر بخاصّة)، وعدم حقّ اليهود والغَجَر ونحوهم في مجرّد الحياة. والحقيقة أنّ نوعًا من التّمييز العِرْقي موجود بدرجة متفاوتة عند العرب وعند الهنود (الهندوس) وعند اليهود بل عند الإنكليز في

إنكلترا وفي البلاد التي استعمروها أو استوطنوها، ولم يُقاطَعْ بسبب التحيّز العرقي غير جنوب أفريقيا، ولم تُحارَبْ ألمانيا النازيّة إلا بسبب حروبها التّوسُّعيّة، وفَرِحَ أكثر الأفراد والهيئات (خلافًا للحكومات) في البلاد العربيّة بانتصارات النّازيِّين الأولى (كعادتهم المراهنة على الجواد ـ بل البَغْل أو الحِمَار ـ الخاسر)، وسقطت ألمانيا النّازية ومفتي فلسطين (تجاوز الله عنّا وعنه) بين ظهرانيها، ولم يَحْمِه من محاكمات (نورمبرك) غير الله ثم وظيفته الدّينية ومكانة بيت المقدس في نفوس المسلمين، مع أنّ العرب مثل اليهود عند النَّازيِّين عنصر مُنْحَطّ بالدّرجة السّفلى.

ولعلّ العنصريِّين البيض في جنوب أفريقيا بعد إلغاء نظام الفصل العنصري (Apartheid) وانتقال الحكم إلى أيدي الأفارقة وتردِّي الأحوال الإداريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة قد ازدادوا قناعةً بعنصريّتهم، ولكنّ السّبب في النّجاح أو الفشل الحضاري ليس العِرْق بل الفَرْق بين الأصل والتّقليد.

١٦) وجنوب أفريقيا فريدة في موقعها: محاطة بمياه المحيط الأطلنطي الباردة من الغرب ومياه المحيط الهندي الدافئة من الجنوب والشرق، وفريدة بما حباها الله من المعادن (الذّهب واللؤلؤ والبلاتين بخاصّة)، وفريدة بين دول أفريقيا بنجاحها الاقتصادي والصّناعي والزّراعي والإداري الذي يقوم عليه البِيْض (١٤٪ من السّكان)، ويعمل فيه السّود (٧٤٪)

والهنود ومختلطو الأعراق (١٢٪) بنسبة (٧٥٪) من القوّة العاملة، وميَّزها نجاحها أكثر من معادنها. وقد بدأ السّود في الانتقال إلى هذه المنطقة قريبًا من عام (١٥٠٠) وأسِّسَتْ أول محطّة لشركة الهند الشرقيّة (الهولندية) عام (١٦٥٢)؛ فالفرق (١٥٠) سنة. وثارت حروب متتالية بين قبائل الأفارقة السّابقة إلى المنطقة وبين المزارعين البيض (البُوِر) للاستحواذ على الأرض، ثم بين البُوِر والمحتلّين الإنكليز احتجاجًا على إلغاء الإنكليز الرِّقّ ومَنْح السّود والملَوّنين حقوقهم القانونيّة.

وبعد انتصار الإنكليز في حرب البُوِرْ عام (١٩٠٢) أسّسوا اتحاد جنوب أفريقيا. وبعد استقلال جنوب أفريقيا عام (١٩٣١) ازدهرت اقتصاديًّا واتجهت إلى عزل الأفارقة في عشر مناطق أُعْلِن استقلال أربع مناطق منها ولم يعترف بذلك أحد (غير دولة جنوب أفريقيا)، لأن هذه المناطق العشر لا تتجاوز (١٤٪) من البلاد ومن أفقرها. واستمرّ هذا الظلم (٤٥) سنة رغم المقاطعة العالميّة.

ثم جاء رئيس وزرائها (دي كليرك) فألغى الحظر على حزب المجلس الوطني الأفريقي وأطلق سراح زعيمه (نِلْسُنْ مانْدِلاّ)، وألغى الحظر على كل معارضة للفصل بين البيض والسُّود، وألغى كلّ قوانين هذا الفصل الظالم في بداية العقد (١٠) من القرن (٢٠) وأخرج جميع زعماء المعارضة من السِّجن.

وتميّز المُعَارض (مانِدلاّ) بِخُلُقِهِ فلم ينتقم من سجّانيه بل

تعاون معهم لتحقيق مصلحة البلاد والعباد، وأين هذا ممّا فعله الثّوّار العرب (العراق بخاصّة)؟ رغم أنّ الثوار العرب لم يُعْزَلوا مثل الأفارقة، ولم يُسْجَنُوا (٢٦) سنة مثل (ماندلاّ). وتقاسم ماندلاّ ودي كليرك جائزة نوبل للسّلام. وليس في اللون أو العرق دلالة على الخير أو الشر، وليس في أيّ منهما فَخْر لأحدٍ بحسب الشرع أو العقل فليسا مِنْ كَسْب البشر، وإنّما المِعْيار: العمل وفق شرع الله.

وطاب لي المقام في هذه البلاد الفريدة مراقبًا البيض يُديرون ويوجّهون والملوّنين ينفّذون ويعملون، وظننت أن أكثر أسبابَ الشقاء الدّنيوي سياسيّة وإعلاميّة وأحيانًا خياليّة، أكثر منها واقعية أو عقليّة أو شرعيّة.

واستمتعتُ بالرّحلات السّياحيّة إلى السّهول والجبال والشواطئ ومحميّات الحيوان، وفي إحدى هذه الرّحلات جاوَرْت سائحةً عَدَّتْ عليّ من رافَقَتْهم في شبابها من السّعوديين في جنوب أسبانيا عفا الله عنهم.

١٧) ولأني زُرْت أسفل أفريقيا (جنوب أفريقيا) وأعلاها (مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب) فقد اخترت زيارة (كينيا) في شرق وسط القارّة لأن اللغة الإنكليزية فيها (مثل جنوب أفريقيا) لغة شائعة. ومنطقة (كينيا) لم تكن مأهولة (بمعنى الكلمة) قبل القرن (١٢) الكريكوري، ثم بدأت هجرة

القبائل الأفريقية المختلفة إليها من مناطق مختلفة في أفريقيا، وكانت هذه القبائل التي بلغ عددها (٢٠) فيما بعد أشبه بقبائل جزيرة العرب: لا يجمعهم دين ولا نظام ولا حكم، وربما غزا بعضهم بعضًا واعتدى بعضهم على بعض، فالقوّة وحدها هي الفيصل، ثم جاءها الغزو الاستعماري الأوربي وتغلّبت إنكلترا على الجميع فسَمَّت المنطقة (محميّة شرق أفريقيا) ثم وحّدتها عام (١٩٢٠) على اسم (مستعمرة كينيا).

وحَكَمَ العَرَب (العُمَانيُّون بخاصّة) مدينة (مُمْبَسا) على ساحل المحيط الهندي، وقبلها تعاونوا مع الأفارقة على طرد (٢٠٠ برتغالي) احتلُّوا (مُمْبَسا) قبل طردهم بستّين سنة، وأعلنها حاكمها العماني دولة مستقلّة.

وفي عام (١٩٦٣) حصلتْ (كينيا) على استقلالها من إنكلترا، وحكمها (جوموكنياتا) الذي شارك في ثورة (الماوماو) من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦. ونشأت اللغة (السّواحيليّة) من لغة الشعوب الثلاثة الموجودة في المنطقة: البانتو الأفريقية والعربيّة والأوروبيّة، على أنّ (٩٧٪) من سكان المنطقة أفارقة ينتمون إلى (٢٠) مجموعة أو قبيلة، وقيل: (٣٥). وتتقاسم (كينيا) بحيرة (فِكْتوريا) مع (أوغندا) و(تنزانيا) وهي ثاني أكبر بحيرات العالم (وشلالاتها من أشهر الشلالات) ومساحة البحيرة قريبًا من (٧٠,٠٠٠ ك.م)، وهي مصدرٌ مهمٌّ من مصادر نهر النيل، وتختصُّ بجُلِّ بحيرة (تُرْكانا ـ رُودُلف) وطولها قريبًا من (٣٠٠

كِيل) وعرضها بين (١٠ و٣٧ كيلاً). ومن صُنْع البشر يجذب السائحين محميّة (تسافو الوطنيّة) وهي مثل محميّة (كُوْكَرْ) في جنوب أفريقيا ممّا ابتكره الأوروبيّون لحماية حيوان المنطقة من الانقراض، ويوجد مثلها (بمساحة أصغر) عدّة حدائق ومحميّات في أوروبا وأمريكا تتيح للحيوان بيئة مماثلة لبيئته الأصليّة لا تحدّها أقفاص حدائق الحيوان في المدن.

ولم أجد مكانًا يستحقّ زيارتي في نيروبي غير مسجد (مجمّع) كبير تبيّنت أنّه خاصّ بالبهائيّين، وهذه النِّحلة انتقلت إلى أفريقيا (وإنكلترا وفلسطين وغيرها) من شِبْه القارة الهنديّة.

وزرت (حديقة نيروبي الوطنيّة) وهي محميّة للحيوان بمساحة أصغر. وبعد معاناة سوء الإدارة والتأخير ركبْتُ الطائرة إلى المملكة المباركة.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى أميريكا لعلاج الوالدة)

ض ـ وفي ليلة الأول من محرّم (١٤٠٠) سافرت مع والدتي وأخي إلى أمريكا حيث لم نجد علاجًا للوالدة رحمها الله في البلاد العربية، وسألنا عن خير مركز للعلاج في العالم فاتفق الجميع على (مِيُوكلِنِك) في (روتشستر ـ مِنِسُوتا) في

الولايات المتحدة الأمريكية، وفرع له في أوروبا، وبراءة للذّمّة اخترنا الأصل:

١) ركبنا طائرة سعوديّة (بُونْك ٧٤٧) من مطار الظهران إلى نيويورك في سفر دام (١٤ ساعة) دون توقُّف، وكان أحد الأقارب من القائمين على شركة الجميح جزاه الله وجزاهم جميعًا خير الجزاء قد اتّصل بشركة (جنرال موتورز) للحجز للوالدة في مركز (مِيُوكلِنِك) لصعوبة الحجز العاجل، فاستقْبَلَنا ممثّل الشركة في نيويورك وخيّرنا في الانتقال للفندق انتظارًا لسفرنا القادم إلى (روتشستر) فاختارت الوالدة الانتظار في المطار بضع ساعات لصعوبة التّنقُّل علينا، ورقدَتْ على الأرض.

٢) ركبنا طائرة أمريكيّة بضع ساعات إلى (روتشِسْتَر) ولما خرجنا من المطار وجدنا الثلج يغطِّي كلّ شيئ لموقع المنطقة في أقصى شمال الولايات المتحدة الأمريكيّة. وركبنا ثلاثتنا سيارة أجرة فاحتجّت الوالدة على ركوبها بجوار السّائق فبينّا لها أنّ السّائق امرأة كالرّجال زادتها شدّة البرودة والعمل خارج المنزل خشونة.

ومركز (مِيُوكْلِنِك) أكثر شهرة في العالم من مدينة (روتشستر) بل من ولاية (مِنِسُوتا). وأصله عيادة صغيرة افتتحها (وليام مِيُو) وطوَّرها ابناه تشارلز ووليم اختصاصيّان في الجراحة حتى صارت (Mayo Clinic) المشهور دوليًّا.

وفي عام ١٩١٥ أسَّسا (مؤسّسة مِيُو للبحث الطبي) فرعًا من جامعة مِنِسُوتا.

وفي صباح اليوم التّالي لليلة وصولنا اتّصل بنا ممثِّل شركة (GMC) ليبلغنا أنّ المملكة المباركة قطعت اتّصالاتها بالعالم الخارجي فترة قصيرة ثم أعادتها، فالتمستُ الأخبار (وقليلاً ما أفعل) وعرفت السّبب: احتلال مجموعة من الناس المسجد الحرام، وظُنّ: إنّ (إيران الخمينيّة) وراء هذا الاعتداء الشنيع الذي لم يسبق له مثيل منذ فتنة (القرامطة)، وكانت إيران في أوّل عهد الخميني تحاول تصدير الثورة إلى المنطقة المجاورة (على الأخصّ السّعودية داعية التّوحيد والسُّنّة). واتَّصَلْتُ بأخي رَحِمَهُ اللَّهُ في مكتب الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ وعرفْتُ أنّ قائد الفتنة جهيمان.

ودَخَلَت الوالدة رحمها الله مركز (مِيُوكلنك) فور وصولها، واستأجرنا منزلاً في فندق (هُلِي دَيْ إنْ) ويربطه بالمركز الطبيّ نفق تحت الأرض يكفينا عقبات المرور والثلج والمطر أثناء انتقالنا بين الوالدة رحمها الله في المستشفى وبين منزلنا في الفندق.

وبَقِيَت الوالدة رحمها الله (يلازمها أحدنا) في (ميوكلنك) أسبوعين تحت الفحص المركّز ولم يَكتُب لها الله الشفاء على أيدي أطبائه ولا مجرّد معرفة مرضها، ومع ذلك فقد زاد إعجابها بمعاملة المختصّين الأمريكيّين (الأصل) مقارنةً بالعَرَب

(التّقليد): الأمريكي يفحص بلمسة رفيقة، والعَرَبيّ يفحص بطعنة من أصابعه العنيفة، والممرضة الأمريكيّة تحمل مصباحًا صغيرةً وتمشي بكلّ هدوء حتى لا توقظ المريض بإضاءة الغرفة أو بحركاتها، والعَرَبيّة تجمع صخب الضوء والحركة والصّوت. ولكنها اتّهمتْ طبيبًا أمريكيًا مبتدئًا بأنّه امرأة في حقيقة حاله، واتّهمتْ ممرّضة زنجيّة بأن معاملتها للمرضى معاملةٌ (عربية) أي: سيئة.

وفي رحلة العودة من نيويورك للظهران لم تَحْتَجْ طائرتنا أكثر من (١٢) ساعة ونصف بفارق ساعة ونصف عن رحلة القدوم بسبب مقاومة الرّياح أو مساندتها. وبتقدير من الله وصلنا ليلة تطهير المسجد الحرام من المعتدين كما سافرنا ليلة الاعتداء عليه، ولو كان لنا الخِيَرة من أمرنا ما اخْتَرْنا غير ذلك، والحمد لله على كلِّ حال.

❁ ❁ ❁

(السفر إلى باكستان وأفغانستان)

ظ ـ وفي عام (١٤٠٠) أيضًا طَلَب منّي ثلاثة من الإخوة مرافقتهم إلى الحدود الباكستانيّة ـ الأفغانستانيّة لتسليم رؤساء الأحزاب الأفغانيّة إعانةً من المملكة المباركة (اختارَتْهم لتسليمها إمارة الرّياض) ظنًّا منهم أنهم سيحتاجون إلى من

يتكلم الإنكليزيّة، فقَبِلْتُ طلبهم بشرط أن أتحمّل نفقة سفري وإقامتي هناك لأني غير موفد (رسميًا)، ولا حقَّ لي في إعانة الأمير سطَّام إياهم على السَّفر.

١) سافرنا بالطَّائرة إلى (إسلام أباد) برفقة السّفير السّعودي حسب توجيه الإمارة، وقدَّر الله عليه الموت قبل عودة الوفد، فعُدْتُ مع جثمانه على طائرة عسكرية سعوديّة كانت هناك ضمن الطائرات التي تصل يوميًا تَحْمِل إعانات عسكريّة للمقاتلين ضد الشيوعيين (حسب علمي)، رَحِمَهُ اللَّهُ وخلفه على أهله بصلاحهم.

وقابلنا زعماء الأحزاب في ذلك الوقت، وكانوا ستّة: حكمتيار، وربّاني، ومجددي، ومحمد نبي محمد، ومحمد يونس خالص، والكيلاني، ولم يكن (سيّاف) استقلّ بحزب، ولم يوجد داعٍ لذلك (إلاّ زيادة نصيب قائده: حكمتيار من الإعانات المتتالية ربما) فحكمتيار وسيّاف سياسيّان يعملان لصالح حزب واحد ولو انفصلا ظاهرًا، وربّاني غير بعيد عن منهجهما وإن استقلّ عن حزبهما، والأربعة الباقون صوفيّة. ولم يكن بينهم داعٍ إلى الله على بصيرة حتى ظهر (جميل الرحمن) رَحِمَهُ اللَّهُ فرفضه بل حاربه الحزبيُّون (المرتبطون بحزب الإخوان المسلمين): حِكْمَتْيَار وسيّاف على الأخصّ، وكان (جميل الرحمن) رَحِمَهُ اللَّهُ متميِّزًا بين الأحزاب بِعَقْدِ لواء جهاده وأتْباعه على إفراد الله بالعبادة والتزام السُّنة. (واختارني الشيخ

ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ أو أخي صالح ـ بعد ذلك ـ للاشتراك مع ممثل لحزب الإخوان المسلمين الشيخ (عبد المجيد الزّنداني) للتّحقيق في هذا الأمر مع المعنيِّين على الحدود الباكستانية الأفغانية ولكني بعد الاجتماع بالزنداني أكثر من مرّة وجدته متعصّبًا لحزبه إلى درجة لا تمكِّنني من القيام بهذه المهمّة فتركت الأمر لأخي الذي وجد من تعصّب (سيّاف) كذلك ما قضى على أيّ أمل في الإصلاح) تجاوز الله عنّا وعنهم.

٢) لم يكن بين رؤساء الأحزاب من يعمل داخل أفغانستان باسم الجهاد غير (جميل الرحمن ويونس خالص)، ولم يكن بينهم من يهتمّ بالدّعوة إلى الله على بصيرة (وآخر مراحلها الجهاد الحقيقي لتكون كلمة الله هي العليا) غير (جميل الرحمن)، وانتهى الأمر بمخالفيه من الحركيِّين والحزبيِّين إلى قتله رَحِمَهُ اللَّهُ وأسكنَه الجنة.

٣) حاولنا جمع كلمة رؤساء الأحزاب على كلمة الله (أو بالأقل على اسم الجهاد) فلم نَسْتَطِع تحقيق ذلك ولا الاقتراب منه، كان كلّ حزب بما لديهم فرحين كما ذكر الله عن عباده الذين فرّقوا دينهم وأمّتهم بتعدُّد الفِرَق والأحزاب والجماعات؛ فلم يكن بدٌّ من تقسيم الإعانة على خمسة أحزاب، أمّا رئيس الحزب السّادس فكان غائبًا عن القسمة وعن المنطقة منشغلاً بجمع الإعانات في دول الخليج لصالح حزبه، فَوَكَلناه إلى سَعْيه، وكان أقل زملائه التزامًا باسم الدِّين وسَمْتِه فضلاً عن فقهه.

٤) أما السّفارة السعوديّة فيبدو أنَّها وَجَدَتْ سبيلاً لتوحيد الأحزاب (في الظّاهر إلى حين) بإصرارها على ألاّ تسلّم الإعانات اللاّحقة إلاّ لرئيس الاتحاد بعد الاتِّفاق عليه، وكم مرّة سمعنا عن تحقُّق الاتحاد وتعيين رئيس له ثم انفضّ الاتحاد بعد استلام الإعانة وتقسيمها، فلم يكن اتحادًا على تحكيم شرع الله، ولا على الدعوة إلى أحكامه لتكون كلمة الله هي العليا، بل على تحصيل المال ثم يعود كلُّ حزب إلى مذهبه السِّياسي أو الصوفي، وظَهَرَت النتيجة الفاسدة للجميع بعد انتهاء الحرب.

٥) وقاوم السياسيُّون والمتصوِّفة إعطاء صِفَة الحزب لجميل الرحمن وأتباعه مع أنّهم ـ وحدهم ـ أهل لذلك (بجَعْل قاعدة دَوْلتهم الكتاب والسُّنة وفقه الأئمة الأُوَل في الدِّين)، وتولّى كِبْر ذلك حزب الإخوان المسلمين المبتدع في دول الخليج، وقد سعى الحزب منذ البداية (كعادته) لاستغلال الاقتتال الأفغاني حتى سُمِّي أحد قادته (قائد المجاهدين العرب في أفغانستان) تجاوز الله عنه وعنهم.

٦) ولم يجد الإخوة الموكّلون بالإعانة حاجة لوجودي؛ لأن رؤساء الأحزاب الذين التقينا بهم يتكلّمون العربيّة ولا يحتاجون إلى مترجم، ولو احتاجوا إلى ترجمة فلن تكون للإنكليزيّة غالبًا، ولأني خضَعْتُ لفطرة الله التي فطر النّاس (وأكثر الحيوان والطير) عليها: النّوم (من بعد صلاة العشاء)

والإخوة العرب والأفغان لا ينشطون للحركة والحديث إلاّ بعد العشاء، ولأني لم أرَ فائدة من استماعهم وتسجيلهم لما يقوله رؤساء الأحزاب الذين لن يقولوا (غالبًا) إلاّ ما يرضي من يطمعون في أموالهم، ثم أمات الله السّفير رَحِمَهُ اللَّهُ في نومه ليلاً فصحبْتُ جسده إلى الرِّياض.

❁ ❁ ❁

(الانتقال إلى الشام للدعوة)

غ ـ بعد أن نجح مشروع المدارس التجريبيّة لتعديل هيكل التّعليم الثانوي بدرجة أقنَعَتْ وزارة المعارف بتعميمه (بعد تطويره بصورة انتهت به إلى الزّوال) رأيت الاستجابة لطلب الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ انتقال عملي للدّعوة خارج المملكة المباركة بعد امتناعي عامًا ونصف عام بعُذر ارتباطي بهذا المشروع، واختار الله لي الخير كالعادة:

١) أُخْتِيرَتْ لي الأرض المباركة (بلاد الشام) فسافرتُ بالسّيارة إلى الأردن في ١/ ٧/ ١٤٠١ سفرًا تكرّر واستمرّ أكثر من (٢٢) سنة متنقّلاً بالسّيارة بين المملكة المباركة وأرض الشام (الأقلّ بَرَكة) نحوًا من (١٥٠) مرّة قاطعًا المسافة بين الأرْضَين بما لا يقل عن (١,٦٠٠كيل) في كلِّ مرّة، وبين بلاد الشام نفسها مرّات لم أحصها عددًا ولكنها صغيرة بالمقارنة

بجزيرة العرب، ولم أتجاوز بلاد الشام إلاّ مرّة إلى تونس بالطائرة لحضور اجتماع عربيّ تربويّ، ومرّة إلى مصر بالسّيّارة لزيارة بعض الإخوة الدُّعاة، ومرّة إلى أوروبا بالسّيّارة لزيارة مكتب الدعوة في لندن، ولكنني اضطُررتُ للعودة من شمال سويسرا، وقد يأتي الحديث عنها بَعْدُ.

٢) ولما كانت لبنان تعاني من الحرب الأهليّة الفتنة التي لا يَعْرِف فيها القاتل أحيانًا مَنْ قَتل ولا المقتول فيم قُتِل، وكانت سوريا تعاني من فتنة (حزب الإخوان المسلمين) في حماة ثم في كلّ مكان، وكانت فلسطين تعاني من اليهود ومن أهلها وما زالت تعاني الأمرَّيْن؛ لم يبقَ إلاّ الأردن، فاتّخذت عمّان منزلاً، ورفض السّفير يومها ارتباط الدّعوة بالسّفارة ناسيًا أو جاهلاً أنّ الدّولة المباركة التي انتدبَتْه وانتدبَتْني قامت على الدعوة ولا تزال تَحْميها وتَنْشُرها في القرون الثلاثة الأخيرة فضلاً من الله. ونِعْم اختيار الله لعبده؛ فتحرَّرت من القيد الزّمني والقيد المكاني الرّوتيني من جديد، واتّخذت منزلي مكتبًا ومَجْلِسًا للدعوة والدُّعاة بلا تكلّف ولا مظاهر كما كانت الدعوة قبل القَرْن الأخير، وحين توجد المشكلات الأمنيّة أنقل الدعوة والدّعاة إلى المسجد تحت بصر وسمع الجميع، وكنت أُهْدِي نسخةً من مطبوعاتنا لمن أستطيع الوصول إليه من رجال الأمن في بلاد الشام، ودعوت الجهات المسؤولة (الأوقاف أو الإفتاء) للمشاركة في الإشراف على دعاتنا والاستفادة منهم في الدعوة

والإمامة والخطابة، ومع ذلك فلم يَسْلَم منزلي من تسلُّل الأمنيّين في غيابي وتفتيشه في بلدين من بلاد الشام، والسّؤال عنّي في كلّ مكان، هداهم الله.

٣) وكنت أستَقْبِل الزّوار من الدّعاة، وطالبي الشفاعة للقبول في الجامعات، والرّاغبين في الكتب والإعانة الماليّة من بعد الشّروق إلى أذان المغرب، ثم أُرابط في المسجد إلى أن أؤدّي صلاة العشاء ثم أعود إلى البيت وأقطع وسائل الاتّصال حتى شروق شمس اليوم الثاني، ومرّة واحدة وصل ابني من السّفر على غير موعد فوجد نافذة غير محكمة القفل ووجد المفتاح على الباب من الداخل، فتدبّر أمره، ومرّة واحدة وصل أخي من السّفر على غير موعد فاضطُرّ للنوم عند مؤذّن المسجد المجاور.

٤) وعندما تدعو الحاجة إلى تفقّد جمعيّةٍ أو مسجدٍ أو فردٍ طَلَبَ الإعانة من إحدى مدن أو قرى الأردن أَصْطَحِبُ أهلي في جولة حول الدّولة تبدأ مع الشروق وتنتهي مع المغيب، وقد أعانني الله بتحمُّل (بل هواية) السّفر بالسّيارة فلم أترك مكانًا في هذه البلاد لم أزره، حتى ليدّعي بعض أهلها أني عرفت منها أكثر مما عرفوه. والأردن على صغر مساحتها (مقارنةً بالسّعودية أو مصر أو سوريا أو العراق) تضم خمس مناطق مختلفة أكبرها: الصّحراويّة (٨٠٪)، والسّاحليّة على خليج العقبة، وغور الأردن (من ١٠٠ إلى ٤٠٠ متر تحت مُسْتوى سطح

البحر)، والمرتفعات (أعلاها: راس منيف ١,٢٥٠متر)، ومناطق الأحراج والغابات والجبال التي تُغطِّيها الثلوج بعض أشهر الشتاء مع أنّ معدل ارتفاعها لا يتجاوز (٩٠٠ متر). ومع أنّ منزلنا الآن في الطائف يرتفع (١,٦٥٠متر) فوق مستوى سطح البحر فإنّه أقلّ برودة للفرق بين مواقع الشمال والجنوب والبُعْد والقرب من خطِّ الاستواء. ويُتَوَقَّع المطر في الطائف وغيره من مرتفعات السّعوديّة (وهي أكبر من مساحة الأردن كاملة) يُتَوَقَّع المطر في عزِّ الصّيف ولا يُتَوَقّع في بلاد الشام إلاّ في أشهر الشتاء، وبعض أشهر الخريف والرّبيع نادرًا.

٥) وعَلِمَ الله حاجتي إلى وسيلة للسّفر مهيئةٍ أكثر من السّيّارة العاديّة لملازمتها (١٢) ساعة في اليوم ـ أحيانًا ـ يتخلّلها الوضوء والصّلاة والطّعام فقادني على غير قصد منّي إلى معرض سيارات إنكليزيّة، ولمحت سيارة غريبة الشكل كُتِبَ على مُقَدّمتها (Auto sleeper) أيْ: عربة نوم آليّة، صغيرة الحجم بحيث تستعمل لأغراض متعدّدة وتدار بالدّيزل، وتحوي مطبخًا، وثلاّجة، وخزانة ملابس، وخزائن للآنية، وخزّان ماء متّصل بمضخة صغيرة تفتح بمجرّد فتح الصّنبور، ومنضدة للأكل، وسريرين معلّقين للأطفال، وتتحوّل مقاعد السّيارة عند الأكل للأكل وعند النوم للنوم، ويرتفع سقف السيارة عند الحاجة ليمكن للرجل العادي المشي داخلها براحة.

ولا زلت أستعملها في الطائف وضواحيها وبين الطَّائف

ومكّة، بعد مرور ربع قرن على تاريخ صنعها، فأدَّعِي أنْ لو كانت امرأة لـمَلأت البيت عيالاً فيما لو كان زوجها أحد صديقين (سلفي وتبليغي) بلغ عدد أولاد وبنات كلٍّ منهما (٣٠) قبل أن أتوقَّف عن العدّ، هداهم الله جميعًا إلى منهاج النّبوّة. فصرنا نطبخ ونأكل فيها أو نقف عند المطعم فلربما قلنا: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، وننام فيها أيامًا تبلغ عدد أيام الشهر أحيانًا عندما لا نملك منزلاً في المنطقة، وفي أحد أيام الشتاء الباردة في دمشق تفقّدت مقياس الحرارة فوجدتها (٣) درجات مئوية تحت الصِّفر؛ وأشعلنا الموقد وشربنا بضعة أكواب من الحليب ما ألذّها وأدفأها، ورأينا النّزول في فندق مدفّأ مركزيًّا، فأفْقَدَتْنا شدّة التدفئة لذّة الأكل والشرب والدّفء فعدنا إلى المخيّم.

وربما توضأنا وصلّينا داخل السّيارة عند الحاجة. وسمّيتها (البعير) لسموّها وخشونتها.

٦) ومع محاولاتي المستمرّة إطلاع المسؤولين في البلد الذي أعمل فيه على منهاج الدّعوة الذي نلتزم به شرعًا وهو منهاج النّبوّة وإبلاغهم استعدادي للتّعاون مع الأوقاف والإفتاء في اختيار وتوجيه الدّعاة والإشراف عليهم بشرط واحد: الدعوة بالأحكام الشرعيّة إلى الأحكام الشرعيّة اعتقادًا وعبادة ومعاملة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، دون تعصُّب ولا تحزّب ولا عنف ولا خوض في السّياسة الرّخيصة

غير الشرعيّة، رغم كل ذلك فلم أسْلم ولم تَسْلم الدعوة ولم يَسْلم الدُّعاة من المضايقات الأمنيّة المبنيّة على سوء الظّنّ، وسوء الظّنّ ـ كما يقول أحد الأمنيّين الإنكليز في مذكّراته بعد تقاعده عن العمل ـ هو أهمّ أساس يقوم عليه العمل الأمني، ولولاه لما وُجِدَتْ وظائف لأكثر العاملين في المؤسّسات الأمنيّة، هذا في إنكلترا (الأصل) فكيف به في العالم الثالث المقلِّد؟

٧) وبعد احتلال حزب البعث العراقي الكويت وما صاحبه من فتنة جرّت كثيرًا من العرب على شرقي نهر الأردن وغربيّه (بخاصّة) إلى الفرح بهذا الحدث الشنيع وتأييد الظالم والشماتة بالمظلوم، وجمعتْ إسلاميّهم وشيوعيّهم، متعلِّمهم وجاهلهم على مفارقة الشرع والعقل، كان لا بدّ من التنقل في بلاد الشام الأخرى؛ فاخْتَرْتُ صرف وقت أكثر للعمل والإقامة في دمشق لأن الدّولة السّوريّة لم تؤيّد العراق بل أرسلت بعض قواتها للاشتراك في تحرير الكويت فلم يتمكّن المخدوعون بزيف الاحتلال ومؤيِّدوه من إظهار مناصرتهم له في سوريا.

وكانت الحرب الأهليّة في لبنان تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد اجتماع الطائف الذي وافق فيه قادة لبنان على دخول الجيش السّوري لفَرْض الأمن وصَرَفْتُ وقتًا أكثر للإقامة والعمل في لبنان.

٨) ولبنان يختلف عن بقيّة البلاد العربيّة من حيث قوّة

صلته بالثقافة الغربيّة، وبالتّالي اتساع المساحة لحرّيّة العمل الدّيني والدّنيوي، ولو أنّ الحرب الأهليّة وأسبابها الطائفيّة قد حدّت من هذه الحرّيّة شيئًا.

قبل الحرب لم تكن هناك في لبنان دعوة سلفيّة تذكر؛ بل كان أكثر الناس منصرفين إلى المشاركة الدّنيويّة في تميّز لبنان الثقافي والتّجاري والسّياحي. وعُدت إلى لبنان بُعيدَ انتهاء الحرب فوجدت شيئًا لم أعهده فيها قُبَيْل الحرب: طلَّاب العلم الشرعي (بدليله) يتطوَّعون بالجلوس في حِلَق العلم على مُعَلِّمين يتطوَّعون بالتّعليم ويَدْعون إلى الله على بصيرة، والطالب والمعلّم في سنٍّ متقاربة.

٩) وشجّعني هذا الاتجاه العلمي الجديد المبرّأ من مُغْريات الطائفية والحزبيّة الدينيّة؛ فخرجت للمرّة الأولى والأخيرة عن أسلوب الدعوة في عصر النّبوّة والصّحبة، إذ وجدتُ عددًا من صغار الطلَّاب يقومون على مؤسّسة صغيرة أهليّة تطوُّعيّة للدِّفاع المدني ظهرت الحاجة إلى وجودها أثناء الحرب؛ إذا انقطعت المياه مثلاً في المنطقة أعانوا من يحتاج عونهم (من أيّ فئة) بنقل المياه إليهم، وربما طلبت الشرطة منهم الإعانة في نقل جثة غريق أو قتيل إلى المقابر، ونحو ذلك، وفي فترات السِّلم يجتمعون على طلب العلم في حدود استطاعتهم الضيّقة.

وقبلْتُ التّعاون معهم أولاً بشراء شقة للمؤسّسة، ثم

بشراء سيارة إسعاف بتمويل من شركة الجميح القابضة جزاهم الله خير الجزاء، والقائمون على الشركة من خير من عرفت من التّجار معرفةً بشرع الله واهتمامًا بالدّعوة إلى إفراد الله بالعبادة والسّنّة وإنكار الشرك والبدع الأخرى في الدّين، وبراءةً من أشراك الحزبيّة المبتدعة باسم الإسلام التي وقعت فيها شركة للصّرافة من أكبر الشركات الماليّة في المنطقة بل في العالم، وبراءةً من فِرَق التّصوُّف والإرهاب والفتن التي تموِّلها شركات أخرى مما استخلفها الله فيه من أموال بلاد الدعوة إلى التوحيد والسُّنّة، ولا زالت شركة الجميح القابضة تموّل نحو (٨٠) من دعاة بيت الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ (بعد أن توقّفت الإعانات عن بقيّتهم) إضافةً إلى أكثر من (٦٥) أتولى الإشراف عليهم، وبدأ تمويل الفئتين قبل بضع عشرة سنة باقتراح منّي للشركة خلف الله نفقتها بالبركة.

١٠) وتعاونتُ مع الإخوة في جمعيّة الدّفاع المدنيّ على تأسيس (وقف للعلم والدّعوة والخدمة) ضمّ الدّفاع المدني والدّروس الدّينيّة وإذاعة (FM) لبثّ أشرطة العلم الشرعي، وتمّ تركيب أجهزة البثّ الإذاعي وشراء شقتين للإذاعة والمكتبة وقاعة الدّروس تعاونت على تمويلها مع شركة الجميح القابضة وجمعيّة إحياء التّراث بالكويت، جزاهم الله جميعًا خير الجزاء وأجزل الثواب.

واجتمع أمران على إعاقة استمرار الإذاعة والوقف،

أحدهما: صدور نظام جديد للإعلام في لبنان بعد الحرب قضى على أكثر مؤسّسات البثّ الإذاعي والتلفازي الأهليّة التي لا تحمل ترخيصًا رسميًّا، وثانيهما: طمَعُ من اشْتُريت الشقق باسمه في الاستحواذ عليها، فتوقفت الإذاعة عن البثّ (بعد أن أخلّ الفنِّيّون القائمون عليها بشرط تخصيصها لدروس العلم الشرعي من كبار العلماء) ثم نشب شقاق بين الإخوة حول إرث الأجهزة والأثاث (التي تصرّف فيها أحدهم منفردًا عنهم) وأهمّ من ذلك إرث الشّقق الثلاث، وكنتُ أحاول وضعها تحت إشراف مفتي الجبل (ولا زلت دون نجاح يذكر) خوفًا من استمرارها شَرَكًا لاصطياد التَّبرُّعات. والحقّ أنّ كثرة المال وكثرة الأدوات وكثرة الأنظمة تعوق الدعوة إلى الله أكثر مما تفيدها، وتفتح منافذ للشيطان ليبذر بذور الخلاف بين الدُّعاة، وطَمِعَ بعضهم في التّعدِّي على الحق المشترك ومحاولة صرفه لمصالح فرديّة، هدى الله الجميع بهداه.

١١) وكنتُ أرغبُ ـ بطبعي ـ عن التّكلُّف، وهذا أحد الأسباب التي حبَّبَتْ إليّ يومًا أسلوب جماعة التّبليغ، ولولا فساد منهاجها وضلال قادتها، وتعصّب الأتْباع لهذا المنهاج وهؤلاء القادة لكانت خير خلف لخير سلف.

وثَبَتُّ ـ بفضل الله ـ على منهاج النّبوّة والخلافة الراشدة المهديّة في الدِّين والدّعوة كما أنزل الله بهما الآيات المحكمة في كتابه، وكما بيّنتهما السُّنّة الصّحيحة، وكما فقههما أئمة

السّلف المعتدّ بهم في القرون المفضّلة؛ فلا التزام بمنهاج غير منهاج الوحي، ولا اتّباع لسنّةٍ غير سنّة النّبيِّ ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديِّين، ولا انتماء لاسْم ولا رسْم ولا حِزْبٍ ولا شِعارٍ مُحْدَث خاصٍّ يعزل بعض المنتَمين إلى الإسلام والسُّنّة عن الجماعة والإمامة.

١٢) ولم أرْضَ لنفسي ولا للدعوة التي شرّفني الله بخدمتها ولا للدُّعاة الذين شرّفني الله بخدمتهم: الانشغال بظنّ الفكر (الموصوف زورًا بالإسلامي) عن يقين الوحي والفقه فيه من أهله في الزّمن الذي شهد النّبي ﷺ له بالخيريّة، والانشغال بالنّافلة عن الفريضة؛ فحذَّرْتُ من انتشار الانشغال بتحفيظ القرآن (حتى لو لم يُتَّخَذْ مطيّة لأغراض حزبيّة أو ماليّة) عن تدبُّره وهو الفريضة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وحَذَّرْتُ من المبالغة في الالتزام بما يسمّى أحكام التجويد ودعوى حتميّة الأخذ بها، ولم يرد بذلك دليل شرعي. [انظر كتاب «العلم» ص ١٧١ للشيخ ابن عثيمين وفتوى الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما ورد عن الإمام أحمد من كراهيته لبعض هذه [الأحكام] مثل الإدغام الذي يمنع النّطق بحرف أنزله الله ويجزي به عشر حسنات) والإخفاء أسوأ، وحذَّرْتُ من بدعة ما سُمِّي: (الإعجاز العلمي في القرآن) الذي يربط تأويل كلام الله اليقيني بنظريّات الملحدين الظنّيّة. وحذّرتُ من القول على الله بغير علم بتفسير بعض الكتَّاب والأطبّاء

والقصّاص كتاب الله، وأشهر التّفاسير المفتراة: (في ظلال القرآن لسيّد قطب). وحذّرتُ من التّفرُّق في الدّين والدّعوة باسم الدّين والدّعوة. وأخيرًا حذَّرتُ من الفتنة الجديدة: (موقع ومؤسّسة ومجلّة: الإسلام اليوم) التي تُجْلِبُ بخيلها ورَجِلها، وأموال المحسنين الجهلة بشرع الله، وفِكْر بعض المفتونين الفاتنين الذين أَخْفَقُوا في الخروج الصّريح على الجماعة والإمامة في العقد الماضي ـ بفضل الله ـ فلجأوا إلى الخروج المتستّر بمحاولة هدم القاعدة العظيمة (التي أقام الله عليها هذه البلاد والدّولة المباركة): فِقْه السّلف الصّالح في الدّين (وهو سبيل المؤمنين)، والبناء على فكرٍ رخيص مبتدع باسم الاجتهاد (من غير أهله)، والتّعدُّديّة والصّفاء النفسي (وهما لفظان أجنبيَّان عن سبيل المؤمنين لا وزن لهما في الوحي ولا في الفقه الأوّل فيه). ولا يجعل القائمون على هذه الفتنة والباب الجديد من أبواب الشرّ (ولو بمجرّد الادّعاء) أكبر همِّهم ما أرسل الله به كلّ رسله من الأمر بإفراد الله بالعبادة والنّهي عن الشرك وما دونه من الابتداع في الدّين، ولا التّفقُّه (أو التّفقيه) في الدّين (بل طَمْسه جهلاً بدعوى فقه الحركة والواقع والموقف والمرحلة، هدانا الله وإيّاهم لأقرب من هذا رشدًا بالرُّجوع إلى الإسلام العتيق) الذي كان عليه النّبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.

١٣) وحذَّرْتُ (مما هو دون ذلك) من الالتزام بما تعوّد المنتمون إلى الإسلام الالتزام به تَعَبُّدًا ولم يشرعه الله أو خالف

شرعه من التّباهي بزخرفة المساجد والمصاحف، وتعدّد المآذن، وإضافة القباب والأقواس الكنسيّة البيزنطيّة إلى بناء المساجد وتسْمِيتها (زورًا): عمارة إسلاميّة، وفَصْل مُصَلّى النّساء عن مصلّى الرجال بحيث لا ترى المأمومة إمامها ولا من وراءه تَنَطُّعًا واستدراكًا على السُّنّة، والوصل بين الآيات في التّلاوة بحجّة إظهار المعنى (وقد فصلها الله ورسوله)، وإطالة الخطبة يوم الجمعة وتقصير الصّلاة خلافًا للسُّنّة، وصرف خطبة الجمعة (وهي عبادة مفروضة) إلى أخبار الحوادث والطوارئ الظّنّيّة عن تعليم أحكام الشريعة اعتقادًا وعبادة ومعاملة، والسّجع المبتدع في دعاء القنوت وخطبة الجمعة وكتب العلوم الشرعيّة، ومثلها كثير.

١٤) وجَعَلْتُ أكبر همّي الالتزام بمنهاج النّبوّة، والتّذكير به (لِما رأيت من انصراف أكثر المنتمين إلى الإسلام والدعوة عنه) بتهذيب ونشر الكتب الشّرعيّة المتعلقة أولاً بأركان الإسلام والإيمان فما دونها مقترنة بالتّحذير ممّا يخالفها وبالدّليل من الوحي والفقه فيه من أهله قبل كلّ أمر وكلّ نهي، وبنشر المقالات وكتابة الرّسائل بيانًا للحقّ وردًّا للباطل بالحكمة والموعظة الحسنة.

١٥) ولم أجد في بلاد الشام (ولا غيرها) مصداقًا للشائعات التي يَفْتَرِيها ويَرْكَبُها دعاة الحزبيّة والحركيّة إلى مآربهم الدّنيويّة (من أنّ الدّولة تخاصمهم وتقاتلهم على الدّين)

وإنما تخاصمهم ويخاصمونها وتقاتلهم ويقاتلونها على الدّنيا وعلى كراسي الحُكْم.

بل وَجَدْتُ من كبار قادة الإخوان المسلمين في الأردن من ينشر تراث جَدِّه الصّوفي ويذبح لأمه عند وثن سُمِّي باسم النّبي شعيب، بينما يأمر ملك الأردن بهدم تمثال أقيم له (تأسِّيًا بتمثال أقامه المنتمون إلى الإسلام لصلاح الدّين على فرسه) ويوصي الملك بمنع البناء على قبره. وجُلّ البِدَع والشركيّات يقترفها المحكومون وقد يَسْكُت عنها الحاكمون إرضاءً لهم، أو رضىً بها لأنّ حاكمهم منهم بَشَرٌ مثلهم ليس بجنِّيٍّ ولا مَلَك. وأكبر دليل على أن فساد المحكوم يسبق أو يغلب فساد الحاكم أن حكام روسيا السّوفيتيّة كانوا يمنعون المسلمين من بناء أوثان المقامات والمزارات لأنهم لا يؤمنون بالدّين الحق ولا الدّين الباطل، وبعد استقلال ما يسمّى بالجمهوريات الإسلاميّة أخذ شيوخها (لا حكّامها) يجمعون التّبرعات لتدارك ما فاتهم من بناء الأوثان.

١٦) وكذلك الطّائفيّة في لبنان لا تعوق الدّعوة الصّحيحة ـ فيما رأيت ـ لأن كلّ طائفة تدرك أنّه لا بدّ لها من التّعايش مع بقيّة الطّوائف، ولم أسمع مرّة واحدة شيعيًّا يسبُّ صحابيًّا (ولو بأدنى من سبّ سيّد قطب تجاوز الله عنه معاوية وعمرو بن العاص وغيرهما رضي الله عنهم وأرضاهم) مثل جهر شيعة العراق بالسّوء.

وقُلْ عن النّصارى خيرًا من ذلك؛ فقد كنتُ عائدًا بعائلتي من شمال لبنان إلى منزلنا في جنوبه ليلة الانتخاب الأوّل بعد الحرب، وكان النّاس متخوِّفين من عواقب مقاطعة القوات اللبنانيّة النّصرانيّة لهذا الانتخاب، وكنت حريصًا على العودة إلى المنزل قبل الليل وحذِرًا من التوقف في (جُونْيه) معقل القوّات، فأراد الله أن تتعطّل سيّارتنا أمام مركز القوات اللبنانية قبل المغرب بساعة، فنفَشْتُ لحيتي ووقفت على الطّريق العام لعلّ سلفيًّا أو صوفيًّا أو تبليغيًّا يلبّي طلبي المساعدة، أما الإخوانيّ والتّحريريّ فليس توفير اللحى من سماتهم. وغربت الشمس فنزل النّساء والأطفال للصّلاة على حصير حملناه لهذه الغاية. وبعد الصّلاة طلبت العون من الله ثم من القوات اللبنانية، فجاء ميكانيكي منهم يحاول إصلاح السّيارة فلم يفلح، ولكنّه استمرّ في المحاولة. وفجأة توقفت سيارة بجانب سيارتنا ونزل سائقها يشارك الميكانيكي محاولته (دون أن نطلب منه ذلك). وبعد فترة جاء إليّ القادم المتطوّع، وأخبرني أنهما أخفقا في إصلاح السّيارة ولكنّه سيجرُّها إلى منزلنا، وأخرج حبلاً مصنوعًا لهذا الغرض، فأخبرته أن المسافة (٥٠كيلاً) فلم يثنِه ذلك عن عزمه، وعاد لسيّارتي يهيئها للجرّ، وكأنّه تذكّر شيئًا فكرّر محاولة الإصلاح فوفّقه الله لمعرفة الخلل وإصلاحه ولكنّه قال: الإصلاح مؤقّت وقد تتعطّل السّيّارة مرّة أخرى ولذلك فسأرافقكم بسيارتي إلى منزلكم، فشكرته ورفَضْتُ عرضه رفقًا

به جزاء إحسانه، وأخرجتُ مالاً ليأخذ أجْرَتَه فضحك وقال: (الظاهر أنك لم تعرفني.. أنا أبُونا) أي: القسّيس، فقلتُ في نفسي: يا ليت (أبونا) المسلم يكتفي بالأجرة العادلة، ولكنّي تعوّدت منه طلب أضعاف ما يستحقّ، وقد عرفت بعض الإخوة المنتمين إلى السُّنّة الصّحيحة لا ينشطون إلاّ للتّحايل على سلب مال الخليجيّين بدون حقّ ثم يعودون إلى حال تذكّرني بقصّة يرويها الأصمعي عن أعرابي كسول وجده في الصّحراء عاريًا يتفيَّأ ظلّ شجرة وثوبه تلعب به الرِّيح فوقها، فسأله خَبَره فأخبره أنه ينتظر أن يرزقه الله زوجة، فقال: هل سعيتَ إليها، فقال: لا، بل سعيت إليه فاستغثتُه ببيتين من الشعر:

لعلّ الله أن يأتي بليلى
فيطرحها ويلقيني عليها
ويأتي بعد ذاك سحاب مُزْنٍ
يُطهِّرُنا ولا نسعى إليها

١٧) وعن طائفة الدّروز كتب عبد الرحمن الراشد في جريدة الشرق الأوسط أن وليد جنبلاط قائد الدّروز السّياسي في مقابلة معه تمنّى أن تقوم السّعودية بواجب دعوة الدّروز إلى الإسلام الصّحيح، فاستأذنت السّفير أحمد الكحيمي لزيارة وليد جنبلاط وتوكيد الخبر فقال: (شو عليه، وقل له أحمد يسلّم عليه) فزرته بصحبة أحد دعاتنا من أصل درزي، وشكرته على

إيفاد (٢٠) طالبًا درزيًّا إلى الأزهر لحضور دورة دينيّة مدّتها شهران، فقال: (وأنتم كذلك لا بدَّ أن تساهموا في إعادة الدّروز إلى حظيرة الإسلام) بهذه الكلمات والمعنى، وقمنا بعد التّشاور معه بزيارة إحدى مدارسهم في (عالَيْه)، وأذكر أنّهم أبدوا استياءهم لما قرأوه في إحدى الجرائد والمجلات من إجابة الشيخ ابن باز لسؤال عن الدّروز بأنهم خارجون من الملّة، وفي المقابل: كتب شيخ العقل (بهجت غيث) في مجلة الضُّحى الدّرزيّة: (دستورنا كتاب الله وسنّة رسوله، نُحِلُّ ما أحلّا ونُحَرِّمُ ما حَرَّمَا)، والشيعة والصوفية والحزبية تدّعي بمثله. ولكنّي لم أشهد مرّة واحدة وقوف طائفة لبنانية في وجه الدعوة إلى الدين الصحيح، وشهدت مرّات عديدة وقوف الدّعاة المنتمين إلى الإسلام والسُّنة عَقَبات في طريق إخوانهم الذين لا يتَّبعون منهاجهم الانعزالي، ولم تُعانِ الدعوة السّلفية في سوريا حَظْرًا على نشاطها قبل أن يجتهد البُوطي هدانا الله وإياه في التأليب عليها. ولم تُعانِ الدعوة السَّلفيّة في لبنان والأردن أيّ حَظْر على نشاطٍ لها إلا بسبب الشقاق بين المنتمين إليها إضافة إلى الحزبيّين والمتصوّفة والأحباش هداهم الله جميعًا.

ولم يُقْتَل في فتنة حماة ولم يُسْجَنْ من دعاة السُّنّة الصّحيحة غير واحد من السّلفيّين اعترف لي بعد إطلاق سراحه بأنّ خروجه عن منهاج السّلف هو سبب سجنه، إذْ دَفَع لقريب له من حزب الإخوان المسلمين مالاً اشْتُرِيَ بجزء منه سلاح

للمفتونين وطُبع بجزء منه ديوان لمروان حديد يُذْكي الفتنة ليس فيه كلمة واحدة للدعوة على بصيرة، ولم يُمْنع الشيخ عبد القادر بدمشق عن الخطابة إلاّ بسبب خروجه عن منهاج النُّبوَّة في خطبة الجمعة إلى خطب الحداثة الإسلاميّة عن الحوادث والطّوارئ، تجاوز الله عنّا وعنهم جميعًا.

ولم يُخْرَج الشّيخُ الألبانيّ من الأردن إلاّ بتأليب من كبار المبتدعة، ثم ردّه الملك بعد أنْ بَيَّن له حقيقة حاله أَحَدُ تلاميذه، وعندما سُلِّم للمخابرات السّوريّة صَدَق ظنّي فأَطْلِق سراحه في الليلة نفسها وسُمِحَ له بالخروج إلى لبنان بعد ثلاثة أيام حسب رغبته لأنّه رَحِمَهُ اللَّهُ مُنْشَغِل بالعلم الشرعي والدَّعوة الشرعيّة عن السّياسة غير الشّرعية. ولم يُمْنع شيء من كتب ابن تيمية في سوريا حتى استغلّها حزب الإخوان المسلمين (وهو غير متّبع لمنهاجها) في محاولته للسّطو على السّلطة.

وشرّف الله دولة الدّعوة إلى التّوحيد والسُّنّة بطبع ونشر وتوزيع الكتب والمراجع والرّسائل والمصاحف في كلّ بلاد الشام (وغيرها) وشرفنا بتهذيب وطَبْع وتوزيع نحو تسعين كتابًا لم تَمْنَع دولةٌ واحدة كتابًا واحدًا، وفقهم الله لطاعته وهداه.

وحتى العراق على سوء حالها لم تحارب الدعوة السّلفيّة (بخصوصها) إلاّ بعد أن استَغَلَّ عِزّت إبراهيم حَرْب تحرير الكويت وقيادة الدّولة السّعودية للدعوة السّلفيّة لإرضاء نزعته الصّوفيّة والانتقام من أهل المنهاج السّلفي.

وأشهد أنّ منهاج العقيدة في معاهد الدّولة السّوريّة أقرب إلى السُّنّة منه في معاهد حزب الإخوان المسلمين وغيرهم من المنتمين إلى السُّنّة أَلَّفه: الخنّ وقلعجي والبغا وخيرهم: الشيخ علي الشوربجي جزاهم الله خير الجزاء.

وأسَّسنا معهدًا للعلوم الشرعيّة في طرابلس لبنان بتمويل بعض المحسنين، ولكن الإرهاب والعدوان (المسمّى ـ زورًا ـ الجهاد) تسبّب في توقُّف مُمَوِّلِه الأوّل عن تمويله، ولكنّه استمرّ في العمل بتمويل من شركة الجميح القابضة وجمعيّة إحياء التراث بالكويت جزاهما الله خير الجزاء وأجزل لهما الثواب.

وأعنّا عددًا من الأفراد والمعاهد والمدارس والجمعيّات الدّينيّة الشرعيّة بشرط تجنُّب التحزُّب والتّعصُّب والعنف، والتزام الدعوة على منهاج النُّبوّة من أحكام الشريعة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

١٨) ولبنان شاهد حيّ على سوء عاقبة التّحزُّب والتَّعصُّب والعنف يذكّر من زاره بُعَيْدَ انتهاء الحرب الطائفيّة بأن الفتنة الدّاخليّة أسوأ من الغزو الخارجي؛ فلم يفعل محتلٌّ أعجميٌّ في بلد عربيّ ما فعلته الحرب الأهليّة في لبنان والصّومال والاحتلال العراقي في الكويت، وأخيرًا الاقتتال في فلسطين بين الفلسطينيّين.

كانت آثار الدّمار في كلِّ مكان (في السّهل والجبل

والبحر)، وكان النّاس في بيروت يزيدون آثار الدّمار سوءًا؛ يسرقون الكهرباء (مثلاً) من خطوطها في الشّوارع ويضيئون المصابيح الكاشفة بقوة (٥٠٠ وات) على بيوتهم ليلاً ونهارًا، ثم يلعنون الدّولة محمّلينها مسؤولية ضعف الكهرباء، (وما لبلائنا سبب سوانا).

وعوَّدهم الاقتتال بينهم على تحصين منازلهم بالأبواب الحديديّة الثقيلة والأقفال المتعدّدة، وتحصين سياراتهم بأجهزة الإنذار.

وأقنعني أحد الإخوة بإلباس الباب الخشبي لمنزلي دِرْعًا من الحديد وتزويده بثلاثة أقفال بين (٣ و٦ درجات) وبَشَّرَني بعد ذلك أنّه لن يتمكن مُعْتَدْ من فَتْحِه بملعقة كما يحدث للأبواب غير المدرّعة بل بقاذف صواريخ مضادّ للدّروع.

ولا بدّ أنه يَعْقل ما يقول فقد فهمت منه أنّه استولى على منزل لسعودي غائب قبل استعمال الدّروع والأقفال المزدوجة، وفارقته وهو في حيازته.

وتعوّد اللبنانيّون على انقطاع الكهرباء بسبب الحرب وسوء الاستعمال، فحملوا المصابيح اليدويّة ليجدوا طريقهم إلى منازلهم وطريقهم داخلها حتى يضيئوا الشموع.

وتعوّدوا على أصوات الرّشاشات؛ زارني الأخ (مغتصب الشّقق) في فندقي وأظهر نقصًا في الشجاعة إذ توارى خلف

حائط عندما هممتُ بفتح قِدْر ضَغْط طبَخْتُ فيه غدائي خوفًا من الانفجار، ولكنه رافقني في السّيارة إلى (صيدا) وكان الطّريق مزدحمًا بالسّيارات، فسمعْتُ طلقات الرّشاشات المتتابعة وكأنَه لم يسمعها، فلما سألته عنها تثاءب وتمطّى وقال: (بيأوّصوا في الهَوا تَايفُكّوا عَجْأة السّير) كانوا يطلقون الرّشاشات ليحثّوا السّيارات على الحركة، فرأيت العودة إلى المنزل وتأجيل الزّيارة حتى يبدأ استعمال إشارات مرور أسْلم.

١٩) وأثناء عملي في بلاد الشام زارني الشيخ إسماعيل ابن عتيق المدير العام المساعد للدعوة في الخارج، وأخبرني برغبة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في أن نقوم معًا بزيارة مُفْتي الجمهورية السّوريّة في دمشق ومؤسّسته التّعليميّة (معهد النّور) في حي الأكراد في دمشق، ومُفْتِي الجمهوريّة الشيخ (أحمد كفتارو) هو رئيس الطريقة النّقشبنديّة في سوريا، من أصل كردي، وهو محدِّث لَبِق، ولباقته أقنعت الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ بتمويل بناء (معهد النّور) رغم الاختلاف بين السّلفيّة والصّوفية، ولباقته يسّرت له الحصول على تصويت علماء سوريا بتعيينه مفتيًا عامًّا. وسمعته في أحد دروسه يروي إجابته على سؤال السّفير الكندي: كم عدد المسيحيّين في سوريا؟ أجاب المفتي: (١٥ مليون) بمعنى أن المسلمين أيضًا يؤمنون بالمسيح، فهو حريص على إرضاء الجميع، وكان الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ فَهِمَ منه أن (معهد النّور) يعلّم معتقد السّلف ويطلب

إعانته، وعلى هذا طلب منّا زيارته، وزرنا المعهد فوجدنا منهاجه خليطًا من الفكر والتَّصوُّف وما يسمّى علم الكلام، وهو يضمُّ كلِّيّة للدّعوة تموّل (ليبيا) تشغيلها وتشترط وجود ليبيِّين في الإدارة، ومُقرّر المعهد في العقيدة كتُبٌ للزّنداني لا تأمر بالتّوحيد ولا السنَّةِ ولا تنهى عن الشِّرك ولا البِدْعة.

وزُرْنا الشيخ كفتارو في مزرعته على طريق المطار، وتمتَّعنا بطيب طعام الفطور الصُّوفي فلم يَعُد ـ كما يُرْوَى ـ ماء وكسرة خبز، وأبدينا للشيخ وابنه مدير المعهد استعدادنا للإعانة بالكتب والمعلِّمين من سوريا، ورأينا أن يُقَرَّر لتدريس الاعتقاد متن الطحاوية في المعهد وشرحها لابن أبي العزّ الحنفي في الكلِّيّة (عوضًا عن كبرى اليقينيات الكونيّة للبوطي) فوافق الشيخ فورًا وزاد بأنّه كان يتمنّى ـ من قبل ـ التخلُّص من كتاب (كبرى اليقينيات) لأنه يقوم على الفكر المعقّد الذي لا يستطيع الطّالب أن يفهمه أو يخرج منه بشيء، ولكن ابنه التّنفيذي رفض قولاً أو فعلاً. وكانت زيارتنا عام (١٤٠٢) في نهاية فتنة (حماة) فلم نجد أثرًا لما كان يُجْلِب به حزب الإخوان أثناء جَمْعهم التّبرعات من أن الدّولة مَنَعَت الحجاب ومَنَعَت الدّروس الدّينيّة واعتقلت الشّباب المصلّين والمُلْتَحين؛ بل إنّ أوّل ما رأينا على الحدود عسكريًّا يصلّي، ورأيت الحجاب في بعض أحياء دمشق أبرز منه في أيّ بلد بعد جزيرة العرب، وفوجئتُ بضابط سوري (بثلاث نجوم) مُلْتَحٍ يصلِّي بجانبي في المسجد،

وعرفتُ منه (ومن غيره فيما بعد) أنّ النِّظام في الجيش السّوري لا يمنع منسوبِيه من الالتحاء (كما تفعل أكثر الجيوش العربيّة).

وأصْل فِرْيَة منع الحجاب تصرُّفٌ فرديّ في يوم واحد أعلن بعده رئيس الدّولة على الملأ: أنّه وإن كان هو شخصيًا لا يرى فرض الحجاب فإنه لا يجيز لأحد منعه.

ووجدنا دروس الشيخ عبد القادر منتظمة ولكنه توقّف عن الخطابة على إثر إشاعة بأن وزارة الأوقاف السّوريّة ستلزم الخطباء بالدّعاء للرئيس فكتب له الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ أن يعود للخطبة ويدعو للرئيس ولو لم يُلْزَم لعلّ الله أن يقبل منه.

وادَّعت مجلة المجتمع لسان حزب الإخوان المسلمين في الكويت أنّ الدّولة السُّوريّة قتلت (٢٠) ألف ثائر في فتنة (حماة)، وقال غيرها: (٣٠) ألفًا و(٧٠) ألفًا (وكَيْلُ العرب اليوم جُزَاف). وظهر تقرير حزب الإخوان وحلفائه من القوميِّين العرب والبعثيِّين العراقيِّين وغيرهم من العلمانيِّين: (حَمَاة مأساة العصر) فَعَدهُم (٣,٠٠٠ آلاف) ولكن من يَعُدُّ ومن يُصَدِّق ومن هو القاتل وما منهاج المقتول؟ واستعدى المبتدعة (وهم الغالبيّة العظمى في الشام كغيرها) مؤسّسة أمنيّة على صديقي الدّاعي إلى الله على بصيرة (في المالكيّة شمال القامشلي) مُلّا إسماعيل رَحِمَهُ اللَّهُ فسُئل في التّحقيق عن رأيه في فتنة (حماة) وأساسها: إزالة فقرة: (الإسلام دين الدّولة) من الدّستور الجديد، فأجاب:

(حزب الإخوان ومن حالَفَه من العلمانيِّين مخطئون والدّولة مخطئة) فسئل: كيف؟ فأجاب: هم يعلمون أنّ الإسلام لم يكن دين الدّولة منذ الحكم العثماني فليس من الشرع ولا من العقل أن يَخْرُجُوا انتصارًا لقول يخالف العمل، وأخطأت الدّولة لأنها لم تمنع الفتنة (وما أريق فيها من دماء وما بُذِّر فيها من أموال) بثلاث كلمات؛ فأعْطِيَ حصانةً من كيد المبتدعة، وهو شيخ حمدي السَّلفي الداعي إلى الله في العراق، والاثنان من أصل كردي عراقي، وجَدَّ المبتدعة المنتمون إلى السُّنّة من العراقيّين في طلب الملاّ إسماعيل ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه فهاجر إلى أرض الشام المباركة فعاش فيها بقيّة حياته رَحِمَهُ اللَّهُ، وانتظم في سلك الدّارسين بمسجد الدَّقر أول عهده بالشام ليَضْمَن الإقامة والطّعام والدّعوة (وأهل الشام من خير من عرفت بذلاً في سبيل الإحسان) ووُشِيَ به إلى الشيخ علي الدَّقر تجاوز الله عنهم بتهمة نشر التّوحيد والتّحذير من الشرك فمَنَع عنه الطعام ولكنّ الطّباخ صار يزيد نصيب صديقٍ له من الطعام ليأكلا معًا (حسب روايته لي وما جرَّبْتُ عليه كذبًا).

وسافر إلى الرّياض يجمع التبرُّعات لبناءِ مسجدٍ للسُّنّة في المالكيّة لا يفسده المتصوِّفة ببدعهم ورقصهم، وشِرْكهم وغَزَلهم أحيانًا (ذكر لي الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه شهد حضرةً صوفيّةً في أحد مساجد دمشق شهدها اثنان من كبار علمائها اسم أحدهما حسن والثاني حسين، فكان المبتدعة

الصّوفيّة يومئون إلى كلٍّ منهما يدعونه من دون الله: مَدَد يا حسن مَدَد يا حسين، والشيخان يضحكان طَرَبًا فلا يُنْكِران عليهم، ثم يومئون إلى فتاتين تطلاَّن من حجيرة النّساء، متمايلين مغنِّين: حَيّ.. حَيّ.. هَيّ؟ والأَهيّ؟). وأدركه الحجّ فحجّ مع قافلة تأخّر عن موعد سفر العودة معها فعادت بدونه ومعها متاعه وجواز سفره، وكان خيرًا له فدلَّه الله على ابن عساكر وكان معه رسالة من الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تُعرِّف به وتطلب إعانته على بناء مسجد السُّنّة فرقّ له قلب واحد من أقارب ابن عساكر وقبل مرافقته له في سيارته إلى الرّياض ليلحق بمتاعه وجواز سفره، وأنِس به في الطّريق فعرض عليه الإقامة على كفالته بالمملكة المباركة.

ولستُ أرى انعزال أهل السُّنّة بمساجدهم عن المبتدعة لعلّهم يكونون قدوة صالحة ولو لرَجُل واحد، ولكني أَعَنْتُ الشيخ على بناء مسجد التّوحيد بالمالكيّة بعدما عانيت من شراسة متصوّفة الشام بخاصّة (أذكر مرّة حضرت بدعة تتكرّر يوميًّا في بعض مساجد دمشق بعد صلاة الفجر يسمُّونها: جلسة الصّلاة على النّبيّ مع أنّه ﷺ لم يأمر بها، ولم يفعلها ولا أحد من خلفائه ولا صحابته ولا متبعي سنّته في القرون المفضّلة: يجلس شيخ الجلسة على عرشه وبين يديه صندوق فيه عشرات المسابح أكثر من عدد المصلّين ـ عادة ـ فتُوَزَّع عليهم، وفيه وعاء فارغ وآخر مملوء بالحصى، ويأخذ الحاضرون بالطّقطقة

على المسابح والهمهمة بما يفترض أنّه صلاة على النّبيّ ﷺ، ثم يرْفع أحدهم أصبعه إشارة إلى أنّه صلّى مائة فينقل الشيخ حصاة إلى الوعاء الفارغ حتى يمتلئ ويَفْرَغ الآخر، ثم قاموا إلى الرّقص والغِنَاء، وتنبّه شيطان منهم إلى أنّي من أهل نجد ولم أشاركهم بدعتهم، فهجم علي ليقيمني قسرًا في صفّ الراقصين المغنّين المتقرّبين بالابتداع، فكدتُ أقول له بلسان شوقي:

أقوم؟ هات قدمًا.. أقول؟ أعطني فمًا
أما تراني هيكلًا محطّمًا مهدّما

من روايته عن مجنون ليلى، وأغاثني الله برجل عرف الحقّ في السّعودية فشهد لي بالعَجْز).

٢٠) وأثناء عملي في بلاد الشام دعاني الملحق الدّيني السّعودي بلندن إلى زيارة الدُّعاة هناك فاستعنت بالله وركبت السّيارة ـ المنزل الصّغير ـ مع زوجتي وابني من عمّان إلى سوريا إلى تركيا إلى اليونان (من شرقها إلى غربها) ثم ركبنا بسيارتنا في عبّارة إلى جنوب إيطاليا، ونزلنا وقد أرهقنا السّفر بسيارة ديزل أقصى سرعتها (٨٠ك،س) مسافة تقارب (٤٠٠٠كيل) قبل أن تقوم العبّارة باللازم.

ولما كان الليل وشيكًا ونحن في حاجة إلى البحث عن مخيّم للمبيت فيه وقفنا عند أوّل مطعم للوجبات الخفيفة، ولكنّها كانت ثقيلة من حيث الثمن ومن حيث صعوبة التأكد من

حِلِّها لمن تعوّد مثلنا ـ بفضل الله ـ طِيْب المطعم ورُخْص ثمنه، فلا أعلم بلدًا في الدّنيا يضاهي السّعوديّة المباركة من حيث ثبات (بل تدنِّي) أسعار الطّعام مع زيادة الدّخل؛ تمضي (١٠ و٢٠ و٣٠) سنة وسِعْر الأكْلَة هُوَ هُوَ لم يتغيّر، ومثله كيلو الفاكهة والخضروات، وقبل نصف قرن كان ثمن المُطَبّق ريالي فضّة واليوم بريالين أو ثلاثة ريالات وَرَق، وكان ثمن كيلووات الكهرباء قبل (٣٠) سنة خمسين هللة وثمنه اليوم خمس هللات، وثمن المكالمات الهاتفيّة في نزول مستمر، وثمن المِتْر المكعب من الماء هو هو منذ عُرِفَتْ عدّادات المياه وإن كانت لا تُوجد أوْ لا تُقْرَأ ولا تُحْسَب في أكثر مدن وقرى المملكة المباركة، وشُكْر النّعمة الإسراف والهَدْر.

وأخذنا بُلْغَتَنا تلك الليلة وفي الصّباح قبل أن نركب (طريق الشمس) الذي يصل جنوب إيطاليا بشمالها مَرَرْنا ببائعة خضروات فاشترينا ما يكفينا يومين أو ثلاثة وطبخنا غداءنا في السّيارة أثناء السّفر فلم نحتج للمطاعم (حتى عدنا إلى تركيا وبلاد الشام) إلاّ نادرًا.

والصُّور والتّماثيل سِمَة بارزة لأكثر المدن الإيطاليّة في الشوارع والميادين والكنائس والمتاحف وأكثرها دينيّة وأكثرها عارِيَة (ومن أشهر هذه تمثالٌ باسم النّبيّ داود عليه السلام (لمايكل أنجلو) يُظْهر سَوْأة القُبُل حتى اليوم) مع أنّه جاء يومٌ على بعض هذه التّماثيل رأى بعض متديِّني النّصارى أنّه لا بدّ من تغطية

السّوأة أو قَطْعها، ولا يَظْهرُ أنّ الدّافع كراهية النّبيّ أو المَلَك بل الفَنّ. وللعمارة الرّومانيّة سِمَتُها في الملاعب والكاثدرائيات والأبراج، وأشهرها (برج بيزا المائل) ولا يزال مَيْلُه في ازدياد منذ بُنِي قبل (٤٠٠ سنة) ولكنّ البناء يشدُّ بعضه بعضًا. ومَيَلانه أهمّ ما يجذب السّائحين إليه. وهو مبنيّ لجرس الكاثدرائية الرّومانيّة الشهيرة بجانبه، وتبرز فيهما الأعمدة والأقواس التي يسمّيها المسلمون ـ خطأ ـ: الطّراز الإسلاميّ أو العمارة الإسلاميّة وهي بدعة كنسيّة.

وكان قادة النّصرانيّة يقاولون الرّسّامين والمصوِّرين والنّحاتين لتزيين هذه الكاثدرائيات (سقوفها بخاصّة) بصور وتماثيل الأنبياء والقديسين والملائكة وقصص التّوراة التي اشتهر بها (أكثر من غيره) مايكل أنجلو فرسم داود وموسى والمسيح وأمّه عليهم السلام والقَصَص من بداية الخَلْق إلى يوم الحشر والحساب، وسبقه إلى شيء من ذلك (بقليل) سَلَفُه ليُونارْدُودَفِنْشِي، ولكنّه لم يقتصر على الصُّوَر بل كان بارعًا في العمارة والهندسة والفكر، فسَبَقَ إلى كثير من المخترعات قبل تنفيذها في هذا العصر ببضعة قرون، ويذكر التاريخ الأوروبي أنّه ابن زِنَى، وعُدَّ من أبرز الأوروبيّين في عصر النّهضة الأورُبيّة.

وفي طريقنا إلى شمال إيطاليا ذكرْتُ للأهل أننا مُقْبِلون على أجمل منطقة رأيتها في أوروبا عندما تجوّلت فيها عام ١٣٨١ ـ ١٩٦١ حيث تلتقي إيطاليا بسويسرا تحت جبال الألب

حول بحيرة (كومو) في الجانب الإيطالي وبحيرة (لوكانو) في الجانب السّويسري، ولما وصلناها عَرَفَها الأهل من وَصْفِي لها وأقرُّوا بأنَّها أجمل ما رأوا في أوروبا وأمريكا.

وفي (سويسرا) تَذَاكَرْنا حساب وقت السّفر ذهابًا وعودةً فوجدنا أنّه لم يبقَ من الوقت المتاح لنا ما يكفي لتحقيق غرض السّفر: زيارة الإخوة الدّعاة في (إنكلترا) فقرَّرنا آسفين الوصول إلى شمال (سويسرا) قبل أن نبدأ رحلة العودة إلى بلاد الشام.

ونزلنا من شمال فرنسا إلى جنوبها، وبين سويسرا وإيطاليا وفرنسا في جبال الألب مَمَرَّان باسم (سانت برنارد) أصغرهما في فرنسا، وعلى بُعْد (٣٢ كيلاً) يقع أكبرهما على الحدود بين سويسرا وإيطاليا على ارتفاع (٢,٤٧٢ مترًا) فوق سطح البحر، وقد تورّطت عام ١٣٨١ ـ ١٩٦١ في صعوده بسيارتي مع سيارات السّائحين (يا غافل لك الله)، وكان الطريق ضيِّقًا والسيارات أمامي وخلفي كثيرة، وحين تبدأ الصعود لا بُدَّ لك من إتمامه والنزول من الجانب الآخر، أمّا هذه المرّة فقد وجدناهم شقّوا نَفَقًا تحت الجبل وحَوْله طوله (١٩) كيلاً، وهانت عليّ ذكرى صعوده بعد أن علمت أن (نابليون) صعده مع (٤٠) ألف جندي (بسلاحهم ومتاعهم) عام (١٨٠٠) ليهزم النمساويّين في معركة (مارِنْكو) المشهورة: (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) الدنيويّة، ولم تَضِق طُرُق (مونت كارلو) هذه المرّة ببيتنا الصّغير السّيار عام (١٤٠٨) كما فعلتْ ببيتنا الكبير السّيار عام (١٣٧٤).

وفي (الرّفييرا الفرنسيّة) رأينا نُزُلاً صغيرًا جميلاً فأغرانا (لأوّل مرّة في القارّة الأوروبيّة) بالنّزول فيه ليلة واحدة، ومن أعجب ما تميّز به أنّه تقوم على إدارته وحساباته وتقديم الطّعام والشراب في مطعمه ومقهاه امرأة واحدة، ومع كلّ هذه الأعمال تجد أحيانًا فراغًا قصيرًا لسَقْي النّباتات وشجيرات الزّينة وتسوية أرض الزّراعة بمسحاة أنيقة (تليق بالرّيفييرا الجميلة والنّزل الجميل وأيدي القوارير) ولا تُظْهِر سأمًا. وذَرَعْنا الرّيفييرا الفرنسيّة ثم الإيطالية للمرّة الثالثة لأنّها على الطريق. وكان ابني يقود السّيّارة المنزل أكثر الوقت، فإذا طلبنا منه التّوقُّف من أجل الأكل قال: (بَعْد.. بَعْد)، والظّاهر أنّه كان يخشى أن يكون وجود والدته المتحجّبة (حجابًا تامًّا لا يكاد يعرف خارج السّعوديّة) نشازًا في الرّفييرات.

ولما طال بنا المسير واشتدّ بنا الجوع خرقنا العادة فوقفنا على مطعم إيطالي تقليدي فملأ أَحَدَ قُدُورنا من (الباسطا ـ المكرونة) اللذيذة وزادها الجوع لذة. وركبنا العبارة من (بِرِنْدِسِي) جنوب إيطاليا إلى اليونان فوق جبالها، ومنها إلى تركيا ووجدنا جسرًا ثانيًا قد بُني على مضيق (البوسفور)، وتتبّعنا في تركيا شواطئها اللّازورديّة على البحر الأبيض المتوسط ثم شواطئ سوريا ثم طُرُقها الصّحراوية ـ الجبلية إلى دمشق فعمّان.

٢١) وأثناء عملي في بلاد الشام رغبت في زيارة بعض

الإخوة الدّعاة في (مصر) تواصيًا بالحقّ وتواصيًا بالصّبر؛ فركبنا منزلنا الصّغير السّيّار إلى ميناء (العقبة) قريبًا من (٣٥٠ كيلاً)، ومن العقبة ركبنا عبّارة إلى ميناء (نويبع) المصري، ثم قطعنا أرض سيناء التي قطعها موسى ﷺ مرّاتٍ إحداها إلى أرض مَدْيَن التي يقال عنها: بأنّها القريبة من (البِدْع) في السَعوديّة.

وقدّر الله لمصر بقيادة (السّادات) استعادتها من الاحتلال الإسرائيلي باتّفاق مع الدّولة العبريّة بقيادة (بيكن)، ومع أن السّادات عُودِيَ بسبب ذلك ثم قُتِل، وقوطِعَتْ مصر للسَّبَب نفسه؛ فإنّ العرب (الفلسطينيّين بخاصّة) لم يتمكنوا من الحصول على مثل ولا خير من هذا الاتِّفاق، بل أبرموا اتّفاقًا هزيلاً في (أوسلو) رغم لاءاتهم وعنتريّاتهم أردأ مما أنكروا على المصريّين.

وعبرنا قناة السّويس من نفقٍ تحتها لم نعرفه من قبل، وقضينا الليل في الإسماعيليّة، وفي الصّباح استمرّ السّفر إلى القاهرة، وعَرَفْتُ القاهرة أول مرّة عام ١٣٧٤ ـ ١٩٥٤ أقلَّ سيارات وأقلَّ بشرًا وأقلَّ تلوُّثًا وأقلَّ أسعارًا. ولم تنقص البِدَع ولا محبّة المصريّين للحديث والضّجّة والفكاهة، وقلّ انبهار السّعوديّين بمصر بعدما رأوا ما يفوقها مدنيّة في الداخل والخارج، ولكن كثيرين (من المنطقة الغربيّة خاصّة) يقضون إجازاتهم في مصر؛ شهِدْتُ أحدهم أعطى متسوّلاً (١٠) قروش فدعا له أن يعيده الله إلى بلاده فاستعاد صدقته خشية أن يقبل الله

دعاء المتصدَّق عليه. ووجدت في المطاعم أكلةً ما كنّا نجدها إلا في البيوت (الحَمام بالفريك) لذيذة وطبيعيّة ولو وجَدَتْ من يسوّقها في الخارج فلربما نافَسَتْ مطاعم الهامبوركر والبِيتْزا، ولكانت خيرًا منها عاقبة.

وفي أيام إقامتنا في مصر كان يوجد مطعم على النّيل في منطقة الجزيرة اسمه (كازينو الحَمَام) بجوار نادي الصّيد يقدّم الحمام (بعد صيده) مشويًّا، وفوقه بُرْجٌ يشهد بحُسْن تصرّف جمال عبد الناصر تجاوز الله عنه: قدّمت أمريكا (٣) ملايين دولار لأحد القادة الأفريقيّين لتحسين العلاقة بين الدّولتين فرفَضَها، ولأنّ (فَرْد حمزه ثاير ثاير) قدّمتها أمريكا لجمال عبد النّاصر فتقبّلها دون تردُّد وبَنَى بها بُرْج الإذاعة والتّلفزيون يبثّ دعايته ضدّ السّياسة الأمريكيّة ليلاً ونهارًا وبكلّ اللغات المنتشرة. ويذكرني هذا (مع الفارق) باثنين من علماء المملكة المباركة قُدِّم لأحدهما نصف مليون ريال بناء على طلب من الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ مقابل عمله خارج الدّوام فرفضه، وقُدِّم للآخر أرض لم يطلبها (مقابل أعمال تطوُّعيّة) فصَرَف ثمنها في بناء أوقَفَه على أعمال الإغاثة والدّعوة إلى الله على بصيرة. ولا شك أن هذا أولى شرعًا وعقلاً؛ فهو اختيار النّبي ﷺ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولأمّته بأمر الله: «ما جاءك من هذا المال غير مستشرف له ولا سائل فخذه فتموّله أو فتصدّق به» [رواه مسلم]، ورأى بعض الفقهاء وجوب أخذ ما أُعطِيَ دون إشراف ولا سؤال وفق هذا النّصّ الصّريح الصّحيح، قاله ابن المنذر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي زيارتنا لأخ لنا في الدّين والدّعوة في العبّاسيّة مررنا بكنيسة مجاورةٍ لمدرسة مهنيّة بَنَتْهما مُبَشرة نصرانيّة أوروبيّة ورأتْ من العدل بناء مسجدٍ كان أوّل مسجد يبنى في منطقة عملها الإغاثي في نهاية المطريّة وبداية صحراء مصر الغربيّة، وكانت مكبًّا للزّبالة يسكن فيه أهل الزّبالين ليَسْتنقذوا من الزّبالة ما يصلح للاستعمال أو البيع (رُبَبِكْيَا)، فجاءت هذه المرأة من أوروبا وسَكَنَتْ معهم على الزّبالة في كوخ صَنَعَتْهُ مثلهم مما في الزّبالة من ألواح وورق مُقَوَّى وشرائح الصّفيح وبنت مثله مدرسة لتعليم أبناء وبنات الزّبّالين (ثلثيهم نصارى وثلثهم من المسلمين) القراءة والكتابة والخياطة (والإنجيل للنّصارى)، وهي أوّل من اهتمّ بتعليمهم دينًا أو دنيا (بل هي الوحيدة) هداهم الله جميعًا لدينه الحقّ، لم يعرفهم الأزهر ولا الإخواني ولا التبليغي.

٢٢) ومع تقدُّمي في السِّنّ وبلوغي سنّ التّقاعد ثم التّعاقد معي بعده تسع سنوات بإشارة من معالي الشيخ د.عبد الله التركي وزير الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة زاد ضيقي بالرّوتين الإداري الذي يستهْلِك الجهد والوقت ولا يفيد (في الغالب) الدعوة التي وظّفنا الله فيها قدرًا شرعيًّا وكونيًّا طَلبْتُ تحويل القسم الإداري الروتيني من العمل لأحد الموظّفين الإداريِّين في الوزارة انْتُدِبَ للعمل (مأمور صَرْف)، وبعد أن شارفت سنّ (٧٠) وما ظننتُ أني سأصلها طلبْتُ تحويل كامل

العمل لطالب علم (رغب في هذه الوظيفة) كان حزبيًّا حركيًّا فأنقذه الله من الحزبيّة (وهي أخوف ما أخاف على الدعوة منه) فتمّ لنا ذلك.

❁ ❁ ❁

(الانتقال إلى الطائف)

واخْتَرْت الانتقال من الأرض المباركة في الشام إلى أرض أكثر بركة وقداسة، فسكنْتُ الطّائف على بُعْد (٨٥ كيلاً) من مكة، ثم مكة، وقد سبقتني والدتي رحمها الله إلى الموت في مكة والدّفن في مقبرة (العدل) الشرعيّة داخل حدود الحرم، وكنت رأيت لها ولنفسي ذلك. ولكن مقبرة العدل امتلأت وأُغْلِقَتْ، فسعيت جاهدًا مع أكثر من مختصّ لتوسعتها، فحقّق الله ما طلبت فأضيفت إليها أرض إحدى ثلاث حدائق (للأحياء) بجوارها، ولعلّ الله أن يقدّر دَفْنِي فيها وفاءً بوعدي للوالدة رحمها الله، وأجدني ازددتُ رغبةً في التردُّد على مكة المباركة، وحتى يحين الأجل أرجو من الله الثبات على منهاج النّبوّة في الدّين والدعوة وتذكير نفسي وغيري بهذا المنهاج الذي لا يقبل الله غيره، وميّز هذه البلاد وهذه الدّولة به، وكان أمراؤها وما زالوا يضربون مثلاً صالحًا وقدوة صالحة، وإليك المثال الفردي فضلاً عن أنّ الدّولة قامت وحدها (منذ القرون المفضلة) على هذا المنهاج:

ـ يذكر الزّركلي أن الملك فيصل بن الحسين ملك العراق (أثناء اجتماعه بالملك عبد العزيز رحمهما الله عام ١٣٤٨) حاول إقناع الملك عبد العزيز بصدقه فحَلَفَ برأسه، فلم يكد يلفظ هذا الشرك أو الكفر حتى أنكره الملك عبد العزيز بقوله: (قُلْ: والله) دون مراعاة للدّبلوماسيّة.

ـ ويذكر محمد أسد (الصحفي الأوروبي اليهودي الذي هداه الله للإسلام) أنّه كان يومًا في مكتبة المسجد الحرام عام ١٣٤٥ عندما دخلها الأمير الشاب (٢٣ سنة) فيصل بن عبد العزيز، فانحنى له محمد أسد يحيِّيه، فرفع فيصل (رحمهما الله) رأس محمد أسد برفق قائلاً: (نحن هنا لا نحني إلَّا لله) وكان أول لقاء بينهما (الطّريق إلى مكة ـ دار العلم للملايين).

ـ ويذكر حمد الجاسر في سوانح ذكرياته أنّه دخل على الملك سعود رحمهما الله عام ١٤٧٤ يُقدِّم له كبير مستشاري المديرية العامّة للمعارف (وزارة المعارف فيما بعد) فقال: (يَخْسأ، هذا جهميّ لا يبيت عندنا في الرّياض ليلة واحدة) رغم ما عُرِف به رَحِمَهُ اللَّهُ وتميّز من الكرم والجود والعطاء وصِلة مَنْ يَفِدُ عليه.

ـ ويذكر الشيخ عبد الله خيّاط رَحِمَهُ اللَّهُ خطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء أن الأمير عبد الله بن

عبد الرحمن آل سعود رَحِمَهُ اللَّهُ نَصَحَه ألاّ يُدْخِلَ القضايا الاجتماعيّة في خُطَب الجمعة [لأنَها عبادة مفروضة لا يَصْلُح لها إلاّ ما نزل به الوحي لا الفكر والظنّ]، وظنّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ هذا الأمر حَرِيٌّ به أن (يُسْتفتى فيه الجمهور الواعي لترجيح أيّ المسلكين) في مذكراته لمحات من الماضي، فأصاب الأمير في إنكاره مخالفة السّنة وأمره بالمعروف، وأخطأ الشيخ إذ خالف ما كان عليه النّبي ﷺ وأصحابه ومتّبعو سنّته في القرون الأولى (بل والأخيرة حتى القرن الماضي)، وأخطَأَ الشيخ ثانية إذ لم يَرَ الرَّدّ إلى الله والرّسول في أمرٍ من أمور العبادة ورأى الرَّدّ إلى فكر الجمهور الواعي.

ـ وسئل الأمير نايف بن عبد العزيز قبل بضعة أشهر عن (تحفيظ القرآن) فبيّن نصر الله به دينه أن حفظ القرآن نافلة، وأنّ تدبُّره فريضة، وأن الانشغال بالنافلة عن الفريضة مخالفةٌ لشرع الله، [ولذلك اهتمّت مدارس الدّولة باسم (تحفيظ القرآن) وعددها يقرب من (٢,٠٠٠) بتدبّر القرآن أولاً بتعليم التّوحيد والفقه والحديث والتّفسير واللغة والسّيرة وبالحفظ ثانيًا].

وهذا فقه للشريعة لا يُدْركه القائمون على جمعيات تحفيظ القرآن الذين اقتدوا بالأعاجم الذين يسْتَغْنُون بالحفظ عن التدبُّر، واستغلّوه لأغراضهم.

ـ وأهمّ ممّا تقدّم: ما تعاهد عليه الإمامان محمد بن

سعود ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله من تجديد الدّين والدّعوة، وما هدَمَه الإمامان عبد العزيز بن محمد وسعود بن عبد العزيز بن محمد رحمهما الله من أوثان المقامات والمزارات من العراق إلى عُمَان ومن الخليج إلى البحر الأحمر، وما أزالوه جميعًا مِن البِدَع ونشروه من السُّنّة، واعْتَدَتْ قوى الضّلال العثمانية عليهم فجدّد الله الدّين بتركي وفيصل.

ـ ومثل هذا في الأهميّة ما جُدِّدّ به الدّين في عهد الملك عبد العزيز وهُدِم من الأوثان (المعادة) وما أُزِيل من البدع وما طُبِع من كتب الدّين ومراجعه، وما نُشِر في عهد الملك سعود من فقه ابن تيمية رحمهم الله جميعًا وغيرهم، وما أُسِّس في عهده من معاهد العلوم الشرعيّة وكلِّيّاتها، وما رُفِع للسُّنّة في عهدهم وفي عهود من تبعهم من أعلام في الداخل والخارج.

فوفاءً لله ثم لهؤلاء الذين ميَّزنا الله بسببهم على بلاد ودول وشعوب الأرض في الدّين والدّنيا لا يليق بالمواطن السعودي (بخاصّة) الخروج عمّا كان عليه النّبي ﷺ وأصحابه.

خاتمة

١) لقد حاولت أن أجيب الطّلب بتسطير ملخّص لما أتذكّره من أسفاري في طلب العلم وخدمة دولة الدّعوة إلى التوحيد والسنّة بأقلّ عدد من الأسطر والأوراق كعادتي في القصد في القول والعمل وتجنّب الإسراف والتبذير في أيّ منهما وفي الوقت والجهد والمال.

وعلى هذا كتبت مثلاً واحدًا أو اثنين أو ثلاثة لأسفاري في الداخل وذكرت أمثلة معدودة لأسفاري في الخارج في خدمة دولة التّوحيد والسّنّة سواء في حقل التّعليم العصري قريبًا من ربع قرن أو الدعوة قريبًا من ربع قرن آخر.

٢) ولم أكن دوّنت سطرًا واحدًا عن هذا الأمر من قبل ولا ظننت أنّي سأفعل، وذاكرتي ضعيفة من قبل أن تمرّ عليها عشرات السّنين، فلا عجب إن نسيت أكثر مما ذكرت، أعاننا الله على ذكره وشكره وحسن عبادته.

٣) وتعمّدت ألاّ أكرّر الكتابة عن زيارتي إلى (عُمَان)

وهي خير بلد عرفته من حيث جمع الله لأهلها حسن الخلق والمحافظة على النظام وطاعة ولاة الأمر وشكر النّعمة، وقد رأيتها تستحقّ وصف النّبي ﷺ: «لو أنّ أهل عُمَان أتَيْتَ ما ضربوك ولا سبّوك» [رواه مسلم]. ومقالي عنها منشور في مجموع مقالاتي الثاني بعنوان: (إنما اليقين في الوحي والفقه لا في الفكر الإسلامي)، ردّنا الله وإياهم إلى دينه ردًّا جميلاً.

ويوجد مقال مماثل عن تميُّز (أشيقر) في المجموع الثالث بعنوان: (الدَّعوة والدعاة من شرع الله لجميع عباده) وهو منشور على موقع باسمي أسّسه ويشرف عليه أخي في الدّين والدعوة فضيلة الشيخ/ عبد الحقّ التّركماني (سويدي من أصل تركماني عراقي) جزاه الله خير الجزاء في الدّارين.

٤) وأنا الآن في انتظار نهاية سفري المحتّم إلى القبر راجيًا رحمة الله وفضله وكرمه ورأفته، وعفوه ومغفرته ما لازمني من نقص وتقصير وغفلة وأخطاء لا يفوقها عددًا إلاّ نِعَم الله عليّ بالدّين والدنيا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيّامنا يوم لقائك.

ومع ما فطرنا الله عليه من محبّة للحياة وكراهية للموت فإنّي أدنو من الموت راضيًا بقسمة الله تعالى، موقنًا أنّ ما عند الله خير لعبده، وقد تعوّدت منه حسن العاقبة في كلّ أمر، ولو

كان الأمر بيدي لأحببتُ أن أموت اليوم وأنا في حال طيّبة من الصّحة والعافِيَة والأمن، والسّعادة بالدّين والدعوة على منهاج النبوة، والسّعادة بالبلاد والدولة المباركة (فضلاً من الله لم أكتسبه بعملي). ولله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم.

وصلّى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومتّبعي سنّته.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
أول مفارقة للقرية	٨
السفر إلى الرياض	١٠
السفر إلى الطائف	١٣
السفر إلى مصر وبلاد الشام	٢٨
السفر إلى إنكلترا	٤٣
السفر إلى الولايات المتحدة الأميريكية	٦٣
السفر مرة أخرى إلى إنكلترا	٧٩
السفر إلى فلسطين	٨٢
زيارة إيران	٨٤
زيارة ليبيا	٨٨
زيارة الجزائر	٩١
السفر إلى العراق	٩٣
السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى	٩٦
العودة إلى المملكة المباركة	١٢٥

الموضوع	الصفحة

السفر إلى اليمن ١٣١
السفر إلى اليابان ودول آسيوية أخرى ١٣٥
السفر إلى فرنسا وأسبانيا وبعض دول أوروبا ١٤٥
السفر إلى مؤتمر في جنيف ١٥٤
السفر إلى بنكلادش ١٥٨
السفر مرة ثالثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ١٦٥
السفر إلى أوروبا وأمريكا لتتبُّع بعض النماذج التربوية ١٧٧
السفر إلى جنوب أفريقيا ١٨٥
السفر إلى أميريكا لعلاج الوالدة ١٩٢
السفر إلى باكستان وأفغانستان ١٩٥
الانتقال إلى الشام للدعوة ١٩٩
الانتقال إلى الطائف ٢٣١
خاتمة ٢٣٥
فهرس المحتويات ٢٣٩